892.708:R56mA V.4

رفاعي، أحمد فريد.

مكتبة القراءة والثقافة

892.708
R56mA
v.4

892.708
R56mA
v.4
c.1

الدكتور احمد فريد رفاعي
مدير ادارة المطبوعات المصرية

الوقت من ذهب

مكتبة القراءة والثقافة الأدبية للجيب

التعليق

٤

Cat. May 1943

٤

58661

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

WAYNE STATE UNIVERSITY
LIBRARY
DETROIT

إِنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ إِنْسَانٌ كِتَابًا
فِي يَوْمِهِ إِلَّا قَالَ فِي غَدِهِ: لَوْ غُيِّرَ هَذَا
لَكَانَ أَحْسَنَ، وَلَوْ زِيدَ كَذَا لَكَانَ يُسْتَحْسَنُ
وَلَوْ قُدِّمَ هَذَا لَكَانَ أَفْضَلَ، وَلَوْ تُرِكَ
هَذَا لَكَانَ أَجْمَلَ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ،
وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِيلَاءِ النَّقْصِ عَلَى
جُمْلَةِ الْبَشَرِ.

الْعِمَادُ الْأَصْفَهَانِي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ نَسْتَعِينُ

التَّعْلِيق

كلمة المؤلف

بِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ نَسْتَفْتِحُ الْكَلَامَ ، وَبِالصَّلَاةِ عَلَى نَبِيِّكَ الْكَرِيمِ نَسْتَعْصِمُ[1] مِنَ الزَّلَلِ[2] فِي الْقَوْلِ ، وَالْخَطَلِ فِي الْفِعْلِ ، وَالشَّطَطِ فِي الْعَمَلِ ، وَبِإِعْجَازِ قُرْآنِكَ نَصْدَعُ بِالْحَقِّ ، وَنَصْرَعُ بِبَيَانِهِ بَهْرَجَ[3] الْبَاطِلِ ، وَبِبَيَانِ نَبِيِّكَ نُقِيمُ أَوَدَ الصِّيدِ[4] ، وَنُسْلِسُ

---

(١) نطلب العصمة والحفظ (٢) السقوط والعثرات (٣) الدرهم الزائف وقد استعير لكل رديء (٤) جمع أصيد وهو مائل العنق صلفاً وكبراً والمراد تقويم المعوج وإصلاح الفاسد

قِيَادَ الْعَنِيدِ ، وَنُذِيبُ صَلَابَةَ[١] الْحَدِيدِ ، وَبِفَصَاحَةِ عَبَاقِرَتِكَ[٢] نُجْلِي[٣] الشُّبْهَةَ ، وَنُوجِبُ الْحُجَّةَ ، وَنَصْقُلُ[٤] الْخَوَاطِرَ وَالْعُقُولَ ، وَنَبْعَثُ دَوْلَتَيِ[٥] الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ ، وَنُعِيدُ لَمَعَانَ اللُّغَةِ بَعْدَ طُمُوسٍ[٦] وَأُفُولٍ[٧] ، وَبِآيَاتِ مَصَاقِعِ خُطَبَائِكَ نَتَذَوَّقُ[٨] الْبَلِيغَ الصَّادِعَ[٩] ، وَنَسْتَضِئُ بِالسَّنِيِّ السَّاطِعِ ، وَنَهْتَدِي بِالضَّوْءِ اللَّامِعِ ، وَبِكِتَابَةِ أَئِمَّةِ لِسَانِكَ

(١) كناية عن تسهيل الصعب وتقريب البعيد (٢) جمع عبقرى وهم النوابغ الأفذاذ (٣) أجلاه عن المكان أبعده والاسم الجلاء أى نبعد الشبهة (٤) صقل السيف جلاه وأزال عنه الصدأ وصقل العقول انماء مداركها (٥) أى احياء العلوم العقلية والنقلية بنشرها وايضاح غوامضها (٦) طمس القمر والنجم والبصر يطمسُ طمسا وطموساً : ذهب ضوءها (٧) أفل النجم غرب . والمراد نشر اللغة بنشر مؤلفاتها (٨) تذوق البليغ من القول فهمه وإدراك موضع الحجة منه (٩) الكاشف وأصل الصدع كسر الزجاجة استعير للاظهار والكشف وفى التنزيل فاصدع بما تؤمر أى أعلن الدعوة وأظهرها جلية .

نَعْمُرُ قُلُوبَنَا بِالْمُبْدِعِ الْمُطْرِبِ ، وَنُغَذِّى نُفُوسَنَا بِالْمَعِينِ الَّذِى لَا يَنْضُبُ ، وَنُرْشِدُ حَصَاتَنَا بِمَا لَا يُزِيغُ[١] وَلَا يُعْزِبُ ، وَبِطَلَاوَةِ عِبَارَةِ عُلَمَائِكَ نَتَّخِذُ الْوَشْىَ[٢] الْقَشِيبَ ، وَنَسْتَعِيدُ عَهْدَ الشَّبَابِ إِثْرَ مَشِيبٍ ، وَبِفَرَاهَةِ[٣] أَسَالِيبِ نَاظُورَتِكَ[٤] نَتَسَرْبَلُ بِالْجَدِيدِ ، الَّذِى لَا يَخْلَقُ وَلَا يَفْنَى . وَبِالْجَنَى الْيَانِعِ الَّذِى لَا يَذْبُلُ وَلَا يَبْلَى ، وَبِالشَّهِىِّ النَّاضِرِ الَّذِى لَا يَخْبُو[٥] وَلَا يُطْوَى ، وَبِالطَّلِىِّ الشَّيِّقِ الَّذِى لَا يُعَافُ وَلَا يُقْلَى[٦] .

---

(١) يزيغ : يضل . ويعزب : يُبعد (٢) الوشى : من الثياب ، النقش والتحسين ، والقشيب : الجديد (٣) الفراهة : الحذق بالشىء ، والحسن والملاحة (٤) الناظور من القوم ، السيد المنظور إليه منهم ، وقال فى الأساس : لا يغفل عن النظر فيما أهمَّه (٥) خبت النار والحرب والحدة : سكنت وخمدت وأطفئت (٦) قلاه : أبغضه

المقدمة وَبَعْدُ فَهَذَا كِتَابُنَا الرَّابِعُ «التَّعْلِيقُ عَلَى الْمُقَدَّمَةِ» الَّذِي ارْتَأَيْنَا مِنْ حُسْنِ الْوَضْعِ وَالتَّخْرِيجِ، أَنْ نَجْعَلَهُ لَكَ فِي سِفْرَيْنِ مِنْ مَكْتَبَةِ، الْجَيْبِ، لِتَسْهِيلِ حَمْلِهِمَا وَاسْتِسَاغَةِ مَا فِيهِمَا، أَحَدُهُمَا «التَّعْلِيقُ» حَيْثُ نُضَمِّنُ لَكَ فِيهِ إِتْمَامَ حَدِيثِ شَيْخِنَا حَمْزَةَ فَتْحِ اللهِ وَكِبَارِ تَلَامِيذِهِ، مُتَوَخِّينَ فِيهِ بَيَانَ صُنُوفٍ مِنْ مَنَاحِي الْقَوْلِ فِي مُخْتَارِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، وَمُعَرِّجِينَ بِكَ بَعْدَئِذٍ عَلَى بَعْضِ مُمَثِّلِي أَدْوَارِ الِانْتِقَالِ بَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ، فَبَاسِطِينَ مَا كَانَ مِنْ حَيْرَتِنَا كَطُلَّابِ أَدَبٍ بَيْنَ هَؤُلَاءِ، وَهَؤُلَاءِ، ثُمَّ وَاقِفِينَ وَقْفَةً مُوجَزَةً عَلَى زَعِيمِ التَّجْدِيدِ، مُوَضِّحِينَ لَكَ آرَاءَ بَعْضِ قَادَةِ الْأَدَبِ الْغَرْبِيِّينَ فِي الْأَدَبِ، وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنِ

اتِّجَاهِهِ نَحْوَ الْكِتَابَةِ التَّحْلِيلِيَّةِ وَالنَّقْدِيَّةِ، فَشَارِحِينَ لَكَ أَثَرَ الْقِصَّةِ وَكِتَابَةَ التَّرَاجِمِ، وَدِرَاسَةَ الشَّخْصِيَّاتِ الْبَارِزَةِ فِيهِ.

وَأَمَّا السِّفْرُ الثَّانِي وَهُوَ كِتَابُ «الْهَامِشِ» عَلَى التَّعْلِيقِ، فَقَدْ أَفْرَدْنَاهُ لَكَ، لِنُحَدِّثَكَ حَدِيثاً خَفِيفاً كَحَجْمِهِ عَنِ النَّوَابِغِ وَالْعُظَمَاءِ، مُبَيِّنِينَ فِيهِ فِي إِيجَازٍ غَيْرِ مُخِلٍّ حُدُودَ الْعَظَمَةِ وَتَكْوِينَهَا، وَهَلْ تَخْضَعُ الْعَظَمَةُ لِسُلْطَانِ الطَّبِيعَةِ فَيُنَظِّمُهَا كَمَا يُنَظِّمُ كُلَّ كَائِنٍ؟ وَيُخْرِجُ مِنَ الْإِنْسَانِ سِلْسِلَةً نَوْعِيَّةً مِنَ النَّوَابِغِ وَالْعُظَمَاءِ، أَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ يُبْرِزُهُمُ الْوُجُودُ بِفِعْلِ مُؤَثِّرَاتٍ لَا حَدَّ لَهَا وَلَا ضَابِطَ؟

وَالَّذِي حَدَا بِنَا أَنْ نُفْرِدَ كِتَابَنَا الْهَامِشَ، وَهُوَ

خَاتِمَةُ السِّلْسِلَةِ الْأُولَى التَّمْهِيدِيَّةِ بِالْكَلَامِ عَلَى النَّوَابِغِ وَالْعُظَمَاءِ، وَأَنْ نَذْكُرَ آرَاءَ كِبَارِ فَلَاسِفَةِ الْغَرْبِ فِي الْعَظَمَةِ وَالنُّبُوغِ، وَأَنْ نَبْسُطَ نَظَرِيَّةَ إِيمِرْسُونْ، وَمَا وَرَدَ عَلَيْهَا مِنْ نِقَاشٍ وَرُدُودٍ — إِنَّمَا أَفْرَدْنَا الْهَامِشَ بِهَذَا الْبَحْثِ، لِأَنَّ مُنْتَهَى مَا يَصِلُ إِلَيْهِ الْمُثَقَّفُ إِنْ صَحَّتْ عَزِيمَتُهُ، وَوَجَدَ الْأَدَبُ وَالْعِلْمُ مِنْهُ التُّرْبَةَ الْحُرَّةَ الصَّالِحَةَ أَنْ تُبْرِزَ الثَّقَافَةُ مِنْهُ وَمِنْ مَكْنُونِ اسْتِعْدَادِهِ نَابِغَةً عَظِيماً.

مِنْ أَجْلِ هَذَا — كَانَ كِتَابُنَا الْخَامِسُ «الْهَامِشُ» فِي التَّرْتِيبِ الْعَقْلِيِّ وَالْوَضْعِيِّ وَالْمَنْطِقِيِّ، هَامِشًا كَاسْمِهِ لِكُلِّ مَا قَدَّمْنَاهُ لَكَ مِنْ كُتُبِنَا الْأَرْبَعَةِ.

وَبَعْدَ هَذَا كُلِّهِ، نَنْتَهِي بِكَ إِلَى تَوْضِيحِ مَا انْتَوَيْنَاهُ

مِنْ وَضْعِ خَمْسَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْكُتُبِ، أُولَاهَا إِتْمَامُ هَذِهِ السِّلْسِلَةِ التَّمْهِيدِيَّةِ الْأُولَى، الَّتِي طَالَعْنَاكَ مِنْهَا إِلَى الْآنَ بِكُتُبِنَا الثَّلَاثَةِ، الْمُقَدِّمَةِ، وَالتَّعْقِيبِ، وَالتَّذْيِيلِ، وَالَّتِي نُطَالِعُكَ مِنْهَا الْآنَ بِكِتَابِنَا الرَّابِعِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ، وَهِيَ بِمَثَابَةِ تَمْهِيدٍ لِلْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، وَتَوْطِئَةٍ لِتَذَوُّقِ أُصُولِهِ، مِنْ دَرْسٍ لِلْأَمْثَالِ، وَفِقْهِ اللُّغَةِ، وَنِصَاحِ[1] الْأَسَالِيبِ، وَمَا فِيهَا مِنْ عُيُونٍ وَغُرَرٍ[2]، وَمَجَازَاتٍ وَدُرَرٍ، وَمُتَرَادِفَاتٍ وَمُعَلَّقَاتٍ، وَمَنْثُورٍ وَمَنْظُومٍ، ثُمَّ كِتَابِنَا الْخَامِسِ «الْهَامِشِ» فِي النُّبُوغِ وَالْعَظَمَةِ، ثُمَّ الْمُضِيِّ فِي السِّلْسِلَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي سَنُعَالِجُ

(١) النصاح: بكسر أوله: الخيط والسلك، ونصاح الاساليب: تراكيبها ونظامها وارتباطها (٢) الغرر: جمع غرة والمراد هنا المختارات الجيدة، وعيون الأدب لبابه.

لَكَ الْكَلامَ فِيهَا عَنْ جَمَاعَةٍ صَالِحَةٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ ، وَالْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ أَمْثَالِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْكَاتِبِ ، وَابْنِ الْمُقَفَّعِ ، وَالْجَاحِظِ ، وَالْغَزَالِيِّ ، وَغَيْرِهِمْ ، مَعَ الْإِكْبَابِ[1] عَلَى دِرَاسَةِ قَيِّمِ آثَارِهِمْ ، وَمُنْتَجَاتِ عُقُولِهِمْ ، وَعُصَارَةِ أَذْهَانِهِمْ ، ثُمَّ الْانْتِقَالِ بِكَ إِلَى السِّلْسِلَةِ الثَّالِثَةِ ، الَّتِي نَرْجُو أَنْ نَدْرُسَ فِيهَا سَوِيًّا فِي ضَوْءٍ مِنَ النُّظُمِ الْحَدِيثَةِ ، الْمَظَانَّ الرَّسْمِيَّةَ وَالشَّبِيهَةَ بِالرَّسْمِيَّةِ ، لِلْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ .

السلسلة الثالثة

المظان الرسمية وغيرها

أَمَّا الرَّسْمِيَّةُ . فَنَعْنِي بِهَا كُتُبَ الْأَدَبِ الْمُجْمَعَ عَلَيْهَا ، وَهِيَ الْبَيَانُ وَالتَّبْيِينُ ، وَالْعِقْدُ الْفَرِيدُ ، وَالْكَامِلُ ، وَالْأَمَالِيُّ ، وَأَمَّا الشَّبِيهَةُ بِالرَّسْمِيَّةِ ، فَأَمْثَالُ

(١) أكبّ على الشيء إكبابا : لزمه وأقبل عليه .

ابْنِ مَنْظُومٍ ، وَابْنِ مَنْظُورٍ ، وَابْنِ قُتَيْبَةَ ، وَابْنِ بَسَّامٍ ، وَابْنِ ظُفَرَ ، وَأَبِي حَيَّانَ ، وَالزَّمَخْشَرِيِّ ، وَالْجَاحِظِ فِي حَيَوَانِهِ ، وَمَا إِلَيْهَا ، ثُمَّ التَّوَغُّلِ بِكَ فِي السِّلْسِلَةِ الرَّابِعَةِ ، فَنُحَاوِلُ بِكَ طَبْعَ كُتُبِ الطَّبَقَاتِ وَالتَّرَاجِمِ ، أَمْثَالِ مُعْجَمِ الْأُدَبَاءِ لِيَاقُوتٍ ، وَتَارِيخِ الْإِسْلَامِ لِلذَّهَبِيِّ ، وَوَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ لِابْنِ خِلِّكَانَ ، وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ ، وَجَرَى مَجْرَاهُمْ ، لِأَنَّا نَرَى فِي إِحْيَاءِ هَذِهِ الْكُتُبِ ، وَبَعْثِهَا إِلَى النُّشُورِ وَالظُّهُورِ ، اللَّبِنَةَ[1] الْأُولَى فِي بِنَاءِ صَرْحِ الْمَوْسُوعَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا النَّاطِقُونَ بِالضَّادِ ، وَالتَّمْهِيدَ الَّذِي لَا مَحِيصَ[2] عَنْهُ ، إِذَا مَا رَغِبْنَا رَغْبَةً

السلسلة الرابعة

(١) اللبنة : واحدة اللبن وهو المضروب من الطين مربعاً للبناء ، والمراد أن ذلك أساس لتأليف الموسوعة (٢) لا محيص : أى لا مفرّ

عَمَلِيَّةً حَقَّةً فِي الِاتِّجَاهِ الْعِلْمِيِّ وَالْعَمَلِيِّ مَعاً ، فِي وَضْعِ دَائِرَةِ مَعَارِفَ عَرَبِيَّةٍ شَرْقِيَّةٍ ، مُسْتَنِدَةٍ عَلَى أُصُولٍ تَارِيخِيَّةٍ صَحِيحَةٍ ، وَقَائِمَةٍ عَلَى أُسُسٍ عَمَلِيَّةٍ حَقَّةٍ ، ثُمَّ نَتَقَدَّمُ أَخِيراً بِمَنِّهِ وَحَوْلِهِ إِذَا كَانَ فِي الْعُمُرِ بَقِيَّةٌ ، وَمِنَ الْقُرَّاءِ إِقْبَالٌ وَتَشْجِيعٌ ، وَمِنَ النَّاشِرِينَ إِخْلَاصٌ وَحُسْنُ نِيَّةٍ ، وَتَفَهُّمٌ وَاسْتِسَاغَةٌ ، وَمِنْ وُلَاةِ الْأُمُورِ تَأْيِيدٌ لِمَا يُفِيدُ وَيَنْفَعُ ، وَأَخْذٌ بِسُنَّةِ إِحْيَاءِ اللُّغَةِ مِنْ كَبْوَتِهَا[١] ، وَإِنْهَاضِ الْآدَابِ مِنْ عَثْرَتِهَا ، وَبَعْثِ الْهِمَمِ مِنْ غَفْوَتِهَا[٢] ، وَاسْتِحْثَاثِ[٣] الْعَزَمَاتِ مِنْ غَفْلَتِهَا ، نَتَقَدَّمُ بِمَنِّهِ

(١) الكبوة : السقوط على الوجه ، والمراد الاتجاه الى إصلاح ما فسد من اللغة وتمهيد طرقها ونشر معالمها وتيسير تناولها (٢) الغفوة : النوم الخفيف ، والمراد انتباهها ونشاطها (٣) الاستحثاث : الاستنهاض

وَفَضْلِهِ فِي الْمُضِيِّ قُدُماً[١] فِي مُطَالَعَتِكَ السِّلْسِلَةَ الْخَامِسَةَ الَّتِي بَدَأْنَا لَكَ بِشَيْءٍ مِنْ بَاكُورَتِهَا[٢] حِينَ وَضَعْنَا لَكَ كِتَابَيْنَا عَصْرَ الْمَأْمُونِ وَالشَّخْصِيَّاتِ الْبَارِزَةَ، وَهَكَذَا نَجْرِي بِكَ فِي قِصَّةِ كُتُبِنَا، مُغْرِينَ بِكَ مِنْ فَنٍّ إِلَى فَنٍّ، مُتَنَقِّلِينَ بِكَ مِنْ حَدِيثٍ إِلَى حَدِيثٍ، وَمِنْ مَادَّةٍ إِلَى مَادَّةٍ، وَلَعَلَّ هَذَا النَّمَطَ مِنَ الْكِتَابَةِ الْأَوَّلِيَّةِ فِي أَدَبِنَا الْعَرَبِيِّ، أَنْشَطُ لِلْمُطَالَعَةِ، وَأَقْوَى عَلَى الظَّفَرِ بِالْفَائِدَةِ، وَأَقْدَرُ عَلَى انْتِجَاعِ[٣] الْعِلْمِ، وَأَقْوَمُ سَبِيلٍ فِي انْتِهَالِ الْأَدَبِ، وَأَسْلَطُ[٤] عَلَى الْانْتِقَادِ وَالْانْتِقَاءِ، وَأَوْصَلُ إِلَى حُسْنِ

(١) القُدُم: المضي أمامُ أمامُ يقال مضى قدُماً أي لم يعرج ولم ينثن
(٢) الباكورة: أول كل شيء. (٣) انتجاع العلم: طلبه في مواضعه ومظانه وأصله طلب المرعى (٤) أسلط: أغلبُ، وأقدر

الْارْتِيَادِ[١] وَالْارْتِيَاءِ، وَلَقَدْ صَدَقَ الشَّاعِرُ الَّذِي يَقُولُ.

لَا يُصْلِحُ النَّفْسَ إِذْ كَانَتْ مُدَبِّرَةً
إِلَّا التَّنَقُّلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالِ

فَمَا بَالُكَ - هَدَاكَ اللهُ وَأَرْشَدَكَ، وَوَفَّقَكَ وَبَصَّرَكَ[٢] - بِمَنْ كَانَ فِي مِثْلِ حَالِنَا وَأَيَّامِنَا الَّتِي تَتَجَرَّعُ فِيهَا كُؤُوسَ الصَّابِ وَالْعَلْقَمِ، وَنُسَاوِرُ[٣] عَلَى الْأَرَقِ الْمُمِضِّ مِنْهَا سُمَّ الْأَرْقَمِ، وَالَّتِي تَقْتَطِعُنَا فِيهَا مَشَاغِلُ الْحَيَاةِ الْمَادِّيَّةِ بِمَطَالِبِهَا الْآلِيَّةِ الْمُلِحَّةِ فَلَا يَتَأَلَّقُ فِيهَا بَرْقُ فِكْرٍ وَلَا يَتَرَقْرَقُ[٤] مِنْهَا

(١) الارتياد : الطلب والتفقد ، والارتياء : الاختيار بعد تأمل
(٢) بصره الأمر : عرّفه إياه (٣) نساور : أي نواثب ، والأرق : السهر وعدم النوم والممض : الموجع المؤلم ، والأرقم : أخبث الحيات وأطلبها للناس . وقيل : ما فيه سواد وبياض (٤) ترقرق الشيء : جرى جرياً سهلاً ، وتلألأ

وَدْقُ[١] ذُكْرٍ[٢]، وَشَدَّ مَا هِيَ بِحَاجَةٍ إِلَى التَّرْفِيهِ وَالتَّسْلِيَةِ، وَإِلَى التَّثْقِيفِ وَالتَّرْعِيَةِ[٣]، وَإِلَى النَّمَاءِ وَالتَّغْذِيَةِ، وَإِلَى النُّقْلَةِ[٤] مِنْ فُكاهَةٍ إِلَى جِدٍّ، وَمِنْ غَوْرٍ إِلَى نَجْدٍ.

طَوْراً يَمَانٍ إِذَا لَاقَيْتُ ذَا يَمَنٍ
وَإِنْ لَقِيتُ مَعَدِّيًّا فَعَدْنَانِي

رواية محمد بن يوسف

وَلَعَلَّكَ قَدْ فَرَأْتَ — وَالْحَدِيثُ ذُو شُجُونٍ — مَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ قَالَ: حَضَرْتُ مَجْلِسَ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ طَاهِرٍ، وَقَدْ حَضَرَهُ الْبُحْتُرِيُّ فَقَالَ: يَا أَبَا عُبَادَةَ، أَمُسْلِمٌ[٥] أَشْعَرُ أَمْ

(١) الودق: المطر (٢) الذكر: التذكر. تقول هو على ذكر منى أى فى ذاكرتى (٣) الترعية: إجادة الرعاية. ورجل ترعية: يجيد رعاية الابل (٤) النقلة: بالضم، اسم بمعنى الانتقال (٥) مسلم: هو مسلم بن الوليد المعروف بصريع الغوانى

أَبُو نُوَاسٍ . فَقَالَ : بَلْ أَبُو نُوَاسٍ ، لِأَنَّهُ يَتَصَرَّفُ فِي كُلِّ فَنٍّ ، وَيَتَنَوَّعُ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ ، إِنْ شَاءَ جَدَّ ، وَإِنْ شَاءَ هَزَلَ ، وَمُسْلِمٌ يَلْزَمُ طَرِيقًا وَاحِدًا لَا يَتَعَدَّاهُ ، وَيَتَحَقَّقُ بِمَذْهَبٍ لَا يَتَخَطَّاهُ ، فَقَالَ لَهُ عُبَيْدُ اللهِ : إِنَّ أَحْمَدَ بْنَ يَحْيَى الْمَعْرُوفَ بِثَعْلَبٍ لَا يُوَافِقُكَ عَلَى هَذَا ، فَقَالَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ : لَيْسَ هَذَا مِنْ عِلْمِ ثَعْلَبٍ وَأَضْرَابِهِ مِمَّنْ يَحْفَظُ الشِّعْرَ وَلَا يَقُولُهُ ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ الشِّعْرَ مَنْ دُفِعَ إِلَى مَضَايِقِهِ[1] ، فَقَالَ : وَرَتْ بِكَ[2] زِنَادِي يَا أَبَا عُبَادَةَ ، وَإِنَّ حُكْمَكَ فِي عَمَّيْكَ أَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمٍ ، وَافَقَ

(١) المضيق : ما ضاق من الأماكن ، والمراد : أن العارف بالشعر هو المدفوع الى مواطنه الصعبة السلوك (٢) ورى الزند : خرجت ناره ، أى لا زلت نصيرى وباب نجحى

حُكْمَ أَبِي نُوَاسٍ فِي عَمَّيْهِ جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ ، فَإِنَّهُ سُئِلَ عَنْهُمَا ، فَفَضَّلَ جَرِيراً ، فَقِيلَ لَهُ : إِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ لَا يُوَافِقُكَ عَلَى هَذَا . فَقَالَ : لَيْسَ هَذَا مِنْ عِلْمِ أَبِي عُبَيْدَةَ ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُهُ مَنْ دُفِعَ إِلَى مَضَايِقِ الشِّعْرِ . وَلَعَلَّكَ قَدْ قَرَأْتَ أَيْضًا — وَالْحَدِيثُ ذُو شُجُونٍ — مَا رَوَاهُ الْجَاحِظُ قَالَ : طَلَبْتُ عِلْمَ الشِّعْرِ عِنْدَ الْأَصْمَعِيِّ فَوَجَدْتُهُ لَا يَعْرِفُ إِلَّا غَرِيبَهُ ، فَرَجَعْتُ إِلَى الْأَخْفَشِ فَوَجَدْتُهُ لَا يُتْقِنُ إِلَّا إِعْرَابَهُ ، فَعَطَفْتُ عَلَى أَبِي عُبَيْدَةَ ، فَرَأَيْتُهُ لَا يَنْقُلُ إِلَّا فِيمَا اتَّصَلَ بِالْأَخْبَارِ ، وَتَعَلَّقَ بِالْأَنْسَابِ وَالْأَيَّامِ ، فَلَمْ أَظْفَرْ بِمَا أَرَدْتُ ، إِلَّا عِنْدَ

أُدَبَاءِ الْكُتَّابِ ، كَالْحَسَنِ بْنِ وَهْبٍ ، وَمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَلَعَلَّكَ بَعْدَ ذِكْرِكَ لِهَذَا الَّذِي قَرَأْتَهُ ، وَاسْتَسَغْتَهُ[1] مِنْ مَقَالَاتِ ابْنِ يُوسُفَ ، وَعَمْرِو ابْنِ بَحْرٍ الْجَاحِظِ ، لَا تَعْتَرِضُ عَلَى مَسْلَكِنَا مَعَكَ فِي كِتَابِنَا هَذَا ، مِنِ انْتِقَالِنَا بِكَ مِنْ حَدِيثِنَا عَنْ شَيْخِنَا حَمْزَةَ فَتْحِ اللهِ مُمَثِّلِ الْمُحَافِظِينَ وَالْقُدَمَاءِ ، إِلَى نَاظُورَةِ تَلَامِيذِهِ الَّذِينَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ، إِلَى حَدِيثِنَا عَنْ نَدْوَةِ[2] ثَرْوَتْ بَاشَا ، إِلَى تَحَدُّثِنَا عَنْ أَدَبِ الْفِرِنْجَةِ إِلَى كَلَامِنَا عَنْ أَدَبِ التَّرَاجِمِ ، فَأَدَبِ الْعَصْرِ ، فَأَدَبِ الْقِصَّةِ ، وَهَكَذَا دَوَالَيْكَ مِنَ الْقَاهِرَةِ إِلَى بَغْدَادَ ، إِلَى لُنْدُنَ إِلَى بَارِيسَ ... إِلَى الْعَالَمِ قَاطِبَةً :

رجاء المؤلف

(١) استساغ الشيء : ساغه ، والسائغ السهل المدخل من الطعام والشراب (٢) الندوة : النادى « مجلس الاجتماع والمسامرة »

التماس المؤلف

ثُمَّ لَعَلَّكَ : بَعْدَ ذُكْرِكَ لِهَذَا الَّذِي قَرَأْتَهُ وَاسْتَسَغْتَهُ مِنْ هَذَا وَذَاكَ ، تَسْأَلُ اللهَ لَنَا التَّوْفِيقَ فِيمَا انْتَوَيْنَاهُ لَكَ مِنَ الْإِكْبَابِ عَلَى إِفَادَتِكَ ، وَاقْتِطَاعِ سَاعٍ[1] رَاحَتِنَا لِمَا فِيهِ صَلَاحُكَ ، وَاحْتِمَالِ الْأَذَى وَالْمَكْرُوهِ لِخَيْرِكَ وَنَفْعِكَ ، وَتَشْذِيبِكَ ، وَتَهْذِيبِكَ ، وَتَجْدِيدِ مَا انْدَرَسَ مِنْ مَعَالِمِ لُغَتِكَ ، وَإِحْيَاءِ مَا عَفَتْ آثَارُهُ مِنْ تَوَالِيفِ سَلَفِكَ ، فِي مَنْحًى يَتَّفِقُ وَذَوْقَ الْعَصْرِ ، وَمِنْهَاجٍ يَتَمَشَّى وَعَقْلِيَّةَ الْجِيلِ ، وَأَخْذٍ بِأُسْلُوبِ الْقِصَّةِ انْتِفَاءً لِمَلَالِكَ وَضَجَرِكَ ، وَارْتِيَادًا لِمَسَرَّتِكَ وَرَوْحِكَ[2] ، وَابْتِغَاءً لِمَرْضَاتِكَ وَدَعَتِكَ ، وَاسْتِحْثَاثًا لِعَزْمَتِكَ وَقَابِلِيَّتِكَ ، وَاللهُ

(١) ساع : جمع ساعة . (٢) الروح : الراحة .

كَالِئُكَ وَحَارِسُكَ وَمُوَفِّقُكَ وَمُرْشِدُكَ وَمُسَدِّدُكَ وَنَاصِرُكَ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

وَإِنِّي لَمُعْتَرِفٌ بِقِصَرِ بَاعِي ، وَقُصُورِ ذِرَاعِي فِيمَا أَرُومُهُ ، قَدَّمْتُهُ لَكَ — خَالِصًا مُخْلِصًا — مِنْ إِصْلَاحٍ وَتَشْذِيبٍ ، وَثَقَافَةٍ وَتَهْذِيبٍ ، وَلَا أُنْكِرُ عَلَيْكَ أَنِّي مُعْتَرِفٌ بِقَوْلِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ : « لَا يَزَالُ الرَّجُلُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ عَقْلِهِ مَا لَمْ يَقُلْ شِعْرًا أَوْ يُصَنِّفْ كِتَابًا » ، وَقَدْ كَتَبَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ وَقَدْ وَقَفَ عَلَى سَهْوٍ فِي كِتَابٍ وَرَدَ مِنْهُ : اتَّخِذْ كَاتِبًا مُنْصِفًا لِكُتُبِكَ فَإِنَّ الْمُؤَلِّفَ تَنَازَعُهُ أُمُورٌ ، وَتَعْتَوِرُهُ[1] خُرُوقٌ ، تَشْغَلُ قَلْبَهُ وَتَشْعَبُ[2] فِكْرَهُ ، مِنْ كَلَامٍ

(١) تعتوره : تتداوله ، وترد عليه (٢) تشعب : من باب قطع : تفرق

يَنْسُقُهُ[١] وَتَأْلِيفٍ يَنْظِمُهُ[٢]، وَمَعْنًى يَتَعَلَّقُ بِهِ يَشْرَحُهُ، وَحُجَّةٍ يُوَضِّحُهَا. وَالْمُتَصَفِّحُ لِلْكِتَابِ أَبْصَرُ بِمَوَاضِعِ الْخَلَلِ مِنْ مُبْتَدِئٍ تَأْلِيفِهِ. وَأَنَا فَقَدِ اعْتَرَفْتُ بِقُصُورِي فِيمَا اعْتَمَدْتُ عَنِ الْغَايَةِ، وَتَقْصِيرِي عَنْ الِانْتِهَاءِ إِلَى النِّهَايَةِ، فَأَسْأَلُ النَّاظِرَ فِيهِ أَلَّا يَعْتَمِدَ الْعَنَتَ[٣] وَلَا يَقْصِدَ قَصْدَ مَنْ إِذَا رَأَى حَسَنًا سَتَرَهُ، وَعَيْبًا أَظْهَرَهُ، وَلْيَتَأَمَّلْهُ بِعَيْنِ الْإِنْصَافِ، لَا الِانْحِرَافِ، فَمَنْ طَلَبَ عَيْبًا وَجَدَّ وَجَدَ، وَمَنِ افْتَقَدَ[٤] زَلَلَ أَخِيهِ بِعَيْنِ الرِّضَا فَقَدْ فَقَدَ، فَرَحِمَ اللهُ امْرَأً قَهَرَ هَوَاهُ، وَأَطَاعَ الْإِنْصَافَ وَنَوَاهُ،

---

(١) ينسقه : من باب نصر : يعطف بعضه على بعض (٢) ينظمه : من باب ضرب : يجمعه ويؤلفه (٣) العنت : محركة : المشقة
(٤) افتقد الشيء : طلبه عند غيبته ، وفقد الشيء : غاب عنه وعدمه

وَعذَرَنَا فِي خَطَإٍ إِنْ كَانَ مِنَّا ، وَزَلَلٍ إِنْ صَدَرَ عَنَّا ، فَالْكَمَالُ مُحَالٌ لِغَيْرِ ذِي الْجَلَالِ ، فَالْمَرْءُ غَيْرُ مَعْصُومٍ ، وَالنِّسْيَانُ فِي الْإِنْسَانِ غَيْرُ مَعْدُومٍ ، وَإِنْ عَجَزَ عَنْ الِاعْتِذَارِ عَنَّا وَالتَّصْوِيبِ ، فَقَدْ عَلِمَ أَنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ ، فَإِنَّا وَإِنْ أَخْطَأْنَا فِي مَوَاضِعَ يَسِيرَةٍ ، فَقَدْ أَصَبْنَا فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، فَمَا عَلِمْنَا فِيمَنْ تَقَدَّمَنَا وَأَمَّنَا مِنَ الْأَئِمَّةِ الْقُدَمَاءِ ، إِلَّا وَقَدْ نُظِمَ فِي سِلْكِ أَهْلِ الزَّلَلِ ، وَأُخِذَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْخَطَلِ ، وَهُمْ هُمْ[1] ، فَكَيْفَ بِنَا مَعَ قُصُورِنَا وَاقْتِصَارِنَا ، وَصَرْفِ جُلِّ زَمَانِنَا فِي نَهْمَةِ[2] الدُّنْيَا وَطَلَبِ

(١) هُمْ هُمْ : أى المعروفون بكثرة علمهم وسعة إطلاعهم

(٢) نهمة الدنيا : حاجتها ، والشهوة فيها

الْمَعَاشِ ، وَنُمُوِّ الرِّيَاشِ ، الَّذِى مُرَادُنَا مِنْهُ صِيَانَةُ الْعِرْضِ ، وَبَقَاءُ مَاءِ الْوَجْهِ لَدَى الْعَرْضِ » .

وَإِنِّى لَاسْتَلْهِمُ الْوَاحِدَ الْأَحَدَ ، الْحَىَّ الصَّمَدَ ، سَدَادَهُ الْمُفَرِّقَ بَيْنَ حُلْكَةِ الشَّكِّ الْمُرْدِى ، وَالضَّلَالِ الْمُودِى[1] ، وَوَهَجِ الْيَقِينِ الْهَادِى ، وَنُورِ الْحَقِّ الْحَادِى ، بِمَا يَمْحُو ظُلْمَةَ الضَّلَالِ ، وَيُسْطِعُ الرَّاجِحَ مِنَ الْمَقَالِ ، وَيُسَهِّلُ صَعْبَ الْمَنَالِ ، بِمُوَافَاتِنَا بِحُسْنِ الْخِصَالِ ، وَسَنِىِّ الْفِعَالِ ، وَمَحَامِدِ الرِّجَالِ ، بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ ، وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ أَوَّلاً وَآخِراً .

عبد القادر الجرجانى وغيره

وَلْنَبْدَأْ بِكَ الْآنَ فِى مُعَاوَدَةِ الْكَلَامِ فِى مَقْرُوءَاتِ الشَّيْخِ — طَيَّبَ اللّٰهُ ثَرَاهُ — فِيمَا كَتَبَهُ . عَبْدُ الْقَادِرِ الْجُرْجَانِىُّ رَحِمَهُ اللّٰهُ ، وَنَوَدُّ أَنْ نَقُولَ

(١) المهلك .

لَكَ : إِنَّ عَبْدَ الْقَادِرِ يُمَثِّلُ دَوْرَ انْتِقَالٍ جَدِّيٍّ فِي حَيَاةِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَكَانَ الزَّعِيمُ الْمُصْلِحُ « مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ » بِهِ جِدَّ مُعْجَبٍ ، وَلِآثَارِهِ جِدَّ مُقَدِّرٍ ، وَلِرَجَاحَةِ عَقْلِهِ ، وَسَعَةِ عَطَنِهِ(١) ، وَحُرِّيَّةِ تَفْكِيرِهِ جِدَّ شَادٍ(٢) .

أَمَا وَقَدِ انْتَهَيْنَا مِنْ حَدِيثِ مَقْرُوءَاتِنَا عَنْ أُسْتَاذِي « الشَّيْخِ حَمْزَةَ فَتْحِ اللهِ » فَقَدْ آنَ لَنَا أَنْ نُحَدِّثَكَ عَنْ تَلَامِيذِهِ حَدِيثاً أَرْوِيهِ تَفْكِهَةً وَعِبْرَةً :

ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَقْطُنُ مَنْزِلَ وَالِدِي ، — الْقَدِيمَ الْقَرِيبَ مِنْ حَيِّ عَابِدِينَ — أُسْتَاذِي الْجَلِيلُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْعَزِيزِ خَلِيلٌ — مَدَّ اللهُ فِي حَيَاتِهِ —

(١) يقال رجل رحب العطن : أى كثير المال ، واسع الرحل ، رحب الذراع . والمراد وفرة علمه . وكثرة تواليفه . (٢) جد شاد : أى متناه فى الاذاعة لآثاره وعلمه .

وَكَانَ – فِيمَا أَذْكُرُ – وَقْتَهَا مُدَرِّساً بِمَدْرَسَةِ الْمُعَلِّمِينَ الْعُلْيَا ، وَكَانَتْ رُفْقَتُهُ الْأَعْلَامُ ، الَّذِينَ يَحْضُرُونَ لِدَوْرَةِ الامْتِحَانَاتِ ، مِنْ مُخْتَلَفِ جِهَاتِ الْقُطْرِ ، يَتَّخِذُونَ مَسْكَنَهُ مَزَاراً ، لِأَدَبِهِ وَلُطْفِهِ ، وَكَرَمِهِ وَجُودِهِ ؛ وَكَانَ مِنْ سَجِيَّةِ وَالِدِي وَطَبْعِهِ ، – رَحِمَهُ اللهُ – حُبُّ الْعُظَمَاءِ وَالْكُبَرَاءِ ، وَإِجْلَالُ الْعُلَمَاءِ وَالْأُدَبَاءِ ؛ فَكَانَ يَلْتَمِسُ مِنَ الْأُسْتَاذِ أَنْ يَدْعُوَ زُمَلَاءَهُ إِلَى مَائِدَتِهِ ، زِيَادَةً فِي الْإِكْرَامِ وَالْحَفَاوَةِ ، لِأَنَّهُمْ فِي دَارِ غُرْبَةٍ وَخِدْمَةِ عِلْمٍ ؛ وَكُنْتُ أَحْضُرُ الْفَيْنَةَ[1] بَعْدَ الْفَيْنَةِ اجْتِمَاعَاتِهِمْ ، وَإِنِّي لَأَذْكُرُ مِنْ بَيْنِهِمْ حَضَرَاتِ الْأَسَاتِذَةِ ، شَيْخِي

(١) الفينة : المدة من الوقت

عَبْدِ الْخَالِقِ عُمَرَ ، وَمُنْتَصِرٍ ، وَالْمَرْحُومَيْنِ الإِبْيَارِى وَعَابِدِينَ ، وَغَيْرِهِمْ . فَبَذَرُوا فِى نَفْسِى هُمُ الآخَرُونَ ، مُنْذُ الصِّغَرِ : الْجُنُوحَ[1] إِلَى مَجَامِعِ الْعُظَمَاءِ ، وَاتِّصَالَ بِمَجَالِسِ الْكُبَرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ ، وَغَشْىَ[2] مُنْتَدَيَاتِ الْكُتَّابِ وَالشُّعَرَاءِ ، وَتَوْطِيدَ عِلاَقَتِى بِأَمْثَالِ « طٰهٰ حُسَيْنٍ » مِنَ الْأُدَبَاءِ وَالنُّبَغَاءِ ؛ وَلَقَدْ كَوَّنُوا فِى مُخَيِّلَتِى ، وَمَا زِلْتُ لَدْنَ[3] الْعُودِ ، طَرِىَّ الْإِهَابِ : أَنَّ الْعَظِيمَ هُوَ الْعَالِمُ الْمُتَبَصِّرُ ، وَمَا قِيمَةُ الثَّرَاءِ لِلْأَغْبِيَاءِ ؛ وَكَمْ مِنْ لَهٍ[4] فَهٍ ذِى هَيْلٍ وَهَيْلَمَانٍ[5] ، يَعِيشُ كَالنَّعَامِ ، وَيَمُوتُ بِلاَ مَقَامٍ .

(١) الجنوح : الميل والالتجاء (٢) غشى : دخول (٣) لدن : اللين الطرى (٤) له فهّ : لاعب عبي (٥) هيل وهيلمان : مال كثير .

فَمَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ وَلَمْ يَكُ ذَا غِنًى
يَكُونُ كَذِى رِجْلٍ ، وَلَيْسَ لَهُ نَعْلُ
وَمَنْ كَانَ ذَا مَالٍ، وَلَمْ يَكُ ذَا حِجًى[1]
يَكُونُ كَذِى نَعْلٍ ، وَلَيْسَ لَهُ رِجْلُ

الشيخ عبد العزيز جاويش

وَكَانَتْ مَجَامِعُهُمْ الزَّهْرَاءُ : مَدْعَاةً ، هِيَ الْأُخْرَى ، لِحُبِّ الْعَرَبِيَّةِ ؛ حَتَّى إِذَا مَا اخْتِيرَ الْمَرْحُومُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْعَزِيزِ جَاوِيشُ : مُحَرِّرًا لِصُحُفِ الْحِزْبِ الْوَطَنِيِّ ، عَلَى أَثَرِ وَفَاةِ الْمَرْحُومِ مُصْطَفَى كَامِلٍ بَاشَا ؛ وَكَانَ لِنَادِى الْمَدَارِسِ الْعُلْيَا : صَوْلَةٌ وَحَيَاةٌ ، رَأَيْتُ وَقْتَئِذٍ أَنْ أَقْتَرِحَ إِنْشَاءَ مُنْتَدًى لِلْمَدَارِسِ الثَّانَوِيَّةِ ، وَأَعْدَدْتُ كَلِمَةً لِنَشْرِهَا فِى صَحِيفَتِهِ ، فَرَآهَا أَحَدُ الْأَصْدِقَاءِ ، مِنْ قَاطِنِى مَنْزِلِنَا ، فَأَبْدَى رَغْبَتَهُ فِى

(١) الحجى : العقل

إِصْلاَحِهَا وَتَهْذِيبِهَا ، فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهِ شَاكِراً ، ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَيَّ بَعْدَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، وَقَدْ زَادَهَا مَا شَاءَ ، وَلَمْ أَكُنْ لِأَدْرِيَ مَصْدَرَ الْإِضَافَةِ ، وَلَكِنَّهَا أَعْجَبَتْنِي ، وَظَنَنْتُهُ مُفْتَرِعَ عُذْرَتِهَا ، وَصَاحِبَ لَفَّتِهَا ، فَقَدْ كَانَ يَعْلُونِي سِنًّا وَمَقَاماً ؛ وَنَشَرَ الْكَلِمَةَ الشَّيْخُ جَاوِيشُ ، مَمْهُورَةً بِاسْمِي ؛ ثُمَّ تَبَيَّنَ بَعْضُ أَسَاتِذَتِي ، بِالْحِدْيوِيَّةِ وَقْتَئِذٍ ، أَنَّ جُلَّهَا مُقْتَبَسٌ مِنْ حَدِيثِ عِيسَى بْنِ هِشَامٍ ، فِي كَلِمَتِهِ الرَّائِعَةِ عَنْ فَوَائِدِ الْمُنْتَدَيَاتِ ؛ فَكَانَ ذَلِكَ مَدْعَاةً لِلْخَجَلِ وَالْحَيَاءِ ، وَحَسْرِ السَّاقِ[1] لِلْجِدِّ ، فِي التَّحْصِيلِ وَالْغَنَاءِ ؛ وَلَعَلَّ زُمَلَائِي فِي الدِّرَاسَةِ : يَذْكُرُونَ مَا أَلْهَبَ أَلْهُوبِي[2] ، وَأَوْرَى جَذْوَتِي[3] ،

(١) حسر الساق : كناية عن الجد (٢) ألهب الهوبه : أشعل اجتهاده وأوقد ذكاءه (٣) أورى جذوتى : أوقدها .

وَمَا كَانَ عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ مِنْ مُحَاضَرَاتٍ ، فِي حَدِيقَةِ الْأَسْمَاكِ بِالْجِيزَةِ ، عَنْ حُمَاةِ الْإِسْلَامِ فِي تِلْكُمُ الْأَيَّامِ

* * *

مَسْأَلَةٌ أُخْرَى ذَاتُ أَثَرٍ عَمِيقٍ فِي حَيَاتِي الدِّرَاسِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ ، تِلْكَ هِيَ مُلَازَمَتِي الطَّوِيلَةُ الْأَثَرِ ، لِلْأُسْتَاذِ الرِّوَائِيِّ الْكَبِيرِ « بِرْسِي وَيتْ » إِذْ كُنْتُ ظِلَّهُ الظَّلِيلَ ، طِيلَةَ عَهْدِهِ بِأُسْتَاذِيَّةِ ، الْآدَابِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ بِالْجَامِعَةِ ، كَمَا يَعْلَمُ رِفَاقِي وَقْتَئِذٍ ، وَفَضْلاً عَنْ كَوْنِي أَوَّلَ نَاجِحِي مَادَّتِهِ لِعَهْدِي ، فَإِنِّي كُنْتُ بِمَيْلِي السَّابِقِ إِلَى الْآدَابِ الْغَرْبِيَّةِ ، شَدِيدَ الْإِلْحَاحِ عَلَيْهِ ، فِي تَعَرُّفِ الْمُلَحِ[1] وَالطُّرَفِ ،

(١) المُلح جمع مُلحة : وهى ما حسن من الكلام واستحسن . والطرف جمع طرفة ؛ وهى الغريب المستحسن المعجب .

وَكَانَ — حَفِظَهُ اللهُ — كَثِيراً مَا يُرْشِدُنِي إِلَى أُمَّهَاتِ الْكُتُبِ ، فِي آدَابِ تِلْكَ اللُّغَةِ ، وَكَانَ فَضْلُهُ عَلَيَّ لَا يَقِلُّ عَنْ فَضْلِ أُسْتَاذَيَّ الْخَاصَّيْنِ فِي الْمَنْزِلِ ، « هِيثْ » و « تَرَمْبِتَا » اللَّذَيْنِ كَانَ الْمَرْحُومُ الْوَالِدُ اخْتَارَهُمَا لِزِيَادَةِ تَقْوِيَتِي فِي اللُّغَاتِ ، وَتَمْكِينِي مِنْهَا ، نُزُولاً عَلَى مَشْوَرَةِ أَصْحَابِهِ فِي ذَلِكَ الْحِينِ .

اعتراف بفضل

وَأَخِيراً أَرَى لِزَامًا عَلَيَّ ، وَوَفَاءً فِي عُنُقِي ، أَنْ أَعْتَرِفَ بِفَضْلِ أُسْتَاذِي الْكَبِيرِ الْمُرَبِّي الْعَالِمِ « أَحْمَدَ لُطْفِي السَّيِّدِ بِكْ » إِذْ أَنَّهُ صَاحِبُ الْفَضْلِ الْخَالِدِ ، وَالْأَثَرِ الْبَالِغِ ، حِينَمَا أَذِنَ لِي مُنْذُ مَيْعَةِ[1] الصِّبَا بِالْكِتَابَةِ فِي الْجَرِيدَةِ الْغَرَّاءِ ، وَأَذْكُرُ أَنَّ أَوَّلَ رِسَالَةٍ نَشَرَهَا لِي وَشَجَّعَنِي فِي الْمُضِيِّ فِي

(١) ميعة الصبي : أوله

الْكِتَابَةِ كَانَتِ « الشَّجَاعَةُ الْأَدَبِيَّةُ » لِمُنَاسَبَةِ الضَّجِيجِ الَّذِى حَصَلَ أَثْنَاءَ عَوْدَةِ أُسْتَاذِى مَنْصُورٍ فَهْمِى مِنْ أُورُبَّا لِمُنَاسَبَةِ رِسَالَتِهِ ، فَكَتَبْتُ مَا كَتَبْتُ ، مُتَأَثِّراً بِقِرَاءَاتِى الطَّوِيلَةِ عَنْ « مَارْتِينْ لُوثَرْ » وَأَخِيهِ ، بِقِصَّةِ سُقْرَاطَ فَيْلَسُوفِ الْيُونَانِ ، شَارِبِ السُّمِّ . وَتَحَمُّسِى الرُّوحَانِىِّ بِمَا كَانَ يَمْلِكُ عَلَىَّ سَبِيلَ الْعِظَةِ مِنْ كَلِمَاتِ النَّبِىِّ أَوَّلَ بَعْثِهِ ، وَكَلَامِ أَبِى بَكْرٍ فِى حَرْبِهِ لِلرِّدَّةِ ، وَمَا لِحُمَاةِ الْإِسْلَامِ ، وَقَادَةِ الْفِكْرِ ، وَدُعَاةِ الْمَبَادِىءِ مِنْ ثَبَاتٍ وَذِيَادٍ[1] ، وَاسْتِبْسَالٍ وَجِلَادٍ ، وَصَلَابَةٍ وَجِهَادٍ . وَلَقَدْ كَانَ كَرَمُ أُسْتَاذِى لُطْفِى بِكْ مَعِى ، وَتَسَامُحُهُ فِى تَقَبُّلِ

(١) ذياد : دفاع .

حُرُوفِ الْهِجَاءِ ، الَّتِي كُنْتُ أَكْتُبُهَا مَدْعَاةً لِتَكْوِينِي، وَفُرْصَةً لِتَنْشِئَتِي[1] .

قَدْ مَكَّنَتْ صَدِيقِي الْمَرْحُومَ فَرَحَ أَنْطُونَ ، رَئِيسَ تَحْرِيرِ الْمَحْرُوسَةِ وَقْتَئِذٍ ، أَنْ يَنْشُرَ لِي أَوَّلَ افْتِتَاحِيَّةٍ فِي حَيَاتِي فِي صَحِيفَتِهِ بِعُنْوَانِ

* * *

معلم المدرسة

« مُعَلِّمُ الْمَدْرَسَةِ وَبِسْمَارْكُ » تَرْجَمْتُهَا لَارِيفُورْمْ فِي الْيَوْمِ التَّالِي ، ثُمَّ تَعَرَّفْتُ بِالْأَسَاتِذَةِ فَارِسَ نِمْرٍ ، وَيَعْقُوبَ صَرُّوفٍ ، وَخَلِيلٍ ثَابِتٍ ، وَدَاوُدَ بَرَكَاتٍ ، وَالشَّاعِرَيْنِ شَوْقِي ، وَحَافِظٍ إِبْرَاهِيمَ ، وَغَيْرِهِمْ حِينَذَاكَ :

ثُمَّ أَوْصَلَتْنِي تِلْكَ الرِّعَايَةُ إِلَى الْمُؤَيَّدِ وَغَيْرِهِ ، مِمَّا لَا نَسْتَطْرِدُ فِيهِ هُنَا

(١) تنشئتي : تربيتي . مصدر نشأه : رباه .

*
* *

اعتراف وفخار

وَإِنِّي لَأَعْتَرِفُ فِي لَذَّةٍ وَنَشْوَةٍ[1]، وَفَخَارٍ وَغِبْطَةٍ، وَإِكْبَارٍ وَاعْتِبَارٍ: أَنَّ أَثَرَ أَحَادِيثِ أُسْتَاذِي الْمَرْحُومِ الشَّيْخِ حَمْزَةَ فَتْحِ اللهِ، الْمُؤَثِّرَةِ فِي النَّفْسِ، مِنْ شَيْخٍ طَاعِنٍ، وَعَالِمٍ مُعْتَزِلٍ النَّاسَ؛ وَمَا اكْتَنَفَهَا مِنْ حَادِثِ صَدِيقِنَا الْجَارِ؛ وَاجْتِمَاعِي مَعَ زَائِرِي أُسْتَاذِي الشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ خَلِيلٍ، وَصِلَاتِي بِالْمَرْحُومِ ثَرْوَتْ بَاشَا، وَصَدَاقَتِي مُنْذُ عَهْدِ التِّلْمَذَةِ بِطَهَ حُسَيْنٍ، وَغِشْيَانِي مَجَالِسَ شُيُوخِ الْأَدَبِ، وَرِجَالَاتِ الصَّحَافَةِ، وَتَرْدَادِي عَلَى مُنْتَدَيَاتِ عِتَاقِ[2] النَّقَدَةِ، وَنَاظُورَةِ الْعُلَمَاءِ. كَانَ أَثَرُ ذَلِكَ جَمِيعِهِ: مَصْدَرَ إِكْبَابِي عَلَى

(١) النشوة: السكر أو أوّله (٢) عتاق جمع عتيق: وهو القديم وعتاق النقدة: النجباء منهم.

دَرْسِ الْعَرَبِيَّةِ ، عَلَى أُسْتَاذِى الْمَرْحُومِ الشَّيْخِ حَمْزَةَ ، مَا بَعَثَ فِى نَفْسِى الانْطِلاَقَ بِجُمَاعِ حَوَاسِّى ، فِى الْتِهَامِ كُلِّ مَا يَقَعُ تَحْتَ نَاظِرِى .

* * *

نقد كتاب ابن الرومى

وَلَقَدْ وَفَّقَنِى اللهُ ، وَلَمْ أَعْدُ الْعِشْرِينَ عَاماً لِلتَّصَدِّى لِلْمَرْحُومِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ شَرِيفِ بك ، نَاقِدًا كِتَابَهُ ابنَ الرُّومىِّ فِى صَحِيفَةِ الْأَخْبَارِ ، حِينَمَا كَانَ مُشْرِفًا عَلَيْهَا صَدِيقِى الصَّحَفِىُّ الْعَجُوزُ ، وَقَبْلَهَا فِى كِتَابَةِ افْتِتَاحِيَّاتِ الْمَحْرُوسَةِ ، فِى عَهْدِ فَرَحِ أَنْطُونَ بِإِمْضَاءِ بَاحِثٍ ، وَفِيمَا بَعْدُ فِى الْجَرِيدَةِ زَعِيمَةِ الثَّقَافَاتِ وَقْتَئِذٍ ، بِإِمْضَاءِ مُنْتَسِبٍ بِالْجَامِعَةِ ، ثُمَّ

فِي الْمُؤَيَّدِ حَيْثُ اخْتَارَنِي الْمَرْحُومُ ثَرْوَتْ بَاشَا عَلَى إِثْرِ سَفَرِ الْمَرْحُومِ سَيِّدٍ كَامِلٍ بك .

* * *

بدء الصلة بثروت باشا

وَمِنْ ثَمَّتَ كَانَتِ الصِّلَةُ بَيْنِي وَبَيْنَ دَوْلَتِهِ، فَاخْتَارَنِي فِيمَا بَعْدُ نَامُوسًا لَهُ، وَكَاتِبًا لِسِرِّهِ، فِيمَا كَتَبْتُهُ مِنَ افْتِتَاحِيَّاتٍ؛ هُوَ بِجَرِيدَتَيْ مِصْرَ وَكَوْكَبِ الشَّرْقِ، وَغَيْرِهِمَا مِنْ مِئَاتِ الرَّسَائِلِ وَالْمَبَاحِثِ فِي مُخْتَلِفِ الشُّؤُونِ، وَمَا دُمْتُ فِي صَدَدِ ذِكْرِ الْمَرْحُومِ الْمَبْرُورِ ثَرْوَتْ[1] بَاشَا، لَا أَرَى مَزَاحِلَ[2] وَمَنَادِحَ دُونَ إِثْبَاتِ فَضْلِهِ عَلَيَّ، وَبِرِّهِ بِي، وَحُسْنِ تَرْعِيَتِهِ لِشَخْصِي الضَّئِيلِ، فَهُوَ صَاحِبُ الْإِحْسَانِ الْأَوَّلِ، فِي تَكْلِيفِي بِكِتَابَةِ

(١) افتتاحية الأهرام ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٨

(٢) المزاحل والمنادح : الأماكن البعيدة يرتحل اليها

افْتِتَاحِيَّاتِ مِصْرَ أَكْثَرَ مِنْ عَامٍ ، بِإِمْضَاءِ « هو » عِنْدَ مَطْلَعِ النَّهْضَةِ الْاسْتِقْلَالِيَّةِ ، وَنَشْأَةِ الْوَفْدِ الْمِصْرِيِّ ، ثُمَّ هُوَ هُوَ الَّذِي ذَادَ عَنِّي الْأَذَى ، عَلَى إِثْرِ مَقَالِي « رِفَاقِي الْمُسْتَعْبَدِينَ » ، الَّتِي عُطِّلَتْ بِسَبَبِهَا الْجَرِيدَةُ وَقْتَئِذٍ .

* * *

عصر المأمون

ثُمَّ هُوَ هُوَ ، الْحَافِزُ الْقَوِيُّ إِلَى تَأْلِيفِ كِتَابِي عَصْرِ الْمَأْمُونِ . وَلِذَلِكَ قِصَّةٌ طَرِيفَةٌ أُحَدِّثُكَ بِهَا ، تَذْكِرَةً وَعِبْرَةً ، فَلَعَلَّكَ وَاقِعٌ فِي مِثْلِ مُلَابَسَاتِهَا وَدَقَائِقِهَا ، وَأَسْرَارِهَا وَظُرُوفِهَا . ذَلِكَ أَنَّنِي مِنْ أُولَئِكَ النَّفَرِ الرَّاسِخِ الْعَقِيدَةِ ، بِأَنَّ الشَّهَادَاتِ الدِّرَاسِيَّةَ ، لَا تَدُلُّ عَلَى حَقِيقَةِ كِفَايَةٍ ، وَلَا تَنْطِقُ

بِنَبَاهَةِ نُبُوغٍ ، وَلَا تَقْطَعُ[١] بِجَدَارَةِ أَهْلِيَّةٍ ، وَانْفِرَادِ مَزِيَّةٍ ، وَلَا تَشْهَدُ بِإِصَابَةِ ثَقَافَةٍ ، وَلَا أَصَالَةِ حَصَافَةٍ[٢] ، فَكُنْتُ بِسَجِيَّتِي لَا أُحْفِلُ بِهَا ، وَلَا آبَهُ لِأَمْرِهَا ، مَعَ أَنَّنِي كُنْتُ قَدِ انْتَهَيْتُ مُنْذُ سَنَوَاتٍ عَدِيدَةٍ ، مِنْ جَوَازِ[٣] شَتَّى فُرُوعِ دِرَاسَاتِ الْجَامِعَةِ ، بَلْ كُنْتُ الْأَوَّلَ فِي فُرُوعٍ عَدِيدَةٍ ، مِنْهَا الْعِبْرِيَّةُ وَالْإِنْجِلِيزِيَّةُ وَغَيْرُهُمَا ، وَكُنْتُ قَدْ قَطَعْتُ سَنَوَاتٍ طِوَالاً فِي قِرَاءَةِ جَمِيعِ الْمَظَانِّ[٤] الْأَدَبِيَّةِ ، عَنْ ذَلِكَ الْعَصْرِ الذَّهَبِيِّ لِلثَّقَافَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، حَتَّى نَيَّفْتُ[٥] عَلَى السِّتِّمِائَةِ مَرْجِعٍ ، فَسَأَلَنِي رَحِمَهُ اللهُ عَنْ

(١) لا تقطع : لا تجزم ، والجدارة : الاستحقاق (٢) الحصافة : رجاحة العقل . (٣) جواز : أى أجتياز وعبور . (٤) المظان : المراجع والمصادر . (٥) نيّفت : زادت .

سِرِّ إِحْجَامِي[1] عَنِ الْكِتَابَةِ، وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ اسْتِيعَابِي لِهَذِهِ الْمُطَوَّلَاتِ الْعَدِيدَةِ، فَقُلْتُ لَهُ أَيْنَ الثَّرَى[2] مِنَ الثُّرَيَّا، وَأَيْنَ الْغُرَرُ مِنَ الدُّرَرِ، بَلْ أَيْنَ مَادَّتِي مِنْ مَادَّةِ شُيُوخِ الْأَدَبِ مِنْ رُوَاةِ الْعَرَبِ، بَلْهَ جَهَابِذَتِهِمْ وَمُؤَلِّفِيهِمْ.

* * *

حديث حمام الراوية

وَحَدَّثْتُهُ بِحَدِيثِ حَمَّادِ بْنِ مَيْسَرَةَ بْنِ الْمُبَارَكِ الْكُوفِيِّ، الْمَعْرُوفِ بِالرَّاوِيَةِ، وَهَاكَ هُوَ «قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ لِحَمَّادٍ الرَّاوِيَةِ، بِمَ اسْتَحْقَقْتَ هَذَا اللَّقَبَ فَقِيلَ لَكَ الرَّاوِيَةُ؟ فَقَالَ: لِأَنِّي أَرْوِي لِكُلِّ شَاعِرٍ تَعْرِفُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،

(١) إحجامي: إعراضي (٢) الثرى: التراب. والثريا: النجم

أَوْ سَمِعْتَ بِهِ ، ثُمَّ أَرْوِى لِأَكْثَرَ مِنْهُمْ مِمَّنْ أَعْرِفُ أَنَّكَ لَا تَعْرِفُهُ ، وَلَمْ تَسْمَعْ بِهِ ، ثُمَّ لَا أُنْشِدُ شِعْراً لِقَدِيمٍ وَلَا مُحْدَثٍ ، إِلَّا مَيَّزْتُ الْقَدِيمَ مِنْهُ مِنَ الْمُحْدَثِ . فَقَالَ : إِنَّ هَذَا لَعِلْمٌ وَأَبِيكَ كَبِيرٌ ، فَكَمْ مِقْدَارُ مَا تَحْفَظُ مِنَ الشِّعْرِ ؟ فَقَالَ كَثِيراً ، وَلَكِنَّنِى أُنْشِدُكَ عَلَى كُلِّ حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ مِائَةَ قَصِيدَةٍ كَبِيرَةٍ ، سِوَى الْمُقَطَّعَاتِ مِنْ شِعْرِ الْجَاهِلِيَّةِ ، سِوَى شِعْرِ الْإِسْلَامِ ، قَالَ سَأَمْتَحِنُكَ فِى هَذَا ، وَأَمَرَهُ بِالْإِنْشَادِ ، فَأَنْشَدَ حَتَّى ضَجِرَ الْوَلِيدُ ، ثُمَّ وَكَّلَ بِهِ مَنْ اسْتَحْلَفَهُ أَنْ يَصْدُقَهُ عَنْهُ ، وَيَسْتَوْفِىَ عَلَيْهِ ، فَأَنْشَدَهُ أَلْفَيْنِ وَتِسْعَمِائَةِ قَصِيدَةٍ

لِلْجَاهِلِيِّينَ، وَأَخْبَرَ الْوَلِيدَ بِذَلِكَ، فَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ».

ثُمَّ أَيْنَ مَادَّتِي مِنْ مَادَّةِ السَّيِّدِ الْمُرْتَضَى، شَارِحِ كِتَابِ الْإِحْيَاءِ فِي عَشْرَةِ مُجَلَّدَاتٍ، مِمَّا قَرَأَ لَنَا مُقْتَطَفَاتٍ مِنْهُ الْمَرْحُومُ الشَّيْخُ الْمَحَلَّاوِيُّ. وَالَّذِي يُحَدِّثُنَا عَنْ مَرَاجِعِ كِتَابِهِ، وَمَظَانِّ مَصَادِرِهِ، بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى تَحَرِّيهِ وَتَقَرِّيهِ[1]، وَبَحْثِهِ وَفَحْصِهِ، بِقَوْلِهِ بَعْدَ كَلَامٍ طَوِيلٍ.

* * *

شيء من المراجع

«وَهَذَا بَيَانُ الْكُتُبِ الَّتِي مِنْهَا أَخَذْتُ، وَعَنْهَا بِلَا وَاسِطَةٍ نَقَلْتُ وَاسْتَنَدْتُ؛ فَمِنْ ذَلِكَ فِي عِلْمِ

(١) تقريه: تتبعه.

اللُّغَةِ شَرْحِي عَلَى الْقَامُوسِ ، الَّذِي أَحَاطَ بِجَيِّدِ اللُّغَةِ وَحُوشِيِّهَا[١] ، الَّذِي إِذَا رَآهُ الْمُنْصِفُ الْبَعِيدُ عَنِ الْمِرَا ، قَالَ : كُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا[٢] ، فَاسْتَغْنَيْتُ بِمُرَاجَعَتِهِ عَنْ جُمْلَةٍ مِنَ الْكُتُبِ الْمُؤَلَّفَةِ فِي الْفَنِّ ، وَأَوْرَدْتُ مِنْهُ كُلَّ مُسْتَحْسَنٍ ، وَلَمْ أُخْلِ مَعَ ذَلِكَ نَظَرِي فِي كِتَابِ النِّهَايَةِ لِابْنِ الْأَثِيرِ ، وَالْفَائِقِ لِلزَّمَخْشَرِيِّ ، وَالْمُفْرَدَاتِ لِأَبِي الْقَاسِمِ الرَّاغِبِ ، وَعُمْدَةِ الْحُفَّاظِ لِلسَّمِينِ الْحَلَبِيِّ ، وَالتَّوْقِيفِ لِلْمَنَاوِيِّ ، وَكِتَابِ الزِّينَةِ لِأَبِي حَاتِمٍ الرَّازِيِّ ، وَمُشْكِلِ الْقُرْآنِ لِابْنِ قُتَيْبَةَ ، فَرُبَّمَا اسْتَفَدْتُ مِنْهَا جُمَلاً كَثِيرَةً ، أَوْرَدْتُهَا

(١) الحوشي : الغامض من الكلام . (٢) كل الصيد فى جوف الفرا : الفرا : الحمار الوحشى ومضرب المثل ان الحمار الوحشى أعظم الصيد . فمن ظفر به أغناه عن كل صيد . وكذا من أصاب خير ما يطلب .

مَعَ مُنَاسَبَاتِهَا فِي مَوَاضِعِهَا ؛ وَمِنْ كُتُبِ أُصُولِ الْفِقْهِ ، التَّوْضِيحُ لِصَدْرِ الشَّرِيعَةِ ، وَشَرْحَاهُ التَّنْقِيحُ لِلسَّيِّدِ الْجُرْجَانِيِّ ، وَالتَّلْوِيحُ لِلسَّعْدِ التَّفْتَازَانِيِّ ، وَالْمِنْهَاجُ لِلْبَيْضَاوِيِّ ، وَشَرْحُهُ لِمُحَمَّدِ بْنِ طَاهِرٍ الْقَزْوِينِيِّ ، وَشِفَاءُ الْغَلِيلِ فِي مَسَالِكِ التَّعْلِيلِ لِلْمُصَنِّفِ ؛ وَمِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ الَّتِي احْتَاجَ الْأَمْرُ إِلَى مُرَاجَعَتِهَا ، شَرْحُ الْبُخَارِيِّ لِلْحَافِظِ بْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ ، الْمُسَمَّى بِفَتْحِ الْبَارِي ، وَهُوَ الْبَحْرُ الَّذِي تَقِفُ عِنْدَهُ الْأَفْهَامُ ، وَتَغْتَرِفُ مِنْ فُيُوضَاتِهِ الْأَعْلَامُ ، مَعَ إِعَادَةِ النَّظَرِ فِي كُلٍّ مِنْ شُرُوحِ الْقَسْطَلَّانِيِّ ، وَابْنِ الْمُلَقِّنِ وَالْكُورَانِيِّ ، وَالزَّرْكَشِيِّ وَالسُّيُوطِيِّ ، وَالسَّنَدِيِّ وَشَرْحِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ لِلْمَنَاوِيِّ ، وَالسُّنَنِ لِكُلٍّ

مِنَ الْبَيْهَقِيِّ وَالدَّارَقُطْنِيِّ ، وَشَرْحِ السُّيُوطِيِّ عَلَى التِّرْمِذِيِّ ، وَمِنَ الْمَسَانِيدِ لِلإِمَامِ أَحْمَدَ ، وَعَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ ، وَمُسَدَّدٍ ، وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ ، وَالدَّيْلَمِيِّ ؛ وَمِنَ الْمَعَاجِمِ ، الْكَبِيرُ وَالأَوْسَطُ لِلطَّبَرَانِيِّ ، وَلِابْنِ جُمَيْعٍ الْغَسَّانِيِّ ؛ وَمِنَ الْكُتُبِ الَّتِي أَعْتَمِدُ عَلَى تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الْكِتَابِ عَلَيْهَا ، الْمُغْنِي عَنْ حَمْلِ الأَسْفَارِ لِلْحَافِظِ الْعِرَاقِيِّ فِي مُجَلَّدٍ ، فَأَذْكُرُ كَلاَمَهُ عَقِيبَ الْحَدِيثِ ، ثُمَّ أَزِيدُ عَلَيْهِ حَسْبَمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيَّ فِي مُطَالَعَتِي لِكُتُبِ الْفَنِّ ، وَرُبَّمَا نَقَلْتُ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مِنْ تَخْرِيجِهِ الْكَبِيرِ عَلَيْهِ ، وَلَمْ أَظْفَرْ مِنْهُ إِلاَّ عَلَى كَرَارِيسَ ، وَمِنْ ذَلِكَ الْجَامِعُ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ ، وَالذَّيْلُ عَلَيْهِ ، الثَّلاَثَةُ لِلسُّيُوطِيِّ ، وَمَوْضُوعَاتُ ابْنُ

الْجَوْزِيِّ، وَاللآلِئُ الْمَصْنُوعَةُ فِي الأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ، اسْتِدْرَاكاً عَلَى ابْنِ الْجَوْزِيِّ لِلسُّيُوطِيِّ مَعَ الذَّيْلِ عَلَيْهِ لَهُ، وَنَوَادِرُ الأُصُولِ لِلْحَكِيمِ أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ التِّرْمِذِيِّ، وَالْعِلَلُ لِلدَّارَقُطْنِيِّ اثْنَا عَشَرَ مُجَلَّداً، وَالْكَامِلُ لِابْنِ عَدِيٍّ نَحْوَ ذَلِكَ، وَالإِصْلاَحُ عَلَى الْمُسْتَدْرَكِ لِلْعِرَاقِيِّ الْحَافِظِ بِخَطِّهِ، وَاقْتِضَاءُ الْعِلْمِ الْعَمَلَ، وَشَرَفُ الأَصْحَابِ، كِلاَهُمَا لِأَبِي بَكْرٍ الْخَطِيبِ الْحَافِظِ، وَتَارِيخُهُ الْكَبِيرُ الْحَافِلُ فِي عَشْرِ مُجَلَّدَاتٍ، وَالذَّيْلُ عَلَيْهِ لِلْبُنْدَارِيِّ فِي مُجَلَّدٍ، وَأَيْضاً لِابْنِ النَّجَّارِ الْحَنْبَلِيِّ فِي مُجَلَّدَاتٍ، وَتَجْرِيدِ الصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ لِرَزِينِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْعَبْدَرِيِّ السَّرَقُسْطِيِّ، وَالْقَوْلُ الْمُسَدَّدُ فِي الذَّبِّ مُسْنَدُ الإِمَامِ أَحْمَدَ، لِلْحَافِظِ بْنِ

حَجَرٍ، وَتَخْرِيجُ أَحَادِيثِ الْأَذْكَارِ لَهُ، وَحِلْيَةُ الْأَوْلِيَاءِ لِلْحَافِظِ أَبِي نَعِيمٍ الْأَصْبَهَانِيِّ، وَتَخْرِيجُ أَحَادِيثِ الْمِنْهَاجِ الْأُصُولِيِّ لِكُلٍّ مِنَ التَّاجِ السُّبْكِيِّ، وَابْنِ الْمُلَقِّنِ، وَالتَّذْكِرَةُ لِلْبَدْرِ الزَّرْكَشِيِّ، وَالْمَقَاصِدُ الْحَسَنَةُ لِلْحَافِظِ السَّخَاوِيِّ، وَالْأَمَالِيُّ عَلَى مَسَانِيدِ أَبِي حَنِيفَةَ لِلزَّيْنِ قَاسِمِ بْنِ قُطْلُوبُغَا، الْحَنَفِيِّ الْحَافِظِ، وَاللَّآلِئُ الْمُتَنَاثِرَةُ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُتَوَاتِرَةِ لِابْنِ طُولُونَ الْحَنَفِيِّ، وَأَطْرَافُ الْمَسَانِيدِ الْعَشْرَةِ لِلشِّهَابِ الْأَبُوصِيرِيِّ، وَجَمْعُ الْفَوَائِدِ لِمُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ، وَكِتَابُ الْعِلْمِ لِابْنِ خَيْثَمَةَ زُهَيْرِ بْنِ حَرْبٍ النَّسَائِيِّ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا اسْتَفَدْتُ مِنْ مَعَانِيهَا وَأَسْرَارِهَا، كَشَرْحِ الْمُنْلَاعَلِيِّ عَلَى مُخْتَصَرِ هَذَا الْكِتَابِ، الْمُسَمَّى بِعَيْنِ الْعِلْمِ، وَالذَّرِيعَةِ

إِلَى مَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ، لِلْقَفَّالِ الشَّاشِيِّ، وَالذَّرِيعَةِ إِلَى مَكَارِمِ الشَّرِيعَةِ لِأَبِي الْقَاسِمِ الرَّاغِبِ، وَالْبَحْرِ الزَّاخِرِ لِأَبِي الطَّيِّبِ حَمْدَانَ بْنِ حَمْدَوَيْهِ، وَجَوَاهِرِ الْقُرْآنِ لِلْمُصَنِّفِ، وَفَضَائِلِ الْقُرْآنِ لِلْقُرْطُبِيِّ؛ وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِأُصُولِ الدِّينِ وَالِاعْتِقَادِ وَالْفِقْهِ وَفُرُوعِهِ، فَسَيَأْتِي بَيَانُ مَآخِذِ كُلِّ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعِهِ، عَلَى مَا يَسَّرَ اللهُ تَعَالَى عَلَيَّ فِي مُرَاجَعَتِهِ وَالْكَشْفِ عَنْ مَظَانِّهِ، فَأَذْكُرُ فِي كِتَابِ الْعَقَائِدِ مَا تَحَصَّلَ لَدَيَّ، وَفِي الْعِبَادَاتِ كَذَلِكَ؛ وَأَمَّا التَّصَوُّفُ وَالرَّقَائِقُ، فَقَدْ طَالَعْتُ عَلَيْهِ كُتُبًا كَثِيرَةً، وَأَجَلُّهَا مِقْدَارًا، الرِّسَالَةُ لِلْإِمَامِ أَبِي الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيِّ، وَشَرْحَاهَا لِأَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْمُعْطِي بْنِ مَحْمُودٍ اللَّخْمِيِّ، وَلِشَيْخِ الْإِسْلَامِ

زَكَرِيَّاً؛ وَقُوتُ الْقُلُوبِ لِأَبِي طَالِبِ الْمَكِّيِّ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارُ كِتَابِ الشَّيْخِ غَالِباً، وَمَنَازِلُ السَّائِرِينَ لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ الْهَرَوِيِّ، وَعَوَارِفُ الْمَعَارِفِ لِلشِّهَابِ السُّهْرَوَرْدِيِّ، وَالتَّعَرُّفُ لِأَبِي نَصْرٍ الْكَلَابَازِيِّ، وَتَأْيِيدُ الْحَقِيقَةِ الْعَلِيَّةِ، لِلْحَافِظِ السُّيُوطِيِّ، وَمَنَارَاتُ السَّائِرِينَ وَمَقَامَاتُ الطَّائِرِينَ، لِلشَّيْخِ نَجْمِ الدِّينِ دَأْيَةَ، وَمُعِيدُ الْعُلُومِ لِأَبِي بَكْرٍ الْخَوَارِزْمِيِّ، وَالذَّهَبُ الْإِبْرِيزُ فِي مَنَاقِبِ سَيِّدِي عَبْدِ الْعَزِيزِ، تَأْلِيفُ أَفْضَلِ الْمُتَأَخِّرِينَ، أَحْمَدَ بْنِ مُبَارَكٍ اللَّمْطِيِّ السِّلْجِمَاسِيِّ؛ وَمِنْ كُتُبِ التَّارِيخِ، الْوَافِي بِالْوَفَيَاتِ لِلصَّلَاحِ الصَّفَدِيِّ، وَالطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى لِابْنِ السُّبْكِيِّ، وَطَبَقَاتُ الْقُطْبِ الْخُضَيْرِيِّ، وَالْحَافِظِ عِمَادِ الدِّينِ بْنِ كَثِيرٍ الدِّمَشْقِيِّ؛ وَفِي أَسْمَاءِ

الرِّجَالِ الْكَاشِفُ لِلْحَافِظِ الذَّهَبِيِّ وَالدِّيوَانُ لَهُ، وَالْمُشْتَبَهُ لَهُ، وَالْكُنَى لِابْنِ الْمُهَنْدِسِ، وَالتَّبْصِيرُ لِلْحَافِظِ بْنِ حَجَرٍ؛ وَأَمَّا مَا نَقَلْتُ مِنْهُ مَسْأَلَةً أَوْ فَائِدَةً، أَوْ كَلِمَةً غَرِيبَةً أَوْ نَادِرَةً عَجِيبَةً، مِنْ أَجْزَاءٍ وَمَعَاجِمَ، وَمَسَانِيدَ وَمَشْيَخَاتٍ، وَرَسَائِلَ وَأَمَالِي، فَشَيْءٌ لَا أُحْصِيهِ الْآنَ، كَمَا سَتَقِفُ عَلَيْهِ عِنْدَ رَفْعِ السُّتُورِ عَنْ وَجْهِ الْبَيَانِ.

* * *

مع ثروت باشا

وَلَقَدْ نَاقَشَنِي رَحِمَهُ اللهُ طَوِيلاً فِي سَرَاحٍ وَرَوَاحٍ أَلْيَنَ نِقَاشٍ، وَنَاقَشَنِي فِي رَهَافَةِ حِسٍّ، وَظَرْفِ نَفْسٍ، مَعَ اسْتِهْوَاءٍ جَاذِبِيَّةٍ، وَعُذُوبَةِ مَقَالٍ، وَدَمِثِ[1] خِصَالٍ، وَطَارَحَنِي مِمَّا انْفَرَدَ بِهِ، مِنْ لِينِ عَرِيكَةٍ وَقُوَّةِ إِقْنَاعٍ، فِي غَيْرِ ارْتِصَادٍ[2] لِتَعَنُّتِ الْمُغْرِضِ

(١) دمث الأخلاق: حسنها وسهلها. (٢) ارتصاد: ترقب

الشَّهْوَانِ ، وَلاَ جُنُوحٍ لِكِبْرِيَاءِ ذِى الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ ، وَلاَ غَطْرَسَةِ صَاحِبِ الْهَيْلِ وَالْهَيْلَمَانِ[١] ، بَلْ فِى لُغَةِ الْأَقْرَانِ وَالنُّدَمَانِ ، مُحَاوِلاً عِلاَجَ مَا كُنْتُ عَلَيْهِ مِنْ بَلْبَلَةٍ وَإِحْجَامٍ ، مُثَبِّتًا مُضْطَرَبَ يَقِينِى ، مُرْهِفًا[٢] غِرَارَ عَزْمَتِى ، مُلْزِمًا لِى بِأَلاَّ أُسَوِّفَ بَعْدُ فِى تَقْدِيمِ كِتَابِى ، فَقُلْتُ فِى اقْتِنَاعِ الْمُتَعَلِّمِ الْمُسْتَزِيدِ ، لاَ الْمُصِرِّ الْعَنِيدِ ، لِلْجَاحِظِ شَيْخِ أُدَبَاءِ الْعَرَبِيَّةِ كَلِمَةٌ مَأْثُورَةٌ ، وَكَانَ دَوْلَتُهُ بِهِ مُعْجَبًا ، وَلِدَائِرَةِ مَعْلَمِهِ مُقَدِّرًا :

* * *

كلمة الجاحظ فى التأليف

« مَنْ أَلَّفَ فَقَدِ اسْتَهْدَفَ ، فَإِنْ أَحْسَنَ فَقَدِ

(١) الهيل والهيلمان : المال الكثير (٢) مرهفا : مشحذا . وغرار السيف : حده . والمراد إرهاف عزيمته وإحداد ذهنه .

اسْتُطْرِفَ ، وَإِنْ أَسَاءَ فَقَدْ اسْتُقْذِفَ[١] ، وَإِنِّى لَمْ أَبْلُغْ بَعْدُ مَرْتَبَةَ السَّابِقِينَ ، لِأَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُؤَلِّفِينَ ، وَلَسْتُ فِى هَذَا الْمَيْدَانِ بِابْنِ بَجْدَتِهَا[٢] ، وَمُفْتَرِعِ[٣] عُذْرَتِهَا ، وَلَسْتُ فِى هَذِهِ الْحَلْبَةِ[٤] بِالْمُجَلِّى فِى سِبَاقِهَا ، وَمَا أَنَا بِعُذَيْقِهَا[٥] الْمُرَجَّبِ ، وَلَا جُذَيْلِهَا[٦] الْمُحَكَّكِ

* * *

الجاحظ أيضا

فَأَجَابَنِى رَحِمَهُ اللهُ عَلَى نَفْسِ الْمَنْزَعِ وَبِنَفْسِ الْوَتِيرَةِ : « وَيَقُولُ الْجَاحِظُ فِيمَا أَظُنُّ ، فِى مَعْرِضِ

(١) استقذف : مجهول استقذف : استوجب القذف . « السب »

(٢) ابن بجدتها : العالم بالشىء والدليل الهادى (٣) مفترع عذرتها : المفتض المزيل لبكارتها (٤) الحلبة : الميدان

(٥) من قول الحباب ابن المنذر : عذيقها تصغير عَذْق للتعظيم وهو النخلة بحملها . والمرجب : من رجب الشجرة اذا دعمها بما يمنع انكسارها وسقوطها لثقل حملها . (٦) والجذيل : تصغير جِذْل وهو عود ينصب للجربى من الابل لتحتك به . يريد قائل ذلك أنه صاحب الأمر المضروب فيه المثل وهو به زعيم لا يضعف عن احتماله والنهوض به

النِّقَاشِ لَا الْإِفْحَامِ ، وَكَأَنِّي بِهِ يَرُدُّ عَلَيْكَ بِجَوَامِعِ الْكَلَامِ : إِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَقُولُ : مَا تَرَكَ الْأَوَّلُ لِلْآخِرِ شَيْئًا ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ مَا يُرِيدُ أَنْ يُفْلِحَ . »

ثُمَّ وَفَّقَهُ اللهُ ، تَعَالَى فَاسْتَعْمَلَ مَكَانَتَهُ مِنْ نَفْسِي الْوَفِيَّةِ ، وَقَلْبِي الْمُحِبِّ ، فَاضْطَرَّنِي اضْطِرَارًا ، لَا مَرَدَّ لَهُ ، وَلَا مَحِيصَ عَنْهُ ، أَنْ أُقَدِّمَ مَا أَعْدَدْتُهُ ، لِأَنَّهُ فَوْقَ الْكِفَايَةِ فِيمَا يَرَاهُ ، فَكَانَ لَهُ إِحْسَانُ التَّمَامِ ، وَمِسْكُ الْخِتَامِ ، وَنِلْتُ (دَرَجَةَ فَائِقٍ) وَقْتَئِذٍ فِيمَا كُنْتُ — وَمَا زِلْتُ — أَرَاهُ بِمَثَابَةِ مُحَاوَلَةٍ أَوَّلِيَّةٍ ، فِي تَارِيخِ الْعَصْرِ الذَّهَبِيِّ لِلْإِسْلَامِ ، وَيَكْفِينِي عَزَاءً ، أَنِّي اتَّخَذْتُ شِعَارِي دَوْمًا ، تِلْكَ الْحِكْمَةَ الْخَالِدَةَ لِابْنِ الْهَيْثَمِ ، الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

حكمة ابن الهيثم

« لَيْسَ خِطَابِي مَعَ هَذَا الْكِتَابِ لِجَمِيعِ النَّاسِ ، بَلْ خِطَابِي لِرَجُلٍ مِنْهُمْ ، يُوَازِي أُلُوفَ الرِّجَالِ ، بَلْ عَشَرَاتِ أُلُوفِ رِجَالٍ ، إِذْ كَانَ الْحَقُّ لَيْسَ هُوَ بِأَنْ يُدْرِكَهُ الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ ، وَلَكِنْ هُوَ بِأَنْ يُدْرِكَهُ الْفَهِمُ[1] الْفَاضِلُ مِنْهُمْ . »

نوادر أدبية

وَلَمَّا كَانَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ يُذْكَرُ ، أَرَى مِنَ الْبِرِّ بِذِكْرَاهُ — طَيَّبَ اللهُ مَثْوَاهُ — أَنْ أَذْكُرَ حَلْقَتَهُ الْأَدَبِيَّةَ الْفِقْهِيَّةَ ، الَّتِي كُنْتُ أَمْثُلُ[2] فِي أَكْثَرِهَا ، وَكَانَ يَحْضُرُهَا مَعَنَا شُكْرِي بَاشَا ، وَمِحْرِزُ بَاشَا ، وَكَانَ قَارِئُهَا هُوَ الْمَرْحُومَ الشَّيْخَ مُحَمَّدًا عِيدًا الْمَحَلَّاوِيَّ ،

(١) الفهم : الكثير الفهم . صيغة مبالغة (٢) أمثُل : أحضر أمامه

عُضْوَ الْمَحْكَمَةِ الشَّرْعِيَّةِ الْعُلْيَا ، وَكَانَ يَدْرُسُ لَنَا بَيْنَ آونَةٍ وَأُخْرَى ، فِي الْكَشَّافِ وَالْأَلُوسِيِّ وَالْقَسْطَلَّانِيِّ ، وَإِتْحَافِ السَّادَةِ لِلسَّيِّدِ الْمُرْتَضَى ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْكُتُبِ الْفِقْهِيَّةِ ، الَّتِي كَانَ يَجْلِبُهَا لَهُ وَرَّاقُهُ الْخَاصُّ ، الشَّيْخُ حَسَنَيْنُ الزَّلَبَانِيُّ الْكُتْبِيُّ ، وَلَا أَدْرِي أَحَيٌّ هُوَ الآنَ أَمْ فِي عِدَادِ الْمَوْتَى ؟

* * *

طرف عن ثروت باشا

وَشَدَّ مَا كَانَ الْمَرْحُومُ ثَرْوَتْ بَاشَا ، يَجْنَحُ إِلَى الْجَدَلِ وَالنِّقَاشِ ، وَإِلَى الْمُوَازَنَةِ[1] وَالْقِيَاسِ ، وَإِلَى الِاسْتِنْبَاطِ وَالتَّخْرِيجِ ، حَتَّى لَكَأَنَّهُ - رَحِمَهُ اللهُ - كَانَ أَزْهَرِيَّ النَّشْأَةِ ، فِقْهِيَّ النَّزْعَةِ ، شَرْعِيَّ الِاسْتِعْدَادِ ، جَدَلِيَّ السَّلِيقَةِ ، مَنْطِقِيَّ الْوِرَاثَةِ .

(١) الموازنة : المقارنة .

وَكَانَتْ مِيزَتُهُ الْبَارِزَةُ فِيهِ – رَحِمَهُ اللهُ – هِيَ تَذَوُّقَهُ الطَّبَعِيَّ ، لِلْأَدَبِ ، وَحُبَّهُ الْفِطْرِيَّ لِلْجَمَالِ النَّثْرِيِّ ، وَالسِّحْرِ اللَّفْظِيِّ ، وَالْغِنَى الْمَعْنَوِيِّ ، وَهُوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَيَّ بِقِرَاءَةِ كِتَابِ « تَيْنْ » فِي تَارِيخِ الْبَلَاغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ ، كَمَا أَهْدَانِي كِتَابَيْ غَرِيبِ الْقُرْآنِ لِلْأَصْفِهَانِيِّ وَكِتَابِ (لَا متس) عَنْ مُعَاوِيَةَ ، وَهُوَ صَاحِبُ الْفَضْلِ الْأَوَّلِ ، فِي حَمْلِ دَارِ الْكُتُبِ عَلَى طَبْعِ كِتَابِ النُّجُومِ الزَّاهِرَةِ ، وَإِذَا لَمْ تَخُنِّي الذَّاكِرَةُ ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي تَحَدَّثَ إِلَى جَعْفَرٍ وَالِي بَاشَا ، عُضْوِ مَجْلِسِ الدَّارِ الْأَعْلَى وَقْتَئِذٍ ، بِرَجَاءِ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْأُمْنِيَّةِ ، بِجَمْعِ شَتَاتِ كِتَابِ تَارِيخٍ قَيِّمٍ ، عَنْ فَتْرَةٍ مِنْ تَارِيخِ مِصْرَ ، مُبَعْثَرَةٍ هُنَا وَهُنَاكَ ، بِلَا رَابِطٍ وَلَا سِيَاقٍ ، وَفِي إِبْهَامٍ وَغُمُوضٍ .

المكتبة التاريخية

ثُمَّ هُوَ هُوَ صَاحِبُ الْفَضْلِ الْأَوَّلِ، فِي حَثِّي عَلَى رَفْعِ مُذَكِّرَتِي عَنِ الْمَكْتَبَةِ التَّارِيخِيَّةِ، إِلَى سُدَّةِ حَضْرَةِ صَاحِبِ الْجَلَالَةِ مَوْلَانَا الْمَلِكِ – حَفِظَهُ اللهُ وَرَعَاهُ – وَأَوْصَى بِهَا خَيْرًا صَدِيقُهُ وَزِيرَ الْمَعَارِفِ وَقْتَئِذٍ، حَضْرَةَ صَاحِبِ السَّعَادَةِ الْأُسْتَاذِ عَلِيِّ الشَّمْسِيِّ بَاشَا.

وَكَانَ – رَحِمَهُ اللهُ – نِعْمَ الْأُسْتَاذُ وَالْمُعَلِّمُ، وَنِعْمَ الْمُرْشِدُ وَالْحَادِي، وَنِعْمَ النَّصِيرُ وَالْهَادِي، نَزَّاعًا لِلاطِّلَاعِ، وَثَّابًا إِلَى الْمَعَالِي، حَاثًّا عَلَى الاسْتِفَادَةِ، دَافِعًا إِلَى الِاسْتِزَادَةِ، مُرْهِفًا لِلْعَزَمَاتِ، مُقِيلًا لِلْعَثَرَاتِ، فِي دِفَاعٍ عَنْ حُرِّيَّةِ الْفِكْرَةِ، وَإِخْلَاصٍ لِحُرْمَةِ الْعَقِيدَةِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ تَمُتُّ إِلَى الْعِلْمِ

بِسَبَبٍ ، أَوْ تَتَّصِلُ بِخَالِصِ الِاقْتِنَاعِ بِوَشِيجَةٍ[1] .

* * *

طه حسين

وَإِنِّي لَأَذْكُرُ مَوْقِفَهُ التَّارِيخِيَّ، إِزَاءَ حَادِثِ الدُّكْتُورِ طَهَ حُسَيْنٍ ، وَمَا كَانَ مِنْ إِقْبَالِهِ عَلَى دَرْسِ الْمَوْضُوعِ مِنْ وِجْهَتِهِ الشَّرْعِيَّةِ، مَعَ الْمَرْحُومِ الشَّيْخِ الْمَحَلَّاوِيِّ ، وَمَا كَانَ مِنْ أَحَادِيثِهِ الْمُسْتَفِيضَةِ ، مَعَ زَمِيلِهِ الْمَرْحُومِ عَدْلِي بَاشَا ، وَمَعَ حَضَرَاتِ الْأَسَاتِذَةِ عَلِيٍّ الشَّمْسِيِّ بَاشَا ، وَعَبْدِ الْحَمِيدِ بَدَوِيٍّ بَاشَا ، وَأَحْمَدَ لُطْفِي السَّيِّدِ بِكْ .

* * *

شعار المؤلف

وَلَقَدْ كَانَ شِعَارِي فِي قِرَاءَتِي كَلِمَةَ « جون لوك » الْمَأْثُورَةَ : — « لَا تَفْعَلُ الْقِرَاءَةُ أَكْثَرَ مِنْ تَزْوِيدِ

(١) الوشيجة : صلة القرابة .

الْعَقْلِ بِالْمَعْرِفَةِ ، أَمَّا التَّفْكِيرُ فِيمَا نَقْرَأُ ، فَهُوَ الَّذِى يَجْعَلُ مَا نَقْرَأُ جُزْءًا مِنْ أَنْفُسِنَا .

إِنَّ مِنْ طَبِيعَتِنَا أَنْ نُنْعِمَ النَّظَرَ وَنُفَكِّرَ ، وَلَيْسَ يَكْفِى أَنْ نُثْقِلَ أَنْفُسَنَا بِالْمَعْلُومَاتِ الْكَثِيرَةِ ، نُكَدِّسُهَا ، فَمَا لَمْ نَمْضُغْهَا وَنَهْضِمْهَا لَمْ تُغَذِّنَا ، وَلَمْ تُكْسِبْنَا قُوَّةً » .

وَلَقَدْ خَرَجْتُ مِنْ جَوِّ الْقِرَاءَاتِ الْإِفْرِنْجِيَّةِ الْحَدِيثَةِ ، وَالْعَرَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ ، بِرَأْيٍ وَسَطٍ بَيْنَ آرَاءِ الْمُتَطَرِّفِينَ ، وَآرَاءِ الْمُحَافِظِينَ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ قَدْ قَصَدْتُ بِهِ فَضْلًا مِنْ لُبَابٍ ، وَأَثَارَةً[1] مِنْ صَوَابٍ ،

(١) طرفاً وجزءاً

وَقَبَسًا[١] مِنْ حِكْمَةٍ ، وَنُوراً مِنْ هُدًى ، وَشَعَاعاً مِنْ حَقٍّ ، . . . . ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا غِنَى لَنَا بَتَاتًا عَنِ اسْتِيعَابِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ ، فَفِيهِ جَمَالٌ وَحِكْمَةٌ ، وَفِيهِ رَصَانَةٌ وَمَتَانَةٌ ، وَفِيهِ بَلَاغَةٌ وَطَلَاوَةٌ ، وَفِيهِ أُسْلُوبٌ وَمَوْعِظَةٌ ، وَفِيهِ سَدَادٌ وَتَجْرِبَةٌ ، وَفِيهِ حَصَافَةٌ وَفِطْنَةٌ ، بَيْدَ أَنَّهُ لَا غِنَى لَنَا بَتَاتًا أَيْضًا ، عَنِ الْإِصَابَةِ بِأَوْفَرِ سَهْمٍ مِنَ الثَّقَافَاتِ الْأُورُوبِيَّةِ ، وَالْإِلْمَامِ بِمَا لَهُ مِنْ طُرُقٍ فِي الْبَحْثِ وَالِاسْتِقْرَاءِ ، وَالتَّحْلِيلِ وَالِاسْتِقْصَاءِ ، وَالْمُقَايَسَةِ وَالْمُوَازَنَةِ ، وَالْمُعَادَلَةِ وَالْمُقَارَنَةِ ، مَعَ اسْتِخْدَامٍ حَكِيمٍ ، وَاسْتِعْمَالٍ وَئِيدٍ[٢] ، وَاقْتِبَاسٍ مَعْقُولٍ ، لِمَا لَهُمْ

(١) القبس : الجزء القليل (٢) وئيد : فى تمهل

مِنْ عُلُومٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَنَفْسِيَّةٍ ، وَفَلْسَفَةٍ تَارِيخِيَّةٍ ، وَطَرِيقَةٍ دِيكَارْتِيَّةٍ مَنْطِقِيَّةٍ ، وَأَسَالِيبَ مَاكُولِيَّةٍ بِزْوَلِيَّةٍ ، وَمَنَاحٍ لِدُوجِيَّةٍ عَصْرِيَّةٍ ، حِينَ الْكِتَابَةِ عَنِ الشَّخْصِيَّاتِ الْبَارِزَةِ . ثُمَّ وَجَدْتُ أَخِيرًا أَنَّهُ لَا غِنَى لَنَا بَتَاتًا عَنِ امْتِزَاجِ الأَدَبَيْنِ ، وَهَضْمِ الْمَادَّتَيْنِ ، وَاسْتِيعَابِ الْوِجْهَتَيْنِ ، وَتَقَمُّصِ[1] الْعَقْلِيَّتَيْنِ ، وَالتَّوْلِيدِ مِنَ الأُسْلُوبَيْنِ ، وَالتَّلْقِيحِ بَيْنَ الثَّقَافَتَيْنِ ، وَالتَّفْرِيخِ مِنَ الْعُنْصُرَيْنِ ، وَفِي هَذَا الْجَوِّ مِنَ الْقِرَاءَاتِ الْهَادِئَةِ الْمُطْمَئِنَّةِ ، الْمُثْمِرَةِ الْمُجْدِيَةِ ، أَقْبَلْتُ — بِحَمْدِ اللهِ وَعَوْنِهِ — عَلَى وَضْعِ مُعْجَمٍ لِلْعَرَبِيَّةِ ، وَدَرْسٍ لِأَعْلَامِهَا ، وَتَحْلِيلٍ لِكُتَّابِهَا ، وَتَقَصٍّ لِجَهَابِذَتِهَا ، وَشَرْحٍ لِمُبْهَمِ غَرْسِهَا ، وَتَوْضِيحٍ لِمُعَمَّى لَفْظِهَا ، وَجَمْعٍ لِمُتَفَرِّقِ

(١) تقمص العقليتين : فهمهما

شَتَاتِهَا ، فِي مُثَابَرَةٍ وَاسْتِمْرَارٍ ، وَفِي إِمْعَانِ نَظَرٍ وَاسْتِذْكَارٍ ، وَفِي دَرْسِ اسْتِسَاغَةٍ لاَ تَكْلِيفِ اضْطِرَارٍ.

وَالآنَ : يَحْلُو لِي ، أَنْ أَنْتَقِلَ بِكَ إِلَى أَشْهَى الأَلْفَاظِ ، وَأَسْلَسِ التَّعَابِيرِ ، وَجَلِيِّ الْمَقَالِ ، إِلَى فَنِّ التَّرَاجِمِ فَأَقُولُ :

* * *

فن التراجم وتدوين سير الأبطال

عِبَادَةُ الْبُطُولَةِ قَدِيمَةٌ « قِدَمَ هَذَا الْعَالَمِ ، طَبِيعِيَّةٌ انْدَمَجَتْ فِي الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ مِنَ الْخَلِيقَةِ ، وَرُكِّبَتْ فِي غَرَائِزِهَا وَمَنَازِعِهَا[1] مِنْ بِدَايَةِ التَّكْوِينِ ، بَلْ إِنَّ عِبَادَةَ الأَبْطَالِ كَانَتْ جَوْهَرَ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ ، مِنْ أَبْعَدِ عُصُورِ التَّارِيخِ ، إِذْ رَأَى النَّاسُ مِنَ الْبَدَاءَةِ

(١) المنازع : الميول

حِينَما تَكَوَّنَتِ الْجَماعَةُ الْأُولَى ، فَرْداً فِيهِمْ يَسْمُو عَلَى مَجْمُوعِهِمْ فِي شِدَّةِ الْبَاسِ ، أَوْ قُوَّةِ الْمِرَاسِ[1] ، أَوْ الاسْتِخْفَافِ بِالْخَطَرِ ، وَالاسْتِهَانَةِ بِالْمَهَالِكِ وَالْمَتَالِفِ ، أَوْ يَفْعَلُ فِي نُفُوسِهِمْ مَحْضَرُهُ فِعْلَ السِّحْرِ ، وَتَنْبَعِثُ مِنْ مُجَرَّدِ لِقَائِهِ ، أَوْ خَطَرَانِهِ[2] بَيْنَهُمْ ، أَوْ كَلِمَاتِهِ فِيهِمْ ، حَاسَّةُ الاسْتِضْعَافِ أَمَامَهُ ، وَالتَّأَثُّرِ الْخَفِيِّ بِهِ ، وَالشُّعُورِ بِالضَّآلَةِ دُونَهُ ، فَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، كَأَنَّهُ عُنْصُرٌ خَارِقٌ لِلْمَأْلُوفِ ، وَعَالَمٌ وَحْدَهُ ، خَارِجٌ عَنْ حُدُودِ عَالَمِهِمْ ، وَقُوَّةٌ قَاهِرَةٌ ؛ تَسْتَوْجِبُ الْخُضُوعَ وَالْإِذْعَانَ .

---

(١) المِرَاس، المرس : الحبل المفتول . يريد قوة الاحتمال . أو مصدر مارس : أى قوة معالجة الأمور . (٢) الخَطَرَان والخطير نوع من السير : وهو أن يمشى يرفع يديه ويضعهما .

* * *

عبادة البطولة

وَقَدْ عَبَدُوا مِنْ قَبْلُ ، الْبُطُولَةَ مُصَوَّرَةً فِي الْحَجَرِ ، وَخَضَعُوا لَهَا صُوَرًا فِي الْأَصْنَامِ ، وَتَهَاوِيلَ[1] فِي الْأَوْثَانِ ، كَمَا عَبَدُوهَا فِي الْأَخْيِلَةِ[2] الَّتِي خَالَتْهَا ، وَالرُّمُوزِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي وَضَعُوهَا لَهَا ، فَجَعَلُوا لِكُلِّ فَضِيلَةٍ إِلٰهًا ، بَلْ لِكُلِّ رَذِيلَةٍ أَيْضًا إِلٰهًا ، إِذْ أَكْبَرُوا قُوَّةَ الْخَيْرِ فِي تَنَاهِيهِ[3] ، وَخَافُوا قُوَّةَ الشَّرِّ فِي شَرِّ أَمْثِلَتِهِ ، وَأَرْهَبَ دَوَافِعِهِ وَخَوَافِيهِ ، فَكَانَتْ دِيَانَةُ الْإِغْرِيقِ ، هِيَ فِي الْوَاقِعِ عِبَادَةَ الْبُطُولَةِ فِي مُخْتَلَفِ ظَوَاهِرِهَا ، وَمُتَعَدِّدِ صُوَرِهَا ، إِذْ صَوَّرُوا

(١) التهاويل : الألوان المختلفة ، زينة التصاوير والنقوش والحلى — الواحد : تهويل (٢) الأخيلة : جمع خيال : وهو الظن والوهم
(٣) تناهيه : أى بلوغه النهاية

الْآلِهَةَ تَصْوِيراً بَشَرِيًّا ، وَجَعَلُوهَا تُشَارِكُهُمْ بِالْعَاطِفَةِ ، وَتُمَاثِلُهُمْ وَتُحَاكِيهِمْ فِي انْفِعَالَاتِ الْوُجْدَانِ .

كَذَلِكَ أَكْبَرَ النَّاسُ الْقُوَّةَ وَالسُّمُوَّ عَنِ الْمُسْتَوَى الْمَأْلُوفِ ، فِي كَافَّةِ مَظَاهِرِهِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ . وَمِنْ هَذَا الشُّعُورِ الْفِطْرِيِّ ، الَّذِي بَدَأَ مَعَ الْإِنْسَانِ فِي أَوَّلِ أَطْوَارِ الْخَلِيقَةِ وَمَبَادِيهَا ، نَشَأَتِ الْحَاسَّةُ الْأَدَبِيَّةُ ، الَّتِي رَبَطَتْ مَقَايِيسَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَأَغْرَتِ الْإِنْسَانَ بِالتَّرَفُّعِ وَمُحَاوَلَةِ السُّمُوِّ ، وَبَغَّضَتْ إِلَيْهِ الصَّغَارَ[1] وَالتَّدَهْوُرَ ، وَحَفَزَتْهُ إِلَى الِاقْتِدَاءِ بِالَّذِينَ ظَهَرُوا وَسَطَ الْجَمَاعَةِ بِسُلْطَانٍ مِنْ قُوَّتِهِمْ ، وَسِحْرٍ مِنْ سُمُوِّهِمْ ، وَجَاذِبِيَّةٍ خَفِيَّةٍ مِنْ تَرْكِيبِ خَلِيقَتِهِمْ ، فَأَخَذَتِ

(١) الصغار : الذل . والتدهور : السقوط .

الْجَمَاعَةَ مِنْهُمُ الرَّهْبَةُ لِمَجْهُولِ أَمْرِهِمْ ، وَسِرِّ شَأْنِهِمْ ، كَمَا أَخَذَتْهَا مِنْهُمُ انْبِعَاثَاتُ[1] الْإِعْجَابِ إِلَى حَدِّ التَّقْدِيسِ، وَالْخَوْفِ إِلَى حَدِّ التَّوَسُّلِ وَالضَّرَاعَةِ ، وَالِابْتِهَالِ وَالدُّعَاءِ بِالسَّلَامَةِ ، وَالنَّجَاةِ مِنَ الْحِسَابِ وَالْعِقَابِ .

* * *

الأديان المنظمة

وَعَلَى مُبْتَدَأِ نَشْأَةِ الْحَاسَّةِ الدِّينِيَّةِ ، جَاءَتِ الْأَدْيَانُ الْمُنَظَّمَةُ ، يَحْمِلُهَا إِلَى الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْأَطْوَارِ الْأُولَى مِنَ النُّشُوءِ الِاجْتِمَاعِيِّ ، أَفْرَادٌ أَكْبَرُ مِنْ عَصْرِهِمْ ، وَأَشْخَاصٌ خَارِقُونَ لِمَأْلُوفِ الْقُوَّةِ فِي مُحِيطِهِمْ ، فَكَانَتْ وَسِيلَةُ الْإِخْضَاعِ لِلْفِكْرَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي جَاءُوا بِهَا ، هِيَ إِبْرَازَ عَمَلٍ مُعْجِزٍ . وَإِتْيَانَ حَادِثٍ

(١) انبعاثات الاعجاب : اندفاعاته

خَارِقٍ لِلطَّبِيعَةِ، وَإِحْدَاثَ فِعْلٍ يَزِيدُ ضُؤُولَةَ النَّاسِ بُرُوزاً وَظُهُوراً .

* * *

تطور الأديان

وَقَدْ ظَلَّتِ الْفِكْرَةُ الدِّينِيَّةُ نَفْسُهَا تَتَنَقَّلُ فِي أَطْوَارٍ مُتَعَاقِبَةٍ، حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى عَقِيدَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ، أَوْ إِلَى فِكْرَةِ الْإِيمَانِ بِأَنَّ هُنَاكَ عَظِيماً خَالِقاً فَوْقَ كُلِّ الْعُظَمَاءِ الْمَخْلُوقِينَ، وَسُمُوّاً سَمَاوِيّاً فَوْقَ كُلِّ سُمُوٍّ أَرْضِيٍّ، وَقُدْرَةً أَعْلَى مِنْ مُتَنَاوَلِ الْقُوَّاتِ، وَلَكِنْ مَا مَنَعَ الْإِيمَانُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ بَقَاءَ عِبَادَةِ الْبُطُولَةِ، وَإِنْ جَرَّدَهَا مِنْ فِكْرَةِ الْعِبَادَةِ كَدِينٍ، وَقَصَرَهَا عَلَى فِكْرَةِ التَّقْدِيسِ كَإِحْسَاسٍ إِنْسَانِيٍّ، يَحْتَرِمُ ذَاتَهُ فِي أَرْفَعِ قَوَالِبِهِ، وَيُكْبِرُ[1] مَظَاهِرَهُ فِي أَسْمَى أَشْكَالِهِ وَمَرَاتِبِهِ .

(١) يكبر : يعظم

* * *

تدوين أعمال البطولة

وَمُنْذ ظَهَرَ فِي الْجَماعَةِ الْأُولَى أَفْرَادٌ بِمَقَايِيسِ تَكْوِينٍ أَكْبَرَ مِنَ الْمِقْيَاسِ الْعَامِّ ، وَفِي مُسْتَوًى مِنَ الْقُوَّةِ وَالْمَسْلَكِ وَالصِّفَاتِ الْفَرْدِيَّةِ فَوْقَ الْمُسْتَوَى الْمَأْلُوفِ ، بَدَأَتِ الْعِنَايَةُ « بِتَدْوِينِ » أَعْمَالِ الْبُطُولَةِ فِي الْأَحَادِيثِ ، كُلَّمَا اجْتَمَعَ الْجَمْعُ ، وَفِي التَّهَامُسِ[1] بِأَوْصَافِهَا وَحَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا مِنَ الْخَوْفِ مِنْهَا ، أَوْ عَلَيْهَا ، وَفِي تَرْدِيدِ مَآثِرِهَا ، وَمُدْهِشَاتِ فِعَالِهَا ، إِعْجَاباً بِهَا ، وَإِكْبَاراً لِشَأْنِهَا ، وَاتَّسَعَ مَعَ الْوَصْفِ مِنَ الذَّاكِرَةِ الْمَجَالُ لِلْخَيَالِ ، وَتَرَامَى[2] الْمَدَى أَمَامَ النُّزُوعِ إِلَى التَّجْسِيمِ ، وَالْإِسْرَافِ

(١) التهامس: الكلام الخفي (٢) ترامى : اتسع. والمدى: الأمل والغاية.

فِي التَّصْوِيرِ ، وَجَعَلَتْ كُلُّ قِصَّةٍ تُلْقَى فِي الْمَجْمَعِ أَوِ الْمُنْتَدَى، تَتَحَوَّلُ إِلَى حَلَقَاتٍ أُخْرَى غَيْرِهَا، مَعَ مَزِيدٍ مِنَ الْأَوْصَافِ، وَلَوْنٍ جَدِيدٍ مِنْ صُنْعِ الْأَخْيِلَةِ، فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ الشِّعْرُ ، « شِعْرُ الْبَدَاءَةِ » تَغَنِّيًا بِالْبُطُولَةِ ، وَتَمْدَاحًا[١] لِلْعَظَمَةِ ، وَإِشَارَةً بِخَوَارِقِ الْمَأْلُوفِ ، بَلْ كَانَ مِنْ ذَلِكَ « هُومِيرُوسُ » ، مِزْمَارُ الْبُطُولَةِ ، وَقِيثَارَةُ الْفِعَالِ الْجِسَامِ ، وَعَظَائِمِ الْأَعْمَالِ ، فِي الْإِلْيَاذَةِ[٢] ، أَوَّلِ دِيوَانٍ مِنَ الشِّعْرِ فِي عِبَادَةِ الْبُطُولَةِ ، وَالتَّغَنِّي بِالْأَبْطَالِ ، فَإِنَّ سَرْدَ حُرُوبِ طِرْوَادَةَ ، وَبَسَالَةَ الشُّجْعَانِ الْمَغَاوِيرِ[٣] ،

(١) تمداح مصدر مدح : وهو نهاية المبالغة فى المدح . (٢) الالياذة والأودسا : ديوانان جمعا كل فنون الاغريق (٣) المغاوير : جمع مغوار ، وهو الكثير الغارات والوقائع .

وَقِصَّةَ الْغَرِيزَةِ الْبَشَرِيَّةِ فِي الْغَزْوِ وَالْفَتْحِ وَالْغِيلَةِ وَالْعُدْوَانِ ، كَانَتْ أَوَّلَ تَدْوِينٍ لِتَرَاجِمِ النَّوَابِغِ ، وَسِيَرِ النَّابِهِينَ[1] وَقَصَصِ حَيَاةِ الْخَارِقِينَ لِمَأْلُوفِ الْبِيئَةِ ، وَمَجْرَى الْمُحِيطِ .

* * *

بلوتارك وَلَكِنْ إِذَا رُحْنَا نَلْتَمِسُ كِتَابَةَ التَّرَاجِمِ كَفَنٍّ ، أَوْ فَرْعٍ مِنْ فُرُوعِ الْأَدَبِ ، وَنَاحِيَةٍ قَائِمَةٍ بِذَاتِهَا مِنْ نَوَاحِي التَّفْكِيرِ ، وَنَطْلُبُ عَبَدَةَ الْبُطُولَةِ فِي أَبْعَدِ عُصُورِ التَّارِيخِ ، انْبَرَى لَنَا كَأَوَّلِ كَاشِفٍ ، وَأَسْبَقِ مُرْتَادٍ ، بلوتارك — أو « فلوكارخس » كَمَا يُسَمِّيهِ الْعَرَبُ — فَقَدْ كَانَ هُوَ مُنْشِئَ أَدَبِ

(١) النابهين : جمع نابه ، وهو الذى اشتهر وكان ذا نباهة .

الْبُطُولَةِ . وَالْمُتَحَدِّثَ الْبَلِيغَ عَنْ عَظَمَةِ الْعُظَمَاءِ ، وَقَدَاسَةِ الْأَبْطَالِ ، بَلْ هُوَ الْعَابِدُ الْأَوَّلُ فِي هَيْكَلِ النُّبُوغِ ، وَالْمُؤَرِّخُ الْمُؤَسِّسُ فِي سِيَرِ الْعَبْقَرِيِّينَ وَالْأَفْذَاذِ ، وَمِنْهُ عَرَفْنَا ، براسيداس ، وَدِيون ، وأبا منونداس ، وَسيبيو . بَلْ لَهُ نَحْنُ مَدِينُونَ بِالْفَضْلِ الْأَسْبَقِ فِي هَـذَا النَّوْعِ الشَّيِّقِ ، اللَّذِّ[1] الْبَدِيعِ مِنَ التَّارِيخِ .

* * *

حياة العظماء

لَقَدْ وَضَعَ « فلوكارخسُ » كِتَابَهُ « حَيَاةَ الْعُظَمَاءِ » فِي أُسْلُوبٍ مِنْ أَسَالِيبِ الْقَصَصِ ، فَكَانَ أَقْدَمَ طَرِيقَةٍ رُوَائِيَّةٍ فِي الْأَدَبِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَقَدْ جَعَلَ

(١) اللذ : اللذيذ الشهيّ .

الْبُطُولَةَ تَشِعُّ[1] فِي كُلِّ تَرْجَمَةٍ مِنْ تَرَاجِمِهِ ؛ بُطُولَةَ الْعَمَلِ وَالصِّفَةِ ، لاَ بُطُولَةَ الدَّمِ وَالْأَنْسَابِ وَالْمَعْرِفَةِ ، وَوَصَفَ لَنَا نُفُوسَ الْقَادَةِ وَالنَّوَابِغِ وَالْعُظَمَاءِ ، فِي صُوَرٍ مُجَسَّمَةِ الْمَعَالِمِ ، بَارِزَةِ الدَّقَائِقِ وَالْأَجْزَاءِ .

وَلَئِنْ أَغْفَلَ مُؤَلِّفُ كِتَابِ حَيَاةِ الْعُظَمَاءِ السِّيَاقَ التَّارِيخِيَّ فِي تَرَاجِمِ شَخْصِيَّاتِهِ ، فَلَمْ يُرَاعِ التَّسَلْسُلَ الطَّبِيعِيَّ لِلْحَوَادِثِ ، وَلَمْ يَجْرِ فِي وَصْفِ عُظَمَائِهِ مَجْرَى الْمُحْدَثِينَ ، فِي التَّرْتِيبِ وَالِاسْتِخْلَاصِ مِنْ مَنْطِقِ الْحَيَاةِ ، وَالظُّرُوفِ وَالْعَوَامِلِ الْمُخْتَلِفَةِ ، فَقَدْ عَوَّضَنَا عَمَّا أَغْفَلَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَعْدِلُهُ وَيُجَاوِزُهُ قِيمَةً وَشَأْنًا ، إِذْ أَفْعَمَ تَرَاجِمَهُ حَيَاةً ، حَتَّى أَحَالَهَا

(١) تشِعُّ : تنتشر وتتفرق – ومنه شُعاع الشمس .

تَكَادُ تَخْتَلِجُ اخْتِلَاجاً[1] مِنْ دِقَّةِ الْوَصْفِ، وَحَرَارَةِ الْأَدَاءِ، وَبَرَاعَةِ التَّصْوِيرِ.

* * *

تقديس البطولة

كَذَلِكَ قَدَّسَ «بلوتارك» الْبُطُولَةَ، وَفَتَحَ مِنْ أَجْلِهَا بَاباً جَدِيداً فِي التَّارِيخِ، وَأَنْشَأَ لَهَا نَاحِيَةً خَاصَّةً مِنَ الْأَدَبِ، وَهَدَى الدُّنْيَا إِلَى أُسْلُوبٍ طَرِيفٍ فِي إِمْتَاعِ[2] الْأَذْهَانِ، وَإِبْرَازِ قَوَالِبِ الْفَضِيلَةِ، وَتَقْدِيمِ أَمْثِلَةٍ عُلْيَا لِلْحَيَاةِ، فَنَشَأَتْ بَعْدَهُ «الْقِصَّةُ»، بَادِئَةً بِمُتَعِ الْحَوَادِثِ فَحَسْبُ، وَمُجَرَّدِ التَّسْلِيَةِ مِنَ التَّارِيخِ، بِتَصْوِيرِ النَّوَابِغِ، مُلُوكاً

(١) اختلجت العين اختلاجا: انتفضت أجفانها بحركة اضطرارية — والمراد أنه صوّر التراجم تصويرا جعلها تتحرك كأنها من الأحياء.
(٣) إمتاع الأذهان: تمتعها وانتفاعها وتلذذها.

أَوْ فُرْسَانًا ، أَوْ شُجْعَانًا أَوْ إِخْوَانَ حُرُوبٍ ، ثُمَّ جَعَلَتْ[1] تَتَطَوَّرُ مَعَ الْحَضَارَةِ وَالْحَيَاةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، فَكَانَتْ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ هَذِهِ الضُّرُوبُ الْجَدِيدَةُ مِنَ الْقَصَصِ ، قِصَّةُ الشَّخْصِيَّةِ ، أَوِ الْمِحْوَرُ الدَّائِرُ حَوْلَ الْبَطَلِ ، امْرَأَةً أَوْ رَجُلًا ، وَالْوَصْفُ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَيْهِ التَّحْلِيلُ النَّفْسِيُّ ، وَيَتَأَثَّرُ بِالتَّشْرِيحِ وَالتَّقَصِّي لِلْخَوَالِجِ[2] ، وَالنَّزَعَاتِ وَالْأَحَاسِيسِ .

* * *

توماس كارلايل

وَتَطَوَّرَتْ كِتَابَةُ التَّرَاجِمِ مَعَ تَطَوُّرَاتِ الْعُصُورِ ، وَلَكِنَّ هَذَا الْفَنَّ الْمُسْتَقِلَّ مِنْ فُنُونِ الْأَدَبِ ، وَجَدَ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ نَابِغَتَهُ الْمُبَرِّزَ ، وَمِزْمَارَهُ

(١) جعلت : أخذت وصارت (٢) الخوالج : ما يجيش فى صدر الانسان

السَّاحِرَ، وَرِيشَتَهُ الْبَارِعَةَ فِي التَّصْوِيرِ، بَلْ وَجَدَتِ الْبُطُولَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ، الْعَابِدَ الْمُتَحَمِّسَ لَهَا، وَالْمُقَدِّسَ الْمُتَفَانِيَ فِيهَا، وَالْمُتَغَنِّيَ الْمُرَتِّلَ لِآيِهَا[1] وَفِعَالِهَا، وَهُوَ « توماس كارلايل »، صَاحِبُ كِتَابِ « الْأَبْطَالِ وَعِبَادَةِ الْبُطُولَةِ »، ذَلِكَ الْكِتَابُ الْخَالِدُ، الْقَوِيُّ الْأُسْلُوبِ، الْمُنْزَعُ حَيَاةً وَرُجُولَةً، الْمُتَعَمِّقُ فِي أَغْوَارِ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَخَوَالِجِهَا، الْغَائِصُ فِي لُبِّ الْعَظَمَةِ الْقَسِيَّةِ[2]، وَأَسْرَارِ الْعَبْقَرِيَّةِ وَالنُّبُوغِ، وَلَمْ يَقْصُرْ « كارلايل » تَصْوِيرَهُ لِلْعَبْقَرِيَّةِ، وَرَسْمَهُ لِلشَّخْصِيَّةِ الْخَارِقَةِ لِلْمَأْلُوفِ، عَلَى الْأَمْثِلَةِ الَّتِي افْتَنَّ فِيهَا الَّذِينَ تَقَدَّمُوهُ مِنْ كُتَّابِ التَّرَاجِمِ،

(١) الآى : جمع آية . وهى العلامة . (٢) القسية : الشديدة .

أَمْثِلَةِ الشُّجْعَانِ وَالْمُقَاتِلَةِ ، وَالْقُوَّادِ وَالْمُنَاجِزَةِ ، وَالْأَقْيَالِ[1] وَالْقَيَاصِرَةِ ؛ وَلَكِنَّهُ قَدَّمَ إِلَى الْإِنْسَانِيَّةِ أَلْوَانًا مِنَ النُّبُوغِ مُخْتَلِفَةً ، وَأَمْثِلَةً مِنَ الْعَبْقَرِيَّةِ مُتَعَدِّدَةً ، يَبْدُو فِيهَا الشَّاعِرُ وَالْخَطِيبُ ، وَالْمُفَكِّرُ وَالْفَيْلَسُوفُ ، بِجَانِبِ النَّبِيِّ ، وَالْقَائِدِ ، وَالْمَلِكِ ، وَالسِّيَاسِيِّ الْعَظِيمِ .

* * *

أرنست رينان وترجمة المسيح

وَفِي الْقَرْنِ الْمَاضِي ، رَأَيْنَا كَاتِبًا فَرَنْسِيًّا ، يُحْدِثُ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا دَاوِيًا ، وَضَجَّةً عَظِيمَةً ، وَحَدَثًا خَطِيرًا لِلْغَايَةِ ، وَهُوَ وَضْعُ « تَرْجَمَةٍ لِلْمَسِيحِ » مَا كَادَ النَّاسُ يَتَنَاوَلُونَهَا حَتَّى بُهِتُوا بِهَا ، وَأَخَذَتْهُمْ رَوْعَتُهَا ، وَفَعَلَتْ فِي نُفُوسِهِمْ قُوَّتُهَا ، وَمَلَكَ أَلْبَابَهُمْ سِحْرُهَا وَجَاذِبِيَّتُهَا ،

(١) الأقيال : جمع قيل بالتخفيف : وهو الرئيس دون الملك الأعلى ، سمى به لأنه يقول ما شاء فينفذ . ، ويجمع على أقوال أيضا

فَاعْتَرَفُوا لَهَا جَمِيعاً حَتَّى الْمُنْكِرُونَ لِإِنْسَانِيَّةِ الْمَسِيحِ، كَمَا صَوَّرَهَا ذَلِكَ الْمُصَوِّرُ الْحَاذِقُ الْمَاهِرُ، بِأَنَّهَا عَمَلٌ أَدَبِيٌّ فَائِقٌ، بَالِغٌ حَدَّ الْإِعْجَازِ، مُتَجَاوِزٌ أَدَقَّ بَرَاعَةِ الْمُصَوِّرِينَ.

ذَلِكَ هُوَ «أرنست رينانُ»، فَإِنَّ كِتَابَهُ فِي «حَيَاةِ الْمَسِيحِ»، تَرَكَ النَّاسَ ذَاهِلِينَ يَوْمَ قَرَءُوهُ، وَلَا يَزَالُ مَقَامُهُ فِي التَّرَاجِمِ، مَقَامَ كِتَابٍ خَالِدٍ، بِجَانِبِ الْمَسِيحِيَّةِ ذَاتِهَا، فَإِذَا مَا ذُكِرَتْ ذُكِرَ هَذَا الْكِتَابُ.

وَنَشَأَ بِجَانِبِ التَّرَاجِمِ، يَتَوَفَّرُ عَلَيْهَا الْكُتَّابُ الْبَرَعَةُ[1] فِي الْقَصَصِ، وَالْمَهَرَةُ فِي التَّحْلِيلِ الدَّقِيقِ، وَالَّذِينَ أُوتُوا قُوَّةَ الْمُلَاحَظَةِ، وَالتَّغَلْغُلِ الْمُتَعَمِّقِ فِي

(١) البرعة: المهرة

أَغْوَارِ[١] الْحَقَائِقِ، كُلٌّ يُتَرْجِمُ لِلشَّخْصِيَّةِ الَّتِي أَثَّرَتْ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ سِوَاهَا، وَيُدَوِّنُ حَيَاةَ النَّابِغَةِ الَّذِي يَرُوقُهُ، وَتَسْتَجِيبُ عَاطِفَتُهُ لِنَوْعِ نُبُوغِهِ، وَمَظْهَرِ تَفَوُّقِهِ، وَتَتَلَاقَى نَفْسِيَّتُهُ بِنَفْسِيَّتِهِ فِي الْمَعَانِي، الَّتِي تَتَّصِلُ بِهِمَا، وَيَتَشَكَّلُ بِهَا تَفْكِيرُهُمَا . . .

* * *

جان جاك روسو

نَشَأَ بِجَانِبِ هَذِهِ التَّرَاجِمِ. نَوْعٌ طَرِيفٌ مِنَ التَّارِيخِ الْخَاصِّ، كَانَ لَهُ شَأْنُهُ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، وَمَكَانُهُ بِالنِّسْبَةِ لِأَلْوَانِ[٢] الْأَدَبِ وَمَرَاتِبِهِ، وَهُوَ «كِتَابَةُ الِاعْتِرَافَاتِ»، أَوْ تَرَاجِمِ النَّوَابِغِ بِأَقْلَامِهِمْ، وَقِصَّةِ حَيَاتِهِمْ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، فَرَأَيْنَا مِنْ قَبْلُ «جان جاك روسو» يَتَحَدَّثُ عَنْ حَيَاتِهِ وَمَاضِيهِ، مَعْنِيًّا حَتَّى

(١) أغوار: أعماق (١) الألوان: الأنواع والضروب.

بِالدَّقَائِقِ ، وَاصِفاً حَتَّى الْمَعَايِبَ ، وَنَوَاحِيَ النَّقْصِ فِيهِ ، ذَاكِراً مَا كَانَ يَظُنُّ الْمَرْءُ أَنَّ الْكَاتِبَ يَتَحَامَى حَتَّى الْإِشَارَةَ إِلَيْهِ ، فَرَاعَتْ هَذِهِ الِاعْتِرَافَاتُ ، وَنَزَلَتْ مِنَ النُّفُوسِ أَعْمَقَ مَنْزِلٍ ، لِرُوحِ الْأَمَانَةِ الَّتِي سَرَتْ فِي تَضَاعِيفِهَا ، وَظِلِّ الصِّدْقِ الضَّافِي عَلَيْهَا ، وَتَفَتُّحِ نَفْسٍ إِنْسَانِيَّةٍ أَمَامَ الدُّنْيَا ، عَارِيَةً مُتَجَرِّدَةً ، يَقْرَءُونَ خَوَالِجَهَا ، وَأَحَاسِيسَهَا وَنَزَعَاتِهَا ، كَأَنَّهُمْ يَقْرَءُونَ فِي كِتَابٍ مَفْتُوحٍ .

*
* *

شهرة فن التراجم

وَالْيَوْمَ اشْتَهَرَ فَنُّ كِتَابَةِ التَّرَاجِمِ ، وَأَصْبَحَ جُزْءاً مُسْتَقِلاً ، تَوَفَّرَ عَلَيْهِ كُتَّابٌ لَمْ يَعُدْ أَدَبُهُمْ يَتَنَاوَلُ سِوَاهُ إِلَّا فِي النُّدْرَةِ ، وَأَضْحَى هَؤُلَاءِ يَتَرَقَّبُونَ

ظُهُورَ النَّوَابِغِ ، وَتَوَطُّدَ أَقْدَامِ الْبَارِزِينَ فِي الْعَالَمِ ، وَأَصْحَابِ الشَّخْصِيَّاتِ الْمُتَجَلِّيَةِ فِي حَلَبَاتِ الْحَضَارَةِ مِنْ سِيَاسَةٍ وَاخْتِرَاعٍ ، وَاقْتِصَادٍ وَأَدَبٍ ، وَفَلْسَفَةٍ وَعُلُومٍ ، فَيَنْبَرُونَ[1] لِتَقْدِيمِهَا إِلَى الْإِنْسَانِيَّةِ ، مُصَوَّرَةً بِأَقْلَامِهِمْ ، مَرْسُومَةً بِرِيشَاتِهِمْ ، عَلَى طَرِيقَةٍ مُبْتَكَرَةٍ فِي التَّحْلِيلِ ، وَأُسْلُوبٍ جَدِيدٍ فِي التَّشْرِيحِ النَّفْسِيِّ ، وَمُتَابَعَةِ الْعَوَامِلِ الَّتِي هَيَّأَتْ لَهُمْ سَبِيلَ النُّبُوغِ ، وَالنَّوَامِيسِ[2] الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي سَاعَدَتْ عَلَى تَكْوِينِهِمْ ، وَسِيَاقِ الظُّرُوفِ ، وَمَنْطِقِ الْحَوَادِثِ فِي إِبْرَازِ شَخْصِيَّاتِهِمْ ، وَقَدْ أَعَانَهُمْ

(١) أنبرى للأمر : اعترض وتصدى له (٢) النواميس : جمع ناموس ، وله عدة معان : لعل المناسب منها : التعاليم وضروب الأبحاث التى زاولوها فى إبان تعليمهم .

عَلَى الْإِجَادَةِ فِي هَذَا الْبَابِ ، أَنَّ الْمَوَادَّ الْأَوَّلِيَّةَ لِلتَّرْجَمَةِ ، أَصْبَحَتْ مَوْفُورَةً فِي مُتَنَاوَلِ الْبَاحِثِ ، وَلَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فِي شَأْنِ نَوَابِغِ الْعُصُورِ الْمَاضِيَةِ وَعُظَمَائِهَا ، فَكَانَ الْمُتَرْجِمُ يَعْمَدُ إِلَى اجْتِهَادِهِ ، أَكْثَرَ مِنْ رُكُونِهِ إِلَى مَادَّةٍ بَحْثِهِ ، لِنُدْرَتِهَا وَشَتَاتِ أَجْزَائِهَا ، وَالشَّكِّ الْمُقْتَرِنِ بِدَقَائِقِهَا ، بَلْ قَدِ اسْتَبَقَ الْكُتَّابُ الزَّمَنَ وَمَدَارَهُ ، فَرَاحُوا يَضَعُونَ تَرَاجِمَ وَصُوَراً قَلَمِيَّةً لِلْمُعَاصِرِينَ الْأَحْيَاءِ ، نِهَايَةً فِي الْعِنَايَةِ بِالنُّبُوغِ ، وَمُبَالَغَةً فِي الشَّغَفِ بِالْعَظَمَةِ وَالْعَبْقَرِيَّةِ ، وَالْأَعْمِدَةِ الْقَوَائِمِ فِي الْمُجْتَمَعِ ، وَالْكَوَاكِبِ الْمُتَأَلِّقَةِ فِي مَجْدِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ .

*
* *

اميل لدوفيج

وَقَدْ رَأَيْنَا « إميل لدوفيج » فِي صَدْرِ كُتَّابِ التَّرَاجِمِ ، وَمُصَوِّرِي الشَّخْصِيَّاتِ الْبَارِزَةِ ، كَمَا شَهِدْنَا « هيلير بيلوك » و « لاسكى » و « موروا » وَأَمْثَالَهُمْ ، يَفْتَنُّونَ[1] فِي هَذَا الضَّرْبِ مِنَ التَّأْلِيفِ ، حَتَّى أَصْبَحُوا فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ مَزَامِيرَ لِلنُّبُوغِ ، وَمَصَارِحَ[2] لِلْمَجْدِ وَالْعَظَمَةِ ، وَالسُّمُوِّ الْإِنْسَانِيِّ ، فِي مُخْتَلِفِ آفَاقِهِ وَأَقْطَارِهِ .

* * *

دراسة الحياة والأنسان

وَلَسْتَ تُبَالِغُ إِذَا قُلْتَ : نَحْنُ أَحْوَجُ إِلَى هَذِهِ الْكُتُبِ وَالتَّرَاجِمِ وَالصُّوَرِ الْفَرَائِدِ ، مِنَّا إِلَى كُتُبِ الْعُلُومِ السِّيَاسِيَّةِ ، وَالِاقْتِصَادِ وَالِاجْتِمَاعِ ، وَغَيْرِهَا مِنَ

(١) هو من قولهم : افتن فلان فى حديثه وفى خطبته افتنانا — أخذ فى فنون من القول ، وجاء بالأفانين — وأفانين الكلام : أساليبه وأجناسه ، وطرقه . (٢) مصارح : صروح : قصور عالية جمع صرح .

الْمُؤَلَّفَاتِ ، لِأَنَّهَا فِي الْوَاقِعِ ، هِيَ دِرَاسَةُ الْحَيَاةِ فِي أَرْفَعِ صُوَرِهَا ، وَالْتِمَاسُ الْقَوَالِبِ الرَّفِيعَةِ فِي مُخْتَلِفِ مَظَاهِرِهَا . وَقَدِيمًا قَالَ كَبِيرٌ مِنْ كِبَارِ شُعَرَاءِ الْإِنْكِلِيزِ فِي مَطْلَعِ إِحْدَى قَصَائِدِهِ « إِنَّ خَيْرَ دِرَاسَةٍ لِلْإِنْسَانِ ، هِيَ دِرَاسَةُ الْإِنْسَانِ » .

* * *

العظماء والنوابغ

وَنَحْنُ مُقَدِّمُونَ بَعْدَ هَذَا ، إِلَى الْقَارِئِ فَصْلَيْنِ مُمْتِعَيْنِ ، قَيِّمَيْنِ نَادِرَيْنِ ، فِي فَضْلِ الْعُظَمَاءِ وَقِيَمِ النَّوَابِغِ ، وَسِيَرِ الْأَبْطَالِ ، وَالْمَوْهُوبِينَ[1] النَّادِرِينَ ، حَتَّى يَتَجَلَّى شَأْنُ الْعُظَمَاءِ ، وَصَفْوَةُ الْقَوْلِ فِيهِمْ ، وَنَوَابِغُ الْمَبْحُوثِ عَنْهُمْ ، قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ الْقَارِئُ

(١) المفاض عليهم من الخلقة والتكوين .

فِي سِيرَةِ عَظِيمٍ ، أَوْ قِرَاءَةِ تَرْجَمَةٍ نَابِغَةٍ ، فَإِنَّ فَهْمَ الْعَظَمَةِ فِي جَوْهَرِهَا ، وَإِدْرَاكَ كُنْهِهَا فِي عُمُومِيَّتِهَا ، هُوَ خَيْرُ تَوْطِئَةٍ لِلدِّرَاسَاتِ الْخَاصَّةِ فِي عَالَمِ الْبُطُولَةِ وَالنُّبُوغِ .

وَقَدْ يَلُوحُ الرَّأْيَانِ اللَّذَانِ جِئْنَا بِهِمَا ، مُتَعَارِضَيْنِ عَلَى ظَاهِرِهِمَا ، وَلَكِنَّ الْمُتَنَاوَلَ فِي الْوَاقِعِ وَاحِدٌ ، وَالنَّظْرَةَ مُتَشَابِهَةٌ ، وَدِقَّةَ الدِّرَاسَةِ فِيهِمَا عَلَى سَوَاءٍ .

* * *

ايمرسن وفرود

وَنَبْدَأُ بِمَقَالِ « رَالْفْ وَالدُر ايمرسُنْ » وَهُوَ سَيِّدُ كُتَّابِ أَمْرِيكَا ، فِي فَضْلِ الْعُظَمَاءِ ، ثُمَّ نُتْبِعُهُ بِمَقَالٍ لِلنَّقَّادَةِ الْإِنْكِلِيزِيِّ ، وَالْأَدِيبِ الْكَبِيرِ « جيمس انتونى فرود » وَنُذَيِّلُ الْمَقَالَيْنِ بِكَلِمَةٍ

فِي مَعْنَى التَّارِيخِ « لإيمرسنْ » اسْتِكْمَالاً لِلْمَعْنَى الَّذِي أَرَدْنَاهُ ، مِنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ الصَّغِيرَةِ .

* * *

دراسة التاريخ

وَنَحْنُ نُلَخِّصُ لَكَ هُنَا فَصْلاً قَيِّماً ، حَفَلَ[1] بِأَرَقِّ الْمَعَانِي ، وَأَسْمَى الْمَرَامِي ، عَقَدَهُ سَيِّدُ كُتَّابِ أَمْرِيكَا ، فِي الْقَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ ، وَهُوَ « رَالفْ وَالدُرْ» اِيمْرِسُن » تَنَاوَلَ فِيهِ قِيمَةَ التَّارِيخِ ، وَوُجُوهَ النَّظَرِ إِلَيْهِ ، وَخَيْرَ مَنَاحِي دِرَاسَتِهِ ، وَاسْتِمْدَادَ الْفَائِدَةِ مِنْهُ ، وَقَدْ صَدَّرَ هَذَا الْفَصْلَ الْمُمْتِعَ بِأَبْيَاتٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى : « لاَ صَغِيرَ وَلاَ عَظِيمَ عِنْدَ الرُّوحِ الأَعْلَى الَّذِي خَلَقَهُمَا ، وَالَّذِي انْبَعَثَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ ، وَصَدَرَ كُلُّ شَيْءٍ عَنْهُ ، وَعَمَّ خَلْقُهُ كُلَّ مَكَانٍ » .

(١) حَفَل : احتشد واكتظ .

« أَنَا مَالِكُ الْمُلْكِ ، وَالسَّبْعِ الطِّبَاقِ[١] ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بُحُسْبَانٍ[٢] ، وَخَالِقُ يَدِ قَيْصَرَ ، وَعَقْلِ أَفْلاَطُونَ ، وَقَلْبِ الْمَسِيحِ . وَمَا فِي شِكِسْبِيرَ مِنْ عُذُوبَةِ الْأَلْحَانِ . . . . . »

* * *

يَقُولُ إِيمِرْسُنُ :

مقال إيمرسن

لَيْسَ فِي الْعَالَمِ غَيْرُ عَقْلٍ وَاحِدٍ ، هُوَ الْمُؤْتَلِفُ الْمُشَابِهُ لِعُقُولِ جَمِيعِ النَّاسِ ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَيْسَ إِلاَّ مَدْخَلاً إِلَى شَبِيهِهِ ، وَإِلَى جَمِيعِ أَشْبَاهِهِ ، وَمَتَى يَدْخُلْ يَوْمًا رِحَابَ الْحَقِّ ، يُصْبِحِ السَّيِّدَ الْحُرَّ ، الطَّلِيقَ الْإِرَادَةِ فِي الدَّوْلَةِ كُلِّهَا . وَمَا فَكَّرَ أَفْلاَطُونُ فِيهِ

(١) السبع الطباق : السموات والأرضين . لأن كلا سبع طباق .
(٢) حسبان : بمقدار سوى ، وحساب معلوم .

فَلْيُفَكِّرْ ، وَمَا أَحَسَّهُ الْوَلِيُّ الصَّالِحُ فَلْيُحْسِسْ بِهِ ، وَمَا وَقَعَ فِي أَيِّ وَقْتٍ لِرَجُلٍ ، قَدْ يَفْهَمُهُ وَيَتَصَوَّرُهُ وَيُدْرِكُهُ ، وَكُلُّ مَنْ يَتَصِلْ بِهَذَا الْعَقْلِ الْكَوْنِيِّ الْعَامِّ ، يَكُنْ شَرِيكاً فِي كُلِّ الْخَلِيقَةِ ، مُسَاهِمًا فِي كُلِّ مَا قَدْ صُنِعَ ، أَوْ مَا هُوَ عَلَى الدَّهْرِ مَصْنُوعٌ ، لِأَنَّ هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الْوَحِيدُ ، وَالْمَسْلَكُ الَّذِي لَا مَسْلَكَ سِوَاهُ .

إِنَّ التَّارِيخَ هُوَ سِجِلُّ أَعْمَالِ هَذَا الْعَقْلِ ، وَمُدَوِّنُ فِعَالِهِ وَصَنَائِعِهِ ، وَإِنَّ عَبْقَرِيَّتَهُ لَتُصَوَّرُ وَتَتَمَثَّلُ فِي سِلْسِلَةِ الدَّهْرِ ، وَحَلَقَاتِ الْأَيَّامِ وَالْأَعْوَامِ ؛ وَلَا يُفَسِّرُ الْإِنْسَانَ وَيَشْرَحُهُ غَيْرُ تَارِيخِهِ ، فَإِنَّهُ الشَّارِحُ الْأَوْحَدُ ، وَالْمُفَسِّرُ الْأَعْظَمُ ، وَأَكْبَرُ التَّأْوِيلِ .

* * *

النفس إِنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ لَتَسِيرُ فِي غَيْرِ عَجَلَةٍ ، وَتَمْضِي فِي غَيْرِ رَاحَةٍ مِنْ أَوَّلِ الطَّرِيقِ ، لِتُدْمِجَ فِيهَا كُلَّ مَلَكَةٍ وَكُلَّ فِكْرَةٍ ، وَكُلَّ خَالِجَةٍ (١) تَتَّصِلُ بِهَا ، فِي تَنَاسُبِ الْحَوَادِثِ ، وَسِيَاقِ الصُّرُوفِ وَالْأَدْوَارِ ، وَلَكِنَّ الْفِكْرَةَ هِيَ أَبَدًا سَابِقَةٌ لِلْفِعْلِ ، وَكُلَّ حَقَائِقِ التَّارِيخِ وَوَقَائِعِهِ ، كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي الْعَقْلِ كَقَوَانِينَ . وَكُلُّ قَانُونٍ بِدَوْرِهِ ، إِنَّمَا يَقُومُ عَلَى ظُرُوفٍ قَاهِرَةٍ ، وَأَحْوَالٍ غَالِبَةٍ ، وَحُدُودُ الطَّبِيعَةِ لَا تَأْذَنُ لِغَيْرِ وَاحِدٍ ، فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ .

* * *

الانسان وَالْإِنْسَانُ هُوَ دَائِرَةُ مَعَارِفِ الْحَقَائِقِ وَالْوَقَائِعِ

(١) الخالجة : ما يختلج فى الصدر ، أى يحتك مع الشك .

بِجُمْلَتِهَا . وَإِنَّ نُشُوءَ مِئَاتِ الْأَجَمِ[١] وَالْغَابِ ، هُوَ فِي بِذْرَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَكُلُّ مِصْرَ وَالْيُونَانِ ، وَرُومَةَ وَالْغَالِ ، وَبِرِيطَانِيَا وَأَمْرِيكَا ، إِنَّمَا تَرْقُدُ أَطْوَاءٌ[٢] وَثَنَايَا فِي صَدْرِ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ . وَمَا الْعُصُورُ الْمُتَعَاقِبَةُ ، وَالْجُيُوشُ الْمُتَلَاحِقَةُ ، وَالْمَمَالِكُ بَيْنَ قَائِمَاتٍ وَدَائِلَةٍ[٣] ، وَالدُّوَلُ بَيْنَ ارْتِفَاعٍ وَانْخِفَاضٍ ، وَالْجُمْهُورِيَّاتُ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّاتُ جَمِيعاً ، إِلَّا مُجَرَّدُ تَطْبِيقِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، الْمُتَعَدِّدَةِ التَّضَاعِيفِ وَالثَّنَايَا وَالْأَطْوَارِ ، عَلَى الْعَالَمِ الْكَثِيرِ الْوُجُوهِ ، وَالدُّنْيَا الْمُتَعَدِّدَةِ الْأَشْكَالِ ، وَالْجِهَاتِ وَالْأَنْحَاءِ .

(١) الأجَم : الشجر الكثير الملتفّ ، واحده أجمة .
(٢) الأطواء : جمع طوية ، وهى النية والضمير (٣) دائلة : زائلة .

* * *

العقل البشرى

لَقَدْ كَانَ هَذَا الْعَقْلُ الْبَشَرِىُّ ، هُوَ الَّذِى كَتَبَ التَّارِيخَ ، وَهُوَ الَّذِى يَنْبَغِى أَنْ يَقْرَأَهُ ، كَمَا يَنْبَغِى لِأَبِى الْهَوْلِ ، أَنْ يَحُلَّ لُغْزَهُ بِنَفْسِهِ ، وَإِذَا كَانَ التَّارِيخُ بِجُمْلَتِهِ فِى رَجُلٍ وَاحِدٍ ، فَإِنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَلَّا تَفْسِيرَ لَهُ ، وَلَا شَرْحَ لِأَبْوَابِهِ ، إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْخِبْرَةِ الْفَرْدِيَّةِ ، وَالتَّجَارِيبِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَبَيْنَ سَاعَاتِ حَيَاتِنَا صِلَةٌ وَعَلَاقَةٌ بِقُرُونِ الدَّهْرِ ، وَأَحْقَابِ الزَّمَنِ ، وَأَجْيَالِ الْأَبَدِ .

وَكَمَا أَنَّ الْهَوَاءَ الَّذِى أَتَنَفَّسُهُ ، مُسْتَمَدٌّ مِنْ خَزَائِنِ الطَّبِيعَةِ وَمُسْتَوْدَعَاتِهَا . وَكَمَا أَنَّ الضَّوْءَ الْمُشِعَّ[1]

(١) المشع : المنتشر ، المتفرق .

عَلَى كِتَابِى الْآنَ ، قَادِمٌ مِنْ كَوْكَبٍ عَلَى مَسَافَةِ مِئَاتِ الْمَلَايِينِ مِنَ الْأَمْيَالِ مِنْهُ . وَكَمَا أَنَّ جِسْمِى فِى تَوَازُنِهِ ، مُتَّصِلٌ بِتَوَازُنِ الْقُوَّةِ الْمَرْكَزِيَّةِ الطَّارِدَةِ ، وَالْقُوَّةِ الْمَرْكَزِيَّةِ الْجَاذِبَةِ ، كَذَلِكَ تَعْمَلُ السَّاعَاتُ فِى الْأَجْيَالِ ، وَتَعْمَلُ الْأَجْيَالُ فِى السَّاعَاتِ . وَكُلُّ فَرْدٍ فِى هَذَا الْعَالَمِ إِنْ هُوَ إِلَّا صُورَةٌ مُجَسَّمَةٌ مِنَ الْعَقْلِ الْعَامِّ ، فَكُلُّ خَوَاصِّهِ فِيهِ ، وَكُلُّ مَزَايَاهُ وَصِفَاتِهِ ، مَاثِلَةٌ لَدَيْهِ ، وَكُلُّ حَقِيقَةٍ جَدِيدَةٍ فِى تَجْرِبَتِهِ وَاخْتِبَارَاتِهِ الْخَاصَّةِ ، تُرْسِلُ ضِيَاءً عَلَى مَا صَنَعَ النَّاسُ مِنْ قَبْلِهِ ، وَأَتَى[1] الْجَمَاعَاتِ الْكَبِيرَةِ السَّالِفِينَ لَهُ ، وَكُلُّ أَزَمَاتِ حَيَاتِهِ فِى حُدُودِهِ ،

(١) وأتى الجماعات الخ : أى ما أتوه . ، مصدر صريح .

تُشِيرُ إِلَى أَزَمَاتٍ عَامَّةٍ عَلَى مِثَالِهَا ، وَكُلُّ ثَوْرَةٍ كَانَتْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ فِكْرَةً فِي عَقْلِ فَرْدٍ وَاحِدٍ ، فَإِذَا مَا وَقَعَتِ الْفِكْرَةُ بِرَجُلٍ آخَرَ ، كَانَ ذَلِكَ مِفْتَاحَ الْعَصْرِ ، وَمُنْبَثَقَ[1] الثَّوْرَةِ ، وَمُنْفَجَرَ الْبَارُودِ . وَقَدْ كَانَ كُلُّ إِصْلَاحٍ مِنْ قَبْلُ رَأْيًا خَاصًّا ، فَإِذَا مَا سَرَى إِلَى خَوَاطِرِ الْغَيْرِ ، حَلَّ مُشْكِلَةَ الْعَصْرِ ، وَفَتَحَ مَغَالِيقَ[2] الزَّمَنِ وَالْجِيلِ .

* * *

الحقيقة وَيَنْبَغِي فِي كُلِّ حَقِيقَةٍ ، أَنْ تُطَابِقَ وَتَسْتَجِيبَ لِشَيْءٍ فِي نَفْسِي حَتَّى يُمْكِنَنِي تَصْدِيقُهَا ، وَيَتَيَسَّرَ لِي فَهْمُهَا وَإِدْرَاكُهَا . وَنَحْنُ إِذْ نَقْرَأُ التَّارِيخَ ، يَنْبَغِي

(١) منبثق الثورة : صدورها وخروجها. فهو مصدر ميمى ، وكذا منفجر . (٢) المغاليق : جمع مغلاق ، وهو ما يغلق به الباب «القفل» والمراد انه يحل مشاكل الجيل ومعقّداته .

أَنْ نَكُونَ إِغْرِيقاً وَرُمَانِيِّينَ ، وَأَتْرَاكاً وَقَسَاوِسَةً ، وَمُلُوكاً وَشُهَدَاءَ وَجَلَّادِينَ ، بَلْ يَجِبُ أَنْ نَرْبِطَ هَذِهِ الصُّوَرَ ، بِحَقِيقَةِ مَا فِي تَجَارِبِنَا الْخَاصَّةِ ، وَاخْتِبَارَاتِنَا الْمَكْتُومَةِ الْخَافِيَةِ ، وَإِلَّا لَمَا فَهِمْنَا مِنَ التَّارِيخِ شَيْئاً عَلَى أُصُولِهِ ، وَلَا فَقِهْنَا مِنْهُ أَمْرًا عَلَى صَوَابِ فَهْمِهِ .

* * *

قوى العقل

إِنَّ كُلَّ مَا وَقَعَ « لِأَزْدُرُوبَال وَسِيزَارَ بُورجِيَا » ، إِن هُوَ إِلَّا تَصْوِيرٌ لِقُوَى الْعَقْلِ وَمَظَاهِرِ عَجْزِهِ ، كَالَّذِي وَقَعَ لَنَا نَحْنُ سَوَاءٌ ، بِسَوَاءٍ . وَلِكُلِّ قَانُونٍ جَدِيدٍ ، أَوْ حَرَكَةٍ سِيَاسِيَّةٍ ، مَعْنَاهَا عِنْدَكَ ، وَمَغْزَاهَا لَدَيْكَ ، وَإِنْ تَقِفْ أَمَامَ جَدَاوِلِهَا وَفَهَارِسِهَا ، فَقُلْ

تَحْتَ هَذَا الْقِنَاعِ تَحَجَّبَتْ طَبِيعَتِي ، وَاخْتَفَتْ وَتَلَثَّمَتْ بِلِسَانِهَا ، وَهَذَا هُوَ مَا يُعَالِجُ مَا فِينَا ، مِنْ قُرْبٍ شَدِيدٍ فِي أَنْفُسِنَا ، وَانْحِبَاسٍ وَثِيقٍ بِهَا ، بَلْ إِنَّ هَذَا هُوَ مَا يُلْقِي بِأَعْمَالِنَا فِي الْمُخَيِّلَةِ ، كَصُوَرٍ مُجَسَّمَةٍ فِي الذَّاكِرَةِ ، مُسْتَحْضَرَةٍ بِالْأَخْيِلَةِ ، مُسْتَعَادَةٍ بِالْبَصِيرَةِ ، وَكَمَا تَفَقَّدَ الْعَقْرَبُ وَالْجَدْيُ وَالسَّرَطَانُ وَالْمِيزَانُ مَعَانِيَهَا ؛ مِنْ نَقْلِهَا كَعَلَامَاتٍ وَمَنَازِلَ فِي مَسَابِحِ الْأَفْلَاكِ ، وَدَائِرَةِ الْبُرُوجِ[1] ، أَسْتَطِيعُ كَذَلِكَ أَنْ أُبْصِرَ مَسَاوِئِي وَشُرُورِي ، وَآثَامِي وَمَعَايِبِي ، فِي أَشْخَاصِ سُلَيْمَانَ وَالِيسْبَايَدِيسَ ، وَكَاتَالِينَ .

* * *

(١) البروج : الأفلاك . جمع برج .

الطبيعة

إِنَّ الطَّبِيعَةَ الْعَامَّةَ ، هِيَ الَّتِي تَرْفَعُ مِنْ قِيمَةِ أَشْخَاصٍ مُعَيَّنِينَ فِي الْحَيَاةِ ، كَمَا أَنَّهَا هِيَ الَّتِي تُعْطِي الْخَطَرَ وَبُعْدَ الشَّأْنِ ، لِحَوَادِثَ خَاصَّةٍ بِالذَّاتِ فِي الْعَالَمِ ، وَإِنَّ الْحَيَاةَ الْإِنْسَانِيَّةَ بِاحْتِوَائِهَا عَلَى هَذَا الْعُنْصُرِ ، لَغَامِضَةٌ رَهِيبَةٌ مُبْرِمَةٌ[1] لَا تَنْقَضِي وَلَا يُعْبَثُ بِهَا ، وَلَا تُنْتَهَكُ حُرُمَاتُهَا ، وَنَحْنُ نُسَوِّرُ عَلَيْهَا ، وَنُقِيمُ السِّيَاجَ حَوْلَهَا ، بِمَا نَصْنَعُ مِنْ زَوَاجِرَ وَعُقُوبَاتٍ ، وَشَرَائِعَ وَقَوَانِينَ .

* * *

القوانين

وَمِنْ هُنَا : تَسْتَمِدُّ جَمِيعُ الْقَوَانِينِ الْحِكْمَةَ مِنْهَا ، وَالْغَايَةَ الْقُصْوَى مِنَ اشْتِرَاعِهَا ، وَهِيَ جَمِيعاً تُعَبِّرُ

(١) مبرمة : مضجرة مملة .

عَنْ نَاحِيَةٍ أَوْ أُخْرَى، مِنْ سُلْطَانِ هَذِهِ الْحِكْمَةِ الرَّفِيعَةِ، الَّتِي لَا حَدَّ لَهَا وَلَا حَصْرَ. وَإِنَّ الشُّعُورَ الْبَاطِنِيَّ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَهِيَ الْحِرْصُ عَلَى نِظَامِ الْحَيَاةِ وَكِيَانِهَا، هُوَ ضِيَاءُ نَهَارِنَا، وَمَطْلَبُ مَطَالِبِنَا، وَأَكْبَرُ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِنَا، بَلْ هُوَ الْحُجَّةُ النَّاهِضَةُ، الْمُوجِبَةُ لِلْعِلْمِ وَالتَّرْبِيَةِ، وَالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، وَالصَّدَاقَةِ وَالْحُبِّ، وَالْمُمْلِيَةُ عَلَى النُّفُوسِ الْقَوِيَّةِ السَّامِيَةِ، الْمُعْتَدَّةِ بِذَاتِهَا، الْعَظِيمَةِ الثِّقَةِ بِمَتَانَتِهَا، وَصَلَابَةِ أَعْوَادِهَا، أَعْمَالَ الْبُطُولَةِ وَالْجَسَارَةِ؛ وَفِعَالَ الْعَظَمَةِ، وَالرِّفْعَةِ وَالْمَجْدِ.

* * *

استطراد إِنَّ التَّارِيخَ الْعَامَّ، وَأَقْوَالَ الشُّعَرَاءِ وَالْقُصَّاصِ

وَالرُّوَاةِ، فِي تَصْوِيراتِهِمُ الفَخْمَةِ، وَتَهَاوِيلِهِمُ[١] البَارِعَةِ، لِلْحَوَادِثِ المُخْتَلِفَةِ، سَوَاءٌ فِي المَعَابِدِ، حَيْثُ يَقُومُ سُلْطَانُ الدِّينِ، أَوْ فِي القُصُورِ حَيْثُ يَعْلُو سُلْطَانُ المُلُوكِ وَالأَكَاسِرَةِ، وَفِي انْتِصَارَاتِ الإِرَادَةِ وَالعَبْقَرِيَّةِ وَالنُّبُوغِ، عَلَى كُلِّ مَا اعْتَرَضَ طَرِيقَهَا وَنَاوَأَهَا، وَحَاوَلَ التَّغَلُّبَ عَلَيْهَا — إِنَّ هَذَا كُلَّهُ الَّذِي يُحَدِّثُنَا التَّارِيخُ بِهِ، هُوَ الَّذِي يَسْتَهْوِينَا. وَلَا يُشْعِرُنَا بِأَنَّنَا مُتَطَفِّلُونَ غُرَبَاءُ، وَلَا يَحْمِلُنَا عَلَى الإِحْسَاسِ بِأَنَّهُ مَقْصُودٌ لِغَيْرِنَا، وَمَنْ هُمْ أَفْضَلُ مِنَّا، وَلَكِنْ يَجْعَلُنَا كَأَنَّنَا شُرَكَاءُ فِيهِ، وَكَأَنَّمَا يَتَحَدَّثُ بِهِ عَنَّا، وَيُنَوِّهُ بِنَا، وَإِنَّنَا لَنَشْتَرِكُ بِكُلِّ عَاطِفَتِنَا، فِي أَكْبَرِ حَوَادِثِ التَّارِيخِ، وَأَرْهَبِ لَحَظَاتِهِ، وَأَعْظَمِ

(١) التهاويل: الألوان المختلفة، وزينة التصاوير والنقوش.

مَرَاحِلِهِ وَفَتَرَاتِهِ ، فِي الْمُكْتَشَفَاتِ الْعَظِيمَةِ ، وَمَوَاقِفِ الدِّفَاعِ عَنِ الْوَطَنِ النَّادِرَةِ الرَّائِعَةِ ، وَالتَّوْفِيقَاتِ الْعَجِيبَةِ ، وَحَوَادِثِ الْفَوْزِ الْمُبِينِ ، وَالنَّجَاحِ الْبَاهِرِ ، لِأَنَّ الْقَانُونَ فِي هَذَا كُلِّهِ قَدْ تَنَفَّذَ ، وَالنَّامُوسَ قَدْ جَرَى سُلْطَانُهُ ، وَالْبَحْرَ قَدْ كُشِفَتْ سَوَاحِلُهُ ، وَالْأَوْقِيَانُوسَ قَدِ اهْتُدِيَ إِلَى ضِفَافِهِ ، وَالْأَرْضَ الْمَجْهُولَةَ قَدْ عُرِفَتْ ، وَالضَّرْبَةَ الْقَاضِيَةَ قَدْ ضُرِبَتْ ، وَالدِّفَاعَ الْبَاسِلَ الْعَظِيمَ قَدْ دُوفِعَ ، وَقَدْ تَمَّ هَذَا ، وَكَأَنَّنَا كُنَّا حَاضِرِيهِ ، بَلْ جَرَى كَأَنَّهُ كَانَ مِنْ أَجْلِنَا ، بَلْ لَوْ كُنَّا فِي الْمَوْضِعِ ذَاتِهِ ، وَالْمَوْطِنِ بِعَيْنِهِ ، لَفَعَلْنَا مِثْلَ ذَلِكَ ، وَتَصَرَّفْنَا هَذَا التَّصَرُّفَ بِعَيْنِهِ ، أَوْ صَفَّقْنَا لَهُ رِضْوَانًا بِهِ وَإِعْجَابًا .

* * *

اتجاه الأدب فى هذا العالم

نَحْنُ جَمِيعًا نَحْفِلُ[١] وَنُعْنَى بِعَامِلِ الظُّرُوفِ وَفِعْلِ الْأَشْخَاصِ ، وَنَتَأَثَّرُ بِالصِّفَةِ وَالْمَوْصُوفِ ، وَنُعْجَبُ بِالظَّرْفِ وَالْمَظْرُوفِ ، وَإِنَّا لَنُمَجِّدُ الْأَغْنِيَاءَ ، لِأَنَّ لَدَيْهِمْ فِي الظَّاهِرِ أَنْعُمَ[٢] الْحُرِّيَّةِ ، وَالْقُوَّةِ وَالنُّفُوذِ ، وَالْمَقْدِرَةِ الَّتِي تُشْعِرُ بِأَنَّهَا حَقٌّ لِلْإِنْسَانِ ، أَوْ بِالْحَرَى[٣] حَقٌّ لَنَا ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ كُلُّ مَا يَقُولُهُ الْفَلَاسِفَةُ ، سَوَاءٌ مِنْهُمُ الرُّوَاقِيُّ[٤] فِي فَلْسَفَةِ الْيُونَانِ ، أَوِ الْحَكِيمُ الشَّرْقِيُّ فِي فَلْسَفَةِ الْهِنْدِ وَالْإِسْلَامِ ، أَوِ الْكَاتِبُ الْعَصْرِيُّ ، وَالْفَيْلَسُوفُ الْمُحْدَثُ فِي

(١) نحفل : من باب ضرب : نبالى ونهتم . (٢) أنعم الحرية : جمع نعمة ، وهى ما أعطاه الله العبد مما لا ينبغى لغيره أن يعطيه إياه .

(٣) الحرى : الخليق والجدير (٤) الرواق بيت كالفسطاط — والرواقيون . تلاميذ زينون الفيلسوف لأنه كان يعلمهم فى رواق . وشيعة من اليهود تقول بالتناسخ .

هَذَا الزَّمَانِ ، فِي تَحْدِيدِ صِفَاتِ الْإِنْسَانِ الْعَاقِلِ ، إِنَّمَا يَصِفُونَ بِهِ لِلنَّاسِ أَنْفُسَهُمْ وَيُصَوِّرُونَ أَشْخَاصَهُمْ ، بَلْ يَصِفُونَ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ ، الَّتِي لَمْ تُحَقَّقْ بَعْدُ غَايَتُهَا ، وَلَمْ تَبْلُغْ بَعْدُ نِهَايَةَ حُدُودِهَا ، وَلَكِنْ فِي الْإِمْكَانِ أَنْ تَبْلُغَهَا . وَلَيْسَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهَا ، وَكُلُّ اتِّجَاهِ الْأَدَبِ فِي هَذَا الْعَالَمِ ، قَدِيمًا وَحَدِيثًا يَتَّجِهُ نَحْوَ هَذَا الْغَرَضِ ، وَهُوَ تَحْدِيدُ صِفَةِ الْإِنْسَانِ الْعَاقِلِ ، وَتَدْوِينُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَوَافَرَ فِيهِ ، وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَكْمَلَ لَدَيْهِ ، وَهَذِهِ الْكُتُبُ وَالتَّمَاثِيلُ ، وَالدُّمَى[1] وَالتَّصَاوِيرُ ، إِنْ هِيَ إِلَّا الصُّوَرُ الَّتِي يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ أَنْ يَجِدَ فِيهَا مَعَالِمَ الْإِنْسَانِ

(١) الدُّمى : جمع دُمية : وهى الصورة من العاج ونحوه

الْمَطْلوبِ مِنْهُ أَنْ يَكُونَهُ ، وَالْفَرْدِ الَّذِى يَصِحُّ أَنْ يَرْسِمَ نَفْسَهُ عَلَى غِرَارِهِ[١] .

* * *

واجب الطالب

وَلِهَذَا يَنْبَغِى لِلطَّالِبِ وَالشَّابِّ ، وَالْمُتَطَلِّعِ إِلَى مَكَانٍ بَارِزٍ لَهُ فِى الْجَمَاعَةِ ، وَمَوْضِعٍ ظَاهِرٍ لَهُ فِى الْعَالَمِ ، أَنْ يَقْرَأَ التَّارِيخَ قِرَاءَةً عَمَلِيَّةً ، لاَ قِرَاءَةً سَلْبِيَّةً ، قِرَاءَةَ تَطْبِيقٍ وَإِيجَابٍ ، لاَ قِرَاءَةَ مَعْرِفَةٍ فَاتِرَةٍ[٢] ، وَجُمُودٍ وَمُجَرَّدِ نَظَرٍ ، قِرَاءَةَ شَخْصٍ يَعْتَبِرُ حَيَاتَهُ هِىَ مَادَّةَ التَّارِيخِ نَفْسِهِ ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّ الْكُتُبَ الَّتِى يَقْرَؤُهَا ، إِنَّمَا هِىَ التَّعْلِيقَاتُ عَلَيْهَا وَالشُّرُوحُ وَالتَّعْقِيبَاتُ[٣] .

(١) غراره : بكسر أوله : مثاله وطريقته .

(٢) الفاتر : الضعيف ، والمراد المعرفة غير الثابتة . (٣) التعقيبات : استدراك ما فيها من أخطاء .

إِنَّ قِرَاءَةَ التَّارِيخِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ الْإِيجَابِيِّ ، مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَجْعَلَ رُوحَ التَّارِيخِ تَسْكُبُ فِي أَسْمَاعِنَا ، مَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَفْصَحُ الْخُطَبَاءِ أَنْ يُسْمِعَنَا مِنْ فَوْقِ ذُرَا الْمَنَابِرِ ، وَيُلْقِيَ عَلَيْنَا مَا لَا مَثِيلَ لَهُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَسِحْرِ التَّرْغِيبِ فِي الْبُطُولَةِ وَالْحَضِّ عَلَى عَظَائِمِ الْفِعَالِ .

وَلَيْسَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَقْرَأُ التَّارِيخَ عَلَى صِحَّةٍ ، وَيُطَالِعُهُ عَلَى صَوَابٍ ، أَوْ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُطَالَعَ ، مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ مَا كَانَ فِي الْعُصُورِ الْمَاضِيَةِ ، مِنْ أَعْمَالِ أَفْرَادٍ دَوَى ذِكْرُهُمْ ، وَعَظُمَ شَأْنُهُمْ ، لَا يُشْبِهُ مَا هُوَ الْيَوْمَ صَانِعٌ وَلَا يُقَارَنُ بِمَا هُوَ الْيَوْمَ

مُحاوِلٌ ، وَأَنَّ الحاضِرَ هَيْهَاتَ أَنْ يَبْلُغَ مَا بَلَغَهُ الْمَاضِى بِأَحْدَاثِهِ[1] وَعَظَائِمِهِ .

* * *

ثقافة العالم للفرد

إِنَّ الْعَالَمَ لَمْ يُوجَدْ إِلاَّ لِتَرْبِيَةِ كُلِّ فَرْدٍ وَتَهْذِيبِهِ ، وَتَعْلِيمِهِ وَتَأْدِيبِهِ ، فَمَا مِنْ عَصْرٍ وَلاَ جِيلٍ ، وَلاَ حَالَةٍ مِنْ حَالاَتِ الْمُجْتَمَعِ ، فِى سَالِفِ الزَّمَنِ وَمَاضِيهِ ، وَمَا مِنْ وَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ الْعَمَلِ ، وَلاَ حَادِثٍ مِنَ الْحَوَادِثِ الْمُدَوَّنَةِ فِى التَّارِيخِ ، إِلاَّ وَاجِدَةٌ مُقَابِلَهَا أَوْ شَبِيهَهَا وَنَظِيرَهَا ، فِى حَيَاةِ الْإِنْسَانِ الْيَوْمَ وَحَاضِرِهِ ، وَإِنَّ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّمَا يَخْتَزِلُ نَفْسَهُ ، وَيُتَقَدَّمُ إِلَيْهِ بِخُلاَصَةِ فَضِيلَتِهِ ،

(١) جمع حدث . وهو الأمر الخطير .

وَصُورَةِ مَزَايَاهُ ، وَحِكْمَتِهِ ، فَلَيْسَ عَلَى الْفَرْدِ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّ فِي وُسْعِهِ أَنْ يَعِيشَ مَدَى التَّارِيخِ كُلِّهِ فِي دَائِرَةِ حَيَاتِهِ ، وَيُطَبِّقَ التَّارِيخَ بِجُمْلَتِهِ عَلَى أُفُقِهِ الْمَحْدُودِ فِي ذَاتِهِ ، لَيْسَ عَلَيْهِ إِلاَّ أَنْ يَجْلِسَ فِي دَارِهِ فَيَفْتَحَ كُتُبَ التَّارِيخِ ، غَيْرَ حَافِلٍ بِقِصَصِ الْمُلُوكِ وَالْأَقْيَالِ[1] ، وَالسَّلاَطِينِ وَالدَّهَاقِينِ[2] وَلاَ عَابِئٍ بِتَوَارِيخِ الدُّوَلِ وَالْمَمَالِكِ ، وَالْإِمْبَرَاطُورِيَّاتِ الْفَسَاحِ الْأَرْجَاءِ ، وَلاَ نَاظِرٍ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ مُتَضَائِلاً مُنْزَوِيًا ، مُسْتَصْغِرًا شَأْنَهُ بِالنِّسْبَةِ لِشَأْنِهِمْ ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُدْرِكَ أَنَّهُ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ الْجُغْرَافِيَا ، وَمِنْ كُلِّ حُكُومَاتِ الْعَالَمِ فِي التَّارِيخِ وَدُوَلِهِ ، وَأَنْ يَنْقُلَ

(١) جمع قيل . وهم ملوك حمير وقيل الرئيس دون الملك .
(٢) الدهاقين : جمع دهقان ، وهو زعيم فلاحي العجم ورئيس الاقليم .

وِجْهَةَ النَّظَرِ ، الَّتِي يُطَالِعُ[1] النَّاسَ مِنْهَا التَّارِيخُ عَادَةً مِنْ رُومَةَ ، وَأَتِينَا وَلَنْدَنَ إِلَى نَفْسِهِ هُوَ ، وَرَأْيِهِ وَحُكْمِهِ وَوِجْهَةِ نَظَرِهِ .

وَلَا يُنْكِرَنَّ عَلَى نَفْسِهِ حَقَّهُ كَقَاضٍ ، وَالْعَالَمُ بِمَاضِيهِ كُلِّهِ مُحْتَكِمٌ إِلَيْهِ بَلْ لِيُؤْمِنَنَّ بِهَذَا الْحَقِّ كُلَّ الْإِيمَانِ . وَإِذَا كَانَ عِنْدَ انْجِلْتِرَا ، أَوْ عِنْدَ مِصْرَ الْقَدِيمَةِ شَيْءٌ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَهُ ، فَسَوْفَ يَنْظُرُ فِيهِ ، وَيُرَاجِعُ الْقَضِيَّةَ بِسَبِيلِهِ ، وَيَحْكُمُ بِرَأْيِهِ فِيمَا تَقَدَّمَ إِلَيْهِ ، وَإِلَّا فَلْتَسْكُتْ ، وَلْتَلْتَزِمِ الصَّمْتَ أَمَامَهُ ، لِيُدْلِيَ بِحُكْمِهِ فِي الْقَضِيَّةِ وَقَرَارِهِ .

* * *

نابليون والتاريخ

لَقَدْ قَالَ نَابُولْيُونُ : « مَا هُوَ التَّارِيخُ ؟ لَعَمْرُكُمْ

(١) يطالع : يكشف عنها

إِنْ هُوَ إِلاَّ خُرَافَةٌ اصْطُلِحَ عَلَيْهَا » وَفِى الْوَاقِعِ أَنَّ حَيَاتَنَا هَذِهِ لتَحُفُّ[1] بِهَا مِصْرُ وَالْيُونَانُ وَالْغَالُ ، وَانْجِلْتِرَا وَالْحَرْبُ وَالاِسْتِعْمَارُ ، وَالْكَنِيسَةُ وَالْقَضَاءُ وَالتِّجَارَةُ . كَمَا تَحُفُّ عَدِيدُ الْأَزَاهِرِ وَمُخْتَلَفُ الزِّينَاتِ ، بَيْنَ رَهِيبٍ وَمُفْرِحٍ ، وَحَزِينٍ وَسَارٍّ ، وَقَاتِمٍ وَأَزْهَرَ ، وَمُجَلَّلٍ[1] وَفَاتِحِ الْأَلْوَانِ ، وَلاَ يَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ لَهَا أَكْثَرُ مِنْ هَذَا الْحِسَابِ عِنْدِى ، وَلاَ أَكْبَرُ مِنْ هَذَا الْمِقْدَارِ ، لِأَنَّنِى أُومِنُ بِالْأَبَدِيَّةِ ، وَفِى إِمْكَانِى أَنْ أَجِدَ الْيُونَانَ وَآسِيَا ، وَإِيطَالِيَا وَأَسْبَانِيَا وَالْجُزُرَ ، بَلْ فِى وُسْعِى أَنْ أَجِدَ رُوحَ كُلٍّ مِنْهَا وَعَبْقَرِيَّتَهُ وَنَوَازِعَ[2] نُمُوِّهِ ، وَمَبَادِئَ تَطَوُّرَاتِهِ ،

(١) لتحف بها مصر الخ : أى تحيط بها . من باب نصر .

(١) المجلل : ذو الجل ، وهو الياسمين ، والورد أحمره وأبيضه وأصفره .

(٢) نوازع : جمع نازعة : وهى العوامل ذات الأثر فى مبدأ الحياة والتكوين

بَلْ فِي مَيْسُورِي أَنْ أَجِدَ رُوحَ الْعُصُورِ جَمِيعاً وَحَوَافِزَهَا وَدَوَافِعَهَا ، فِي أَعْمَاقِ خَاطِرِي نَفْسِهِ وَلُبِّ مَشَاعِرِي ، وَأَغْوَارِ[1] عَقْلِي وَإِدْرَاكِي ، وَنَحْنُ فِي الْوَاقِعِ نَلْمَسُ دَائِماً كُلَّ حَقَائِقِ التَّارِيخِ فِي تَجَارِبِنَا الْخَاصَّةِ وَمُشَاهَدَاتِنَا ، حَتَّى لاَ وُجُودَ لِلتَّارِيخِ بِالْمَعْنَى الصَّحِيحِ لِلْكَلِمَةِ وَإِنَّمَا تُوجَدُ الْبِيُوجْرَافِيَا أَيِ التَّرَاجِمُ وَسِيَرُ الْعُظَمَاءِ ، أَوْ حَيَاةُ الْفَرْدِ فَحَسْبُ . فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ امْرِئٍ أَنْ يَعْرِفَ الدَّرْسَ كُلَّهُ لِنَفْسِهِ ، وَيُدْرِكَ الْعِبْرَةَ بِجُمْلَتِهَا لِذَاتِهِ ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يُعَايِنَ الْأَرْضَ ، وَيَتَفَقَّدَهَا وَحْدَهُ ، وَيُفَتِّشَهَا وَيُنَقِّبَهَا[2] بِمُفْرَدِهِ ، فَمَا لاَ يَرَاهُ وَمَا لاَ يَتَحَقَّقُهُ لاَ يُقْرِئُهُ وَلاَ يُبَالِيهِ[3] .

(١) أغوار : جمع غوْر : وهو القاع من كل شيء وداخله ، والمراد بواطن العقل ، وقوى إدراكه . (٢) التنقيب : البحث والتفتيش
(٣) أي يبالي به ، حذف الجار فاتصل الضمير .

*
* *

كيف ننظر الى التاريخ

يَجِبُ أَنْ نَنْظُرَ إِلَى التَّارِيخِ عَلَى هَذَا الِاعْتِبَارِ ، وَإِلَّا فَلَا مَعْنَى لِلتَّارِيخِ وَلَا وُجُودَ ، إِنَّ كُلَّ قَانُونٍ تَضَعُهُ الدَّوْلَةُ يُشِيرُ إِلَى حَقِيقَةٍ فِي الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، فَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُبْصِرَ فِي أَنْفُسِنَا مَنْطِقَ كُلِّ حَقِيقَةٍ ، وَبَاعِثَهَا وَضَرُورَتَهَا . بَلْ هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ نَقِفَ حِيَالَ كُلِّ جِيلٍ ، وَقُبَالَةَ[1] كُلِّ عَمَلٍ ، وَإِزَاءَ كُلِّ حَادِثٍ ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ خُطْبَةً مِنْ خَطِيبٍ كَبِيرٍ أَمِ انْتِصَارَةً مِنِ انْتِصَارَاتِ « نَابُولْيُونَ » ، أَمْ تَضْحِيَةً مِنْ تَضْحِيَاتِ الشُّهَدَاءِ ، كَسِيرْ تُومَاسْ مُورْ ، أَوْ م . سِدْنِي ، أَوْ م . رُوبِنْصُونْ ، بَلْ سَوَاءٌ أَكَانَ

(١) قبالة : أى تجاه

ذَلِكَ أَمَامَ ثَوْرَةٍ فَرَنْسِيَّةٍ ، أَمْ حُكْمِ إِرْهَابٍ ، أَمْ إِعْدَامِ سَحَرَةٍ ، أَمِ اضْطِهَادٍ دِينِيٍّ . وَلْيَكُنِ اعْتِقَادُنَا إِزَاءَ كُلِّ هَذَا وَنَظَائِرِهِ أَنَّنَا لَوْ كُنَّا تَحْتَ التَّأْثِيرِ ذَاتِهِ ، لَتَأَثَّرْنَا تَأَثُّرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَتَصَرَّفْنَا كَمَا تَصَرَّفُوا ، وَفَعَلْنَا مِثْلَ الَّذِى فَعَلُوا ، بَلْ لِنَجْعَلْ غَرَضَنَا ، أَنْ نَقْتَفِيَ الْأَثَرَ ذَاتَهُ . فَإِمَّا أَنْ نَبْلُغَ الشَّأْوَ الرَّفِيعَ الَّذِى بَلَغُوا ، أَوْ نَهْوِيَ إِلَى الدَّرْكِ الَّذِى هَوَوْا إِلَيْهِ .

* * *

كشف ماخبأه التاريخ

إِنَّ كُلَّ بَحْثٍ فِى التَّارِيخِ ، أَوْ كُلَّ فُضُولٍ لِاسْتِطْلَاعِ سِرِّ الْأَهْرَامِ ، وَكَشْفِ دَفَائِنِ الْآثَارِ ، وَحَفْرِ الْحَفَائِرِ ، هُوَ الرَّغْبَةُ فِى مَحْوِ لَفْظَةِ « هُنَاكَ »

وَكَلِمَةِ « حِينَذَاكَ » وَاسْتِبْدَالِهِمَا بِلَفْظَتَيْ « هُنَا ، وَالآنَ » وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ الأَثَرِيِّينَ لَيَحْفِرُونَ الأَرْضَ ، وَيَتَفَحَّصُونَ أَهْرَامَ طِيبَةَ ، حَتَّى يُدْرِكُوا نِهَايَةَ الْفَرْقِ بَيْنَ ذَلِكَ الْعَمَلِ الرَّهِيبِ ، الْمُخِيفِ الضَّخْمِ الْعَظِيمِ ، وَبَيْنَ الإِنْسَانِ الْحَاضِرِ ، أَوْ بَيْنَ الْقُدَمَاءِ وَبَيْنَ أَنْفُسِهِمْ هُمْ ، وَبَنِي عَصْرِهِمْ وَجِيلِهِمْ . ويَوْمَ يَقْتَنِعُ الْعَالِمُ الأَثَرِيُّ عَامَّةً وَتَفْصِيلًا ، وَإِجْمَالًا وَتَحْدِيدًا ، أَنَّ ذَلِكَ الأَثَرَ أَوِ الْهَيْكَلَ ، أَوِ الْبِنَاءَ أَوِ التِّمْثَالَ ، إِنَّمَا صَنَعَهُ فُلَانٌ فِي الْعَصْرِ الْفُلَانِيِّ ، وَهُوَ إِنْسَانٌ مِثْلُهُ ، كَانَ لَهُ نَفْسُ أَسْلِحَتِهِ وَوَسَائِلِهِ ، وَفِي نَفْسِهِ ذَاتُ دَوَافِعِهِ ، وَبَدَاعَتِهِ[1] وَحَوَافِزِهِ .

(١) البداعة : ما كان مخترعا على غير مثال سابق .

وَلِلْغَايَةِ بِعَيْنِهَا ، الَّتِى كَانَ هُوَ كَذَلِكَ مُحَاوِلا الْعَمَلَ لَهَا ، وَالسَّعْىَ فِى تَحْقِيقِهَا ، وَالْمُضِىَّ نَحْوَهَا ، نَعَمْ . يَوْمَ يَقْتَنِعُ الْإِنْسَانُ الْحَاضِرُ بِهَذَا كُلِّهِ ، وَيُؤْمِنُ بِهِ ، فَقَدِ انْحَلَّتِ الْمُشْكِلَةُ ، وَأَصْبَحَ وَكَأَنَّهُ يَعِيشُ فِى التَّارِيخِ كُلِّهِ ، وَتَتَّصِلُ حَيَاتُهُ بِكُلِّ الْمَعَابِدِ فِيهِ ، وَالْهَيَاكِلِ وَالتَّمَاثِيلِ وَالتَّهَاوِيلِ ، وَالْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ ، وَيَمُرُّ بِهَا جَمِيعاً ، وَيَخْتَرِقُهَا اخْتِرَاقاً ، بَلْ كَأَنَّهَا هِىَ الْأُخْرَى حَيَّةٌ عَائِشَةٌ قَائِمَةٌ فِى الْخَاطِرِ ، مَاثِلَةٌ الآنَ مُثُولاً .

* * *

التفاوت فى النظر

إِنَّ كُلَّ الْفَرْقِ بَيْنَ بَعْضِ النَّاسِ وَبَعْضٍ ، أَوْ بَيْنَ مُخْتَلَفِ الْأُمَمِ وَالْجَمَاعَاتِ ، هُوَ مِنْ حَيْثُ

الْمَبْدَأُ ، الَّذِى يَتَّبِعُونَهُ فِى نَظَرِهِمْ إِلَى الْأَشْيَاءِ وَالْحُكْمِ عَلَيْهَا ، فَمِنْهُمْ فَرِيقٌ يُمَيِّزُونَ الْأَشْيَاءَ حَسَبَ أَلْوَانِهَا وَحُجُومِهَا ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَالِمِ ظَوَاهِرِهَا وَسُطُوحِهَا ، وَمِنْهُمْ آخَرُونَ يَفْرِقُونَ بَيْنَهَا بِحَسَبِ قِيَمِهَا الْجَوْهَرِيَّةِ ، وَأَقْدَارِهَا فِى ذَاتِهَا ، أَوْ مِنْ حَيْثُ صِلَتُهَا بِالْعِلَّةِ وَالْمَعْلُولِ ، وَلَيْسَ نُمُوُّ الذِّهْنِ ، وَلاَ تَقَدُّمُ الْعَقْلِ ، إِلاَّ وَلِيدَ النَّظَرِ إِلَى الْعِلَلِ ، وَالتَّغَلْغُلِ[1] إِلَى الْأَسْبَابِ ، بِغَضِّ الْبَصَرِ عَنِ الْفُرُوقِ السَّطْحِيَّةِ ، وَالْخَوَاصِّ الظَّاهِرَةِ ، وَفِى عَيْنِ الشَّاعِرِ ، وَالْفَيْلَسُوفِ ، وَالْعَالِمِ الدِّينِىِّ ، كُلُّ الْأَشْيَاءِ تَلُوحُ مُحَبَّبَةً مُقَدَّسَةً ، وَكُلُّ الْحَوَادِثِ تَبْدُو

(١) التغلغل فى الشىء : الدخول فيه على تعب ومشقة .

نَافِعَةً صَالِحَةً . وَكُلُّ الْأَيَّامِ طَيِّبَاتٍ مُبَارَكَةً ، وَكُلُّ الْخَلْقِ وَالنَّاسِ أَطْهَاراً بَرَرَةً أَخْيَاراً ، لِأَنَّ الْعَيْنَ إِنَّمَا تَسْتَقِرُّ عَلَى الْحَيَاةِ ، وَلَا تَعْبَأُ بِالظُّرُوفِ . وَإِنَّ كُلَّ مَادَّةٍ كِيمَائِيَّةٍ ، وَكُلَّ نَبَاتٍ ، وَكُلَّ حَيَوَانٍ فِي سَيْرِ نُمُوِّهِ ، إِنَّمَا يُعَلِّمُنَا وَحْدَةَ الْعِلَّةِ ، وَاخْتِلَافَ الظَّوَاهِرِ وَأَسْطِحَةِ الْأَشْيَاءِ ، فَإِذَا كُنَّا نَعِيشُ فِي مُحِيطٍ تَكْتَنِفُهُ الطَّبِيعَةُ الْخَلَّاقَةُ فِي مُخْتَلَفِ مَظَاهِرِهَا ، فَلِمَاذَا ؟ وَأَيَّةُ ضَرُورَةٍ تَدْعُونَا إِلَى أَنْ نَكُونَ الْأَغْبِيَاءَ الْحُمْقَى[1] ، فَنُعَظِّمَ أَشْكَالًا مُعَيَّنَةً ، وَنُجَسِّمَ وَنُضَخِّمَ أَشْيَاءَ بِالذَّاتِ دُونَ سِوَاهَا . وَلِمَاذَا نَحْسِبُ حِسَاباً لِلشَّكْلِ وَالْهَيْئَةِ ، وَالْمَظْهَرِ وَالصُّورَةِ ، مَعَ أَنَّ

(١) الحمق : جمع أحمق وهو قليل العقل ، أو من لا عقل له .

النَّفْسَ لَا تَعْرِفُ هَـذِهِ الْفُرُوقَ ، وَالْعَقْلَ السَّلِيمَ يَلْهُو بِهَا لَهْوَ الْوَلِيدِ بِلِحْيَةِ الشَّيْخِ ، بَلْ إِنَّ الْعَقْلَ السَّلِيمَ ، لَيَدْرُسُ الْفِكْرَةَ السَّبَبِيَّةَ ، وَيَكْشِفُ مِنْ صَمِيمِ الْأَشْيَاءِ وَجَوْهِهَا ، الْأَشِعَّةَ وَالْخُيُوطَ الْمُنْبَعِثَةَ مِنْ كُلِّ قُرْصٍ ، الْمُنْبَثِقَةَ مِنْ كُلِّ فَلَكٍ وَمَدَارِهِ ، وَالَّتِي تَنْعَكِسُ وَتَتَوَزَّعُ[1] ، وَتَتَشَعَّبُ كُلَّمَا سَقَطَتْ ، كَأَنَّمَا وَقَعَتْ عَلَى أَقْطَارِ دَوَائِرَ لَا حَدَّ لَهَا وَلَا حَصْرَ ، وَإِنَّ الْعَقْلَ السَّلِيمَ لَيُرَاقِبُ تَطَوُّرَاتِهِ وَرِحْلَاتِهِ عَبْرَ[2] الزَّمَانِ فِي مُخْتَلَفِ أَلْثِمَتِهِ[3] وَقُنُعِهِ ، وَعَدِيدِ

(١) تتوزع : تتفرق . (٢) عبر الزمان : مصدر استعمل ظرفا لاضافته إليه ، أى مدة قطع الزمان (٣) ألثمته : جمع لثام ، وقنعه جمع قناع : واللثام ، ما كان على الفم من النقاب ، والقناع : ما تقنع به المرأة رأسها أى تغطى . والمراد غواشى الزمان وحجب الحوادث .

مُسْتَغْشَاهُ وَمُسْتَخْفَاهُ ، وَهُوَ يَدْرُسُ أَفَاعِيلَ الطَّبِيعَةِ وَأَطْوَارَهَا الْمُتَعَاقِبَةَ . وَهُوَ — أَيِ الْعَقْلُ السَّلِيمُ — لَيَسْتَشِفُّ[1] مِنْ غِلَالِ الذُّبَابَةِ ، وَالدُّودَةِ وَالْعَلَقَةِ وَالْبَيْضَةِ ، الْفَرْدَ الدَّائِمَ لاَ انْقِطَاعَ لِتَوَلُّدِهِ ، وَفَقْسِهِ وَانْبِعَاثِهِ وَظُهُورِهِ ، كَمَا يَسْتَشِفُّ مِنَ الْأَفْرَادِ الَّذِينَ لاَ عِدَادَ لَهُمْ ، النَّوْعَ الْمُعَيَّنَ وَالْفَصِيلَةَ الثَّابِتَةَ ، وَالْجِنْسَ الْمَحْدُودَ ، كَمَا يَسْتَشِفُّ مِنْ خِلَالِ النَّوْعِ وَالْفَصِيلَةِ وَالْجِنْسِ ، الْأَصْلَ وَالْبِدَايَةَ ، وَمِنْ خِلَالِ سَائِرِ عَوَالِمِ الْحَيَاةِ الْمُنْتَظِمَةِ . الْوَحْدَةَ الْأَبَدِيَّةَ ،

* * *

تطور الطبيعة

وَإِنَّ الطَّبِيعَةَ لَكَالسَّحَابَةِ الْمُتَقَلِّبَةِ الْحُوَلِ[2] الْمُتَغَيِّرَةِ

(١) يستشف الخ : ينظر ما وراءه ويتبينه . وغلال الذبابة : الأغشية الرقيقة التي تغطي جسمها . (٢) كثيرة التحول .

لاَ تَتَشَابَه يَوْمًا ، وَلَا تَثْبتُ عَلَى حَالٍ ، وَلاَ تَسْتَقِرُّ عَلَى شَأْنٍ ، وَإِنَّمَا تَصُبُّ الْفِكْرَةَ الْوَاحِدَةَ فِى عَدَدٍ عَدِيدٍ مِنَ الْأَشْكَالِ ، كَمَا يَصْطَنِعُ الشَّاعِرُ بِمَغْزًى وَاحِدٍ عِشْرِينَ نَادِرَةً وَنَادِرَةً ، وَهَـذَا هُوَ بِالذَّاتِ مَا يُشَاهَدُ فِى التَّارِيخِ ، وَيَتَمَثَّلُ فِيهِ ، فَعَلَى الظَّاهِرِ مِنْهُ تَبَايُنٌ لاَ حَدَّ لَهُ ، وَلَـكِنْ فِى جَوْهَرِهِ وَمَرْكَزِهِ وَلُبَابِهِ ، تَبْدُو بَسَاطَةُ السَّبَبِيَّةِ بِكُلِّ مَعَانِيهَا ، فَكَمْ مِنْ أَعْمَالٍ وَفِعَالٍ لِلْإِنْسَانِ ، تَنْجَلِى خِلَالَهَا عَلَى تَنَوُّعِهَا الظَّاهِرِ ، شَخْصِيَّتُهُ الْوَاحِدَةُ ، وَخَلِيقَتُهُ ذَاتُهَا ؟

* * *

العبقرية الاغريقية

إِلَيْكَ مَثَلَ الْعَبْقَرِيَّةِ الْإِغْرِيقِيَّةِ ، فَلَدَيْنَا لِذَلِكَ الشَّعْبِ التَّارِيخُ الْمَدَنِىُّ ، نَسْتَقِيهِ مِنْ رِوَايَاتِ

هِيرُودُونَ ، وَتُيُوسُودِيدَ ، وَزِنُيوفُدنَ ، وَفُلُوطَارْفِسَ . فَإِنَّ ذَلِكَ وَحْدَهُ كَافٍ لِنَعْرِفَ مِنْهُ ، أَىَّ شَعْبٍ كَانَ أُولَئِكَ الْإِغْرِيقُ ؟ وَأَىَّ فِعَالٍ فَعَلُوا ؟ ثُمَّ لَدَيْنَا فِى الْوَقْتِ ذَاتِهِ تَارِيخُهُمُ الْأَدَبِىُّ ، كَمَا يَبْدُو فِى مُطَوَّلَاتِ أَشْعَارِهِمْ ، وَمَلَاحِمِ (١) قَصَائِدِهِمْ ، وَغِنَائِىِّ أَبْيَاتِهِمْ ، وَمَسْرَحِيَّاتِهِمْ (٢) وَفَلْسَفَتِهِمْ ، وَذَلِكَ أَيْضًا يَكْشِفُ لَنَا الْعَقْلِيَّةَ ذَاتَهَا ، وَالصِّفَاتِ وَالْمَزَايَا الْقَوْمِيَّةَ بِعَيْنِهَا ، فِى شَكْلٍ تَامٍّ ، وَنَاحِيَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ ، وَقَالَبٍ مُنْفَرِدٍ مُكْتَمِلٍ ، وَلَا يَزَالُ يَبْدُو ذَلِكَ كُلُّهُ فِى نَاحِيَةٍ أُخْرَى مِنْ حَضَارَتِهِمْ ، وَهِىَ نَاحِيَةُ الْعِمَارَةِ ، أَوْ فَنُّ الْبِنَاءِ ، فَإِنَّ هُنَا جَمَالًا يُوحِى إِلَى النَّفْسِ فِكْرَةَ

(١) ملاحم : جمع ملحمة ، والمراد بها منظوماتهم فى ذكر الملاحم والوقائع العظيمة ، كالالياذة والأودسا . (٢) مسرحياتهم : الروايات التى تمثل على المسارح .

الاِعْتِدَالِ ، وَالْبَسَاطَةِ الْمُنْحَصِرَةِ فِي الْخَطِّ الْمُسْتَقِيمِ ، وَالشَّكْلِ الْمُرَبَّعِ ، وَبِجَانِبِ هَذَا نَاحِيَةٌ رَابِعَةٌ ، تَتَجَلَّى فِيهَا تِلْكَ الْعَقْلِيَّةُ بِالذَّاتِ ، وَإِنِ اخْتَلَفَ الشَّكْلُ ، وَتَبَايَنَ الْمَظْهَرُ ، وَهِيَ نَاحِيَةُ النَّحْتِ ، وَصِنَاعَةُ التَّمَاثِيلِ ، فَإِنَّ الْبَسَاطَةَ الطَّبِيعِيَّةَ بَادِيَةٌ عَلَيْهَا ، حَتَّى أَنَّهَا لَوْ أُعْطِيَتْ لِسَانًا لَنَطَقَتْ .

* * *

مظاهر العبقرية

وَهَكَذَا تَجِدُ أَنَّ لَدَيْنَا بِسَبِيلِ مَظَاهِرِ عَبْقَرِيَّةِ شَعْبٍ وَاحِدٍ ، أَرْبَعَةَ وُجُوهٍ تُصَوِّرُهَا مِنْ جِهَاتِهَا ، فِي أَشْكَالٍ وَقَوَالِبَ ، وَصِيَغٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، وَهِيَ وَاحِدَةٌ مِنْ حَيْثُ الْفِكْرَةُ ، وَالْمُنْبَعَثُ وَالْمَنْزَعُ وَالْمُتَّجَهُ فِي الْجَمِيعِ ، وَهَذَا هُوَ مَا يُثْبِتُ ذَهَابَنَا إِلَى أَنَّ

الطَّبِيعَةَ هِيَ دَائِمًا تَكْرَارٌ لِبِضْعَةِ نَوَامِيسَ ، وَتَرْدِيدٌ لِمَجْمُوعَةِ قَوَانِينَ ، كَأَنَّمَا تُغَنِّي أُلُوفًا مِنَ الْأَلْحَانِ ، بِبِضْعَةِ أَنْغَامٍ ، وَهِيَ أَبَدًا مَلْأَى بِوُجُوهٍ لَا عَدَّ لَهَا ، مِنَ التَّشَابُهِ وَالتَّمَاثُلِ فِي جَمِيعِ مَظَاهِرِ عَمَلِهَا ، وَكَأَنَّمَا يَلَذُّ لَهَا أَنْ تُقَاضِينَا بِالشَّيْءِ الْوَاحِدِ مُكَرَّرًا تَكْرَارًا خَفِيًّا مِنْ نَاحِيَةٍ لَمْ تَكُنْ مُتَوَقَّعَةً ، وَأَمْرٍ لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ[1] .

* * *

أصلية تاريخ الفرد

إِنَّ التَّارِيخَ الْاِجْتِمَاعِيَّ ، وَالتَّارِيخَ الطَّبِيعِيَّ ، بَلْ تَارِيخَ الْفُنُونِ وَالْآدَابِ ، كُلُّ أُولَئِكَ يَنْبَغِي أَنْ تُشْرَحَ وَتُفَسَّرَ مِنْ نَاحِيَةِ التَّارِيخِ الْفَرْدِيِّ ، أَيْ

(١) الحسبان : بكسر الحاء ، الظن .

تَارِيخِ الْإِنْسَانِ كَفَرْدٍ ، وَإِلاَّ ظَلَّ التَارِيخُ مُجَرَّدَ كَلاَمٍ وَأَلْفَاظٍ ، إِذْ لاَ شَيْءَ فِى هَذَا الْعَالَمِ إِلاَّ وَهُوَ مُنْتَسِبٌ إِلَيْنَا ، مُتَّصِلٌ بِنَا ، وَجَمِيعُ أُصُولِ الْأَشْيَاءِ هِىَ فِى الْإِنْسَانِ . وَمَا الْقَصِيدَةُ الصَّادِقَةُ إِلاَّ عَقْلُ الشَّاعِرِ الَّذِى وَصَفَهَا ، وَالسَّفِينَةُ الْكَامِلَةُ فِى مَعْنَى السَّفْنِ[1] إِلَّا مَظْهَرُ رُوحِ الْبَنَّاءِ الَّذِى صَنَعَهَا ، وَنَفْسِيَّتِهِ وَتَكْوِينِ عَقْلِهِ ، وَنِظَامِ خَاطِرِهِ . وَلَوِ اسْتَطَعْنَا أَنْ نُجَرِّدَ الْإِنْسَانَ وَنُعَرِّيَهُ وَنُبْدِيَهُ خَالِصًا عَلَى حَقِيقَتِهِ ، لَرَأَيْنَا فِيهِ ، أَوْ فِى أَعْمَاقِ فِكْرِهِ وَعَقْلِهِ ، وَشُعُورِهِ وَحِسِّهِ ، أَثَرَ الْبَاعِثِ لَهُ عَلَى تَشْكِيلِ عَمَلِهِ ، فِى الشَّكْلِ الْمُعَيَّنِ الَّذِى بَدَا بِهِ ، وَإِفْرَاغِهِ فِى الْقَالَبِ الْأَخِيرِ الَّذِى

(١) السَّفْن : صُنع السفينة . —

صُبَّ فِيهِ. كَمَا أَنَّ كُلَّ فَقَارٍ[١] أَوْ لَوْنٍ فِي الصَّدَفَةِ أَوِ الْمَحَارَةِ الْبَحْرِيَّةِ، كَانَتْ مِنْ قَبْلُ مَوْجُودَةً فِي الْأَعْضَاءِ الْمُفْرِزَةِ، الَّتِي تَكَوَّنَتْ فِي السَّمَكَةِ، بَلْ إِنَّ كُلَّ تَارِيخِ الْفُرُوسِيَّةِ فِي الْعَالَمِ، وَعُصُورَ الشَّهَامَةِ وَالنَّجْدَةِ، مُتَمَثِّلٌ فِي أَدَبِ التَّحِيَّةِ وَاللِّيَاقَةِ[٢]، الَّتِي اصْطَلَحْنَا نَحْنُ عَلَيْهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ الْمُؤَدَّبَ الْيَوْمَ، لَيَنْطِقُ بِاسْمِكَ فِي كُلِّ الِاحْتِرَامِ وَالتَّجْمِيلِ وَالتَّحْلِيَةِ، الَّتِي كَانَ فِي وُسْعِ آدَابِ الْفُرُوسِيَّةِ فِي الْعُصُورِ الْمَاضِيَةِ أَنْ تُضِيفَهَا إِلَيْهِ، وَتَجْعَلَهَا تَذْيِيلًا لَهُ.

وَلَوْ رَدَدْنَا جَمِيعَ الْوَقَائِعِ وَالْحَوَادِثِ وَالْحَقَائِقِ إِلَى هَذَا الْمَرَدِّ، وَأَرْجَعْنَاهَا مِنْ عُمُومِيَّتِهَا إِلَى مُنْبَعِثِهَا

(١) الفقار: ما تنضد من عظام الصلب من لدن الكاهل إلى العجب، وهو خرزات الظهر، واحده فقارة (٢) عمل ما يليق من التقاليد المصطلح عليها

الْأَصْلِيِّ فِي الْفَرْدِ ، لَأَصْبَحَ التَّارِيخُ بِذَلِكَ صَحِيحًا صَادِقًا وَأَضْحَتْ الْبِيُوجْرَافِيَا — أَيْ تَرْجَمَةُ حَيَاةِ الْفَرْدِ — رَائِعَةً عَمِيقَةً جَلِيلَةَ الْقَدْرِ .

* * *

الحضارة اليونانية القديمة

وَنَحْنُ نَعْجَبُ عَادَةً لِاحْتِفَالِ النَّاسِ ، بِدِرَاسَةِ تَارِيخِ الْإِغْرِيقِ ، وَتَفْضِيلِ اسْتِذْكَارِهِ عَلَى سِوَاهُ ، وَنَتَسَاءَلُ عَنْ سِرِّ هَذِهِ الْعِنَايَةِ الْخَاصَّةِ بِالْحَضَارَةِ الْيُونَانِيَّةِ الْقَدِيمَةِ ، مِنْ حَيْثُ آدَابُهَا وَفُنُونُهَا ، وَفِي كُلِّ مَرَاحِلِهَا وَأَدْوَارِهَا . مِنْ عَصْرِ الْبُطُولَةِ أَوِ الْعَصْرِ الْهُومَرِيِّ ، إِلَى الْحَيَاةِ الْوَادِعَةِ الْمَنْزِلِيَّةِ السَّاجِيَةِ[1]

(١) الساجية : الساكنة الهادئة .

فِي أَثِينَا وَإِسْبَارْطَةَ ، بَعْدَ ذَلِكَ الْعَصْرِ الْبُطُولِيِّ بِأَرْبَعَةِ أَوْ خَمْسَةِ قُرُونٍ ؟

وَلَكِنَّ سِرَّ ذَلِكَ وَبَاعِثَهُ ، هُوَ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنَّا ، يَمُرُّ شَخْصِيًّا فِي نَفْسِ ذَلِكَ التَّارِيخِ ، وَيَقْطَعُهُ بِشُعُورِهِ قَطْعًا ، وَيَخْتَرِقُهُ بِحِسِّهِ وَنُزُوعِهِ الْفِطْرِيِّ اخْتِرَاقًا ، فَقَدْ كَانَتِ الدَّوْلَةُ الْإِغْرِيقِيَّةُ هِيَ عَهْدَ الطَّبِيعَةِ الْبَدَنِيَّةِ ، عَهْدَ اسْتِكْمَالِ الْحَوَاسِّ ، عَهْدَ امْتِزَاجِ النَّفْسِ وَالْبَدَنِ فِي وَحْدَةٍ وَثِيقَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَفِي الْحَيَاةِ الْيُونَانِيَّةِ الْقَدِيمَةِ وُجِدَتْ تِلْكَ الْأَشْكَالُ الْإِنْسَانِيَّةُ ، الَّتِي أَمَدَّتِ الْمُثَّالَ بِنَمَاذِجِ هِرَقْلَ ، وَغَيْرِهِ مِنْ غَرَائِبِ الدُّمَى ، وَبَدَائِعِ التَّمَاثِيلِ .

لَقَدْ كَانَتْ آدَابُ النَّاسِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ ، آدَابَ

الْبَسَاطَةِ وَالْعِزَّةِ مُجْتَمِعَتَيْنِ ، وَكَانَ الاِحْتِرَامُ الْعَامُّ هُوَ لِلصِّفَاتِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَالْمَزَايَا الْفَرْدِيَّةِ ، مِنْ شَجَاعَةٍ وَبَسَالَةٍ وَأَدَبِ خِطَابٍ ، وَضَبْطِ نَفْسٍ ، وَعَدْلٍ ، وَشِدَّةِ بَأْسٍ ، وَخِفَّةٍ ، وَسُرْعَةٍ ، وَجَهَارَةِ صَوْتٍ ، وَعَرَاضَةِ صَدْرٍ ، وَمَنَاكِبَ وَأَكْتَافٍ ، وَلَمْ يَكُنِ التَّرَفُ مَعْرُوفًا ، وَلاَ الطَّرَاوَةُ[1] فِي الْأَخْلاَقِ .

* * *

الاعتماد على النفس

إِنَّ تَفَرُّقَ السُّكَّانِ أَشْتَاتًا ، وَدَافِعَ الْحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ ، هُمَا اللَّذَانِ يَجْعَلاَنِ كُلَّ فَرْدٍ فِي الْمُجْتَمَعِ خَادِمَ نَفْسِهِ وَطَاهِيَهَا ، وَجَزَّارَهَا وَبَدَّالَهَا ، وَجُنْدِيَّهَا وَمُحَارِبَهَا ، وَإِنَّ كَفَالَةَ الْفَرْدِ حَاجَاتِهِ بِنَفْسِهِ ، هِيَ

(١) طراوة الأخلاق : قربها من أخلاق النساء لفرط لينها .

الَّتِي تُرَبِّيهِ ، وَتَشُدُّ بَدَنَهُ ، وَتُعِينُهُ عَلَى أَدَاءِ أَكْبَرِ الْفِعَالِ ، وَتُغْرِيهِ بِعَظَائِمِ الْأُمُورِ — وَكَذَلِكَ كَانَ النَّاسُ كَمَا وَصَفَهُمْ « هُومِيرُوسُ » بَلْ كَذَلِكَ كَانَتْ الصُّورَةُ الَّتِي صَوَّرَ « زِينِيفُونُ » بِهَا نَفْسَهُ وَمُوَاطِنِيهِ فِي وَصْفِهِ هَزِيمَةَ الْأُلُوفِ الْعَشْرَةِ إِذْ يَقُولُ : بَعْدَ أَنْ جَازَ الْجَيْشُ نَهْرَ « تِنِيبُوسَ » فِي أَرْمِينِيَا ، سَقَطَ الْجَلِيدُ ، فَاضْطُرَّ الْجُنْدُ إِلَى التَّهَالُكِ عَلَى أَدِيمِ الْأَرْضِ مِنْ شِدَّةِ الْإِعْيَاءِ[1] ، وَجَعَلَ الْجَلِيدُ يُغَطِّيهِمْ بِرُكَامِهِ[2] ، وَكُتَلِ جَلَامِيدِهِ الثَّلْجِيَّةِ وَزَمْهَرِيرِهِ[3] ، وَلَكِنْ زِينُوفُونُ ، نَهَضَ عَارِيًا فَتَنَاوَلَ فَأْسًا ، وَرَاحَ يَقْطَعُ بِهِ خَشَبًا لِيَسْتَدْفِئَ بِالْوَقُودِ ، فَلَمْ يَكَدْ يَفْعَلُ ،

(١) الاعياء : التعب (٢) الركام : السحاب المتراكم .
(٣) الزمهرير : شدة البرد

حَتَّى اسْتَوَى[١] الْجُنُودُ جَمِيعاً عَلَى سُوقِهِمْ ، وَرَاحُوا يَحْتَذُونَ حَذْوَهُ وَيَفْعَلُونَ فِعْلَهُ .

* * *

الجيش وحرية الرأى

وَهُوَ يُحَدِّثُنَا كَيْفَ كَانَ التَّرَخُّصُ[٢] لِأَفْرَادِ الْجَيْشِ فِي الْكَلَامِ مَعاً وَالْحِوَارِ وَحُرِّيَّةِ الْحَدِيثِ ، وَكَيْفَ كَانُوا يَشْتَجِرُونَ[٣] عَلَى الْأَسْلَابِ ؟ وَيَتَحَاوَرُونَ فِي أَمْرِ الْغَنَائِمِ ، وَيَتَشَادُّونَ مَعَ قُوَّادِهِمْ فِي كُلِّ أَمْرٍ يُصْدِرُونَهُ ، أَوْ تَعَالِيمَ يُلْقُونَهَا عَلَيْهِمْ ، فَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَرَى فِي جَمْعٍ كَهَذَا ، مَظْهَرَ عُصْبَةٍ مِنَ الْفِتْيَةِ وَالشَّبَابِ ، لَا مَظْهَرَ جَيْشٍ مِنَ الْجُيُوشِ ، كَمُلَ

(١) استووا على سوقهم : نهضوا قائمين جمع ساق (٢) الترخص : الاذن والسماح (٣) يشتجرون ويتشاجرون : يتنازعون ويتخالفون ، والأسلاب ، الغنائم

شَأْنُهُمْ لِلطَّبِيعَةِ فِى غَيْرِ تَكَلُّفٍ ، وَالْفِطْرَةِ فِى غَيْرِ اصْطِنَاعٍ لَهُمْ مِنْ قَوَانِينِ الْفَضِيلَةِ وَالشَّرَفِ ، وَتَعَالِيمِ الضَّبْطِ وَالرَّبْطِ ، وَمُصْطَلَحَاتِ الْقِيَادَةِ عَلَى تَرَاخِيهِ وَتَسَهُّلِهِ ، مَا لِلشُّبَّانِ الْكِبَارِ عَادَةً ، وَالْفِتْيَانِ فِى الْحَيَاةِ .

* * *

نظرة فى القديم

إِنَّ إِعْجَابَنَا بِالْقَدِيمِ لَيْسَ إِعْجَابًا بِالْقِدَمِ فِى ذَاتِهِ ، وَلَكِنَّهُ الْإِعْجَابُ بِالطَّبِيعَةِ وَسَلَامَةِ الْفِطْرَةِ ، وَلَمْ يَكُنِ الْيُونَانُ الْقُدَمَاءُ كِبَارَ الْأَذْهَانِ ، وَلَا أَقْوِيَاءَ فِى التَّفْكِيرِ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا كَامِلِينَ فِى الْحَوَاسِّ ، وَفِى الْمَشَاعِرِ ، وَفِى الصِّحَّةِ . وَقَدْ أَقَامُوا أَبْدَعَ نِظَامٍ رِيَاضِىٍّ فِى الْعَالَمِ ، وَكَانَتِ الرِّجَالُ فِيهِمْ يَعْمَلُونَ

وَيَتَصَرَّفُونَ فِي بَسَاطَةِ مَسْلَكِ الْأَطْفَالِ ، وَجَمَالِ حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ ، فَاصْطَنَعُوا الْأَوَانِيَ وَالْقَصَصَ الْمَسْرَحِيَّ ، وَالتَّمَاثِيلَ بِرُوحٍ وَاحِدٍ ، رُوحِ الْحَوَاسِّ السَّلِيمَةِ ، وَالذَّوْقِ الْحَسَنِ الْجَمِيلِ ، جَامِعِينَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، بَيْنَ نَشَاطِ الرُّجُولَةِ ، وَبَرَاءَةِ الطُّفُولَةِ وَخَاطِرِ الْحَدَاثَةِ وَالشَّبَابِ .

وَمَا وَجْهُ الْإِعْجَابِ بِهَذِهِ الْآدَابِ ، إِلَّا لِأَنَّهَا أَوْثَقُ شَيْءٍ اتِّصَالاً بِالْإِنْسَانِ ، وَلِأَنَّهَا مَعْرُوفَةٌ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ ، لِكَوْنِهِ كَانَ فِيمَا مَضَى مِنَ الْعُمُرِ طِفْلاً ، وَكَانَ فِيمَا سَبَقَ الرَّجْلَةَ[1] حَدَثًا ، فَضْلاً عَنْ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُ عَصْرٌ مِنَ الْعُصُورِ مِنْ أَفْرَادٍ

(١) الرجلة : بفتح الراء ويكسر ، اسم من الرجل .

انْحَازُوا عَنِ الْجَمَاعَةِ بِخَوَاصَّ مُعَيَّنَةٍ ، وَمَزَايَا مُتَفَرِّدَةٍ ، لَمْ تَكُنْ لِسَائِرِ النَّاسِ .

وَلَكِنَّ كُلَّ فَرْدٍ الْيَوْمَ ، أَوْ فِي هَذِهِ الْعَقْلِيَّةِ الطُّفُولِيَّةِ ، أَوْ هَذِهِ الْعَبْقَرِيَّةِ الْحَدَثَةِ ، وَتِلْكَ الْقُوَّةِ الْفِطْرِيَّةِ ، وَالنَّشَاطِ الْمُنْبَعِثِ فِيهِ ، مِنْ سَلَامَةِ الطَّبِيعَةِ هُوَ يُونَانِيٌّ ، يُعِيدُ إِلَيْنَا حَضَارَةَ الْيُونَانِ .

* * *

كيف تدرس التاريخ ؟

عَلَى ضِيَاءِ هَاتَيْنِ الْحَقِيقَتَيْنِ إِذَنْ ، وَهُمَا أَنَّ الْعَقْلَ الَّذِي يُسَيِّرُ الْعَالَمَ مِنَ الْبِدَايَةِ إِلَى الْيَوْمِ وَاحِدٌ ، أَوْ أَنَّ الْفَرْدَ فِي الْوَاقِعِ هُوَ الْمِحْوَرُ وَالْمَدَارُ لِأَحْدَاثِ الدُّنْيَا وَشُؤُونِهَا ، وَأَنَّ الطَّبِيعَةَ هِيَ الْمَوْصُولَةُ بِهِ ، وَالْمُظْهِرَةُ لَهُ ، وَالْمُعِدَّةُ لِمَظَاهِرِهِ ، وَالْمُنْشِئَةُ لِكَثْرَةِ

صِيَغِهِ وَقَوَالِبِهِ — عَلَى ضِيَاءِ هَاتَيْنِ الْحَقِيقَتَيْنِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ قِرَاءَةُ التَّارِيخِ — وَيَجِبُ أَنْ تَسِيرَ عَلَى هُدَاهُمَا دِرَاسَتُهُ .

بَلْ هَكَذَا تَرْتَكِزُ الرُّوحُ الْإِنْسَانِيَّةُ ، فِي جَمِيعِ أَشْكَالِهَا الْمُخْتَلِفَةِ ، وَتُخْرِجُ كُنُوزَهَا وَخَبْأَهَا ، وَدَفَائِنَهَا لِكُلِّ طَالِبٍ وَبَحَّاثَةٍ ، وَمُطَّلِعٍ وَمُنَقِّبٍ ، لِأَنَّهُ هُوَ كَذَلِكَ سَيَمُرُّ خِلَالَ الدَّائِرَةِ ذَاتِهَا ، وَيُجَرِّبُ التَّجْرِبَةَ نَفْسَهَا . وَسَيَجْمَعُ فِي مَرْكَزٍ وَاحِدٍ سَائِرَ أَشِعَّةِ الطَّبِيعَةِ ، وَخُيُوطِهَا الْمُتَشَعِّبَةِ ، وَيَوْمَئِذٍ لَنْ يُصْبِحَ التَّارِيخُ كَمَا هُوَ الْيَوْمَ ، كِتَابًا سَقِيمًا مُمِلًّا مَمْجُوجًا[1] .

(١) ممجوج : مكروه تمجه الأسماع وتقذفه وهو مجاز ، من مج الشراب أى رمى به

بَلْ يَسْتَحِيلُ مُجَسَّماً ، مَاثِلًا بَارِزًا ، فِي كُلِّ رَجُلٍ عَاقِلٍ ، وَإِنْسَانٍ حَكِيمٍ ، وَامْرِئٍ عَادِلٍ ، وَأَنْتَ فَلَنْ تُحَدِّثَنِي يَوْمَئِذٍ بِاللُّغَاتِ وَالْعَنَاوِينِ وَالْقَوَائِمِ وَالْفَهَارِسِ ، عَمَّا قَرَأْتَ فِي الْكُتُبِ ، وَطَالَعْتَ فِي التَّوَارِيخِ ، وَلَكِنَّكَ سَوْفَ تُشْعِرُنِي يَوْمَئِذٍ ، أَيَّ عُهُودِ الزَّمَنِ عِشْتَ ؟ وَأَيَّ أَجْيَالِ الدَّهْرِ اجْتَزْتَ ؟ وَخِلَالَ أَيِّ الْحِقَبِ وَالْقُرُونِ مَرَرْتَ فِي طَرِيقِكَ ، وَسَيُصْبِحُ الْإِنْسَانُ هُوَ مَعْبَدَ الشُّهْرَةِ ، وَهَيْكَلَ[1] الْمَجْدِ ، وَسَيَمْشِي كَمَا وَصَفَ الشَّاعِرُ . تِلْكَ الْإِلَاهَةَ ، فِي رِدَاءٍ انْتَقَشَتْ عَلَيْهِ صُوَرُ أَغْرَبِ الْأَحْدَاثِ ، وَارْتَسَمَتْ عَلَى أَدِيمِهِ[2] رُسُومُ أَعْجَبِ التَّجَارِيبِ وَالِاخْتِبَارَاتِ ،

(١) بناؤه وصورته (٢) سطحه الظاهرى

وَسَوْفَ يَجِدُ فِيهِ الْعَالَمَ فِي نَشْأَةِ خَلِيقَتِهِ ، وَالْعَصْرَ الذَّهَبِيَّ فِي طُفُولَتِهِ ، وَنَقَاحَةَ الْمَعْرِفَةِ فِي آدَمِيَّتِهِ ، وَالطُّوفَانَ فِي رِحْلَتِهِ الْبَحْرِيَّةِ وَسِيَاحَتِهِ ، وَدِينَ إِبْرَاهِيمَ ، وَبِنَاءَ الْكَعْبَةِ ، وَظُهُورَ الْمَسِيحِ ، وَبِعْثَةَ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ . وَالْقُرُونَ الْوُسْطَى ، وَإِحْيَاءَ الْعُلُومِ ، وَالْكَشْفَ الْجُغْرَافِيَّ وَاخْتِرَاعَاتِ الْعُلُومِ .

* * *

متى نكتب التاريخ؟

ذَلِكَ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ نَكْتُبَ فِيهِ التَّارِيخَ أَحْسَنَ وَأَوْسَعَ وَأَعْمَقَ مِمَّا كَتَبْنَاهُ ، يَوْمَ نَكْتُبُهُ بِرُوحٍ جَدِيدٍ ، وَضَمِيرٍ أَسْلَمَ ، وَحِسٍّ أَقْوَى وَأَصَحَّ ، إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَكُونَ أَصْدَقَ تَعْبِيراً عَنْ طَبِيعَتِنَا ، وَأَقْرَبَ إِلَى الْحَقِيقَةِ مِنَّا إِلَى مُخْتَرَعَاتِ

التَّهْوِيلِ وَالْخَيَالِ ، بَدَلاً مِنْ هَذَا التَّارِيخِ الْعَتِيقِ الَّذِى لَيْسَ إِلاَّ سِجِلاً لِسِلْسِلَةِ حَوَادِثِ الْأَنَانِيَةِ ، وَفِعَالِ الْأَثَرَةِ ، وَمَظَاهِرِ الْكِبْرِيَاءِ .

* * *

وَالْآنَ رُبَّمَا كَانَ مِنَ الْمُسْتَصْوَبِ لَكَ وَلَنَا ، وَلِلعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، وَلِلتَّارِيخِ وَالْمَنْطِقِ ، أَنْ نَسْتَقْرِئَ سَوِيًّا ، بَعْدَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ التَّمْهِيدِيَّةِ الْمُتَضَمِّنَةِ ، مَا نَرَاهُ مِنْ صُوَرٍ عَنِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ فِى شَتَّى عُصُورِهَا ، شَيْئًا عَنْ فُنُونِ الْقِرَاءَةِ ، وَالْكُتُبِ ، وَالثَّقَافَةِ ، لِمَا لَهَا مِنْ كَبِيرِ صِلَةٍ بِمَوْضُوعِنَا فَنَقُولُ :

* * *

حفظ الكتب

مِنْ أَعْجَبِ الْفُرُوقِ فِى هَذِهِ الْحَيَاةِ وَتَنَاقُضِ الْقِيَمِ ، وَقِلَّةِ التَّنَاسُبِ فِى الْأَقْدَارِ ، وَالسُّخْرِيَةِ

الْخَفِيَّةِ فِي تَفَاوُتِ الْأَخْطَارِ[١] ، وَتَبَايُنِ الْأَسْعَارِ ، أَنَّ الْكُتُبَ لَا تَزَالُ تُعَانِي فِي الْحَظِّ التَّعَسَ وَالْعِثَارَ ، وَتُقَاسِي هَوَانَ الْقِيمَةِ وَالصَّغَارَ[٢] ، فَهِيَ وَاللهِ ، عَلَى مَا يُزْعَمُ لَهَا مِنَ الذُّيُوعِ ، وَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهَا مِنْ سَعَةِ الِانْتِشَارِ ، غَيْرُ وَاجِدَةٍ الْيَوْمَ قِيمَتَهَا ، وَلَا مُصِيبَةٍ صَحِيحَ قَدْرِهَا ، وَلَا تَزَالُ قِيمَتُهَا فِي الْأَسْوَاقِ غَيْرَ مُتَعَادِلَةٍ ، وَشَأْنُهَا فِي ذَاتِهَا ، وَسِعْرُهَا فِي الْمَكَاتِبِ غَيْرَ مُتَكَافِئٍ وَسِعْرَهَا الرُّوحِيَّ ، فِي حِكْمَةِ وُجُودِهَا ، وَمَعْنَوِيَّةِ حَيَاتِهَا ، وَمَهْمَا بَلَغَ الْكِتَابُ الصَّالِحُ فِي السُّوقِ رِفْعَةَ ثَمَنٍ ، وَجَوْدَةَ سِعْرٍ ، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُتَخَلِّفٌ[٣] فِي قَوَائِمِ السِّلَعِ ، حَائِرٌ مُتَرَدِّدٌ فِي تَسْعِيرَاتِ

(١) الأخطار كالأقدار وزناً ومعنى (٢) الهوان (٣) متأخر

الْعُرُوضِ ، وَلَمْ تُفِدِ الْكُتُبُ فِي الْوَاقِعِ شَيْئًا بِهَذَا الَّذِي دَخَلَ عَلَى النَّاسِ مَدْخَلَ الْحَضَارَةِ ، مِنْ رَوَاجِ الطَّبْعِ وَانْتِشَارِهِ ، وَمَا سَمَّوْهُ بِالْأَدَبِ الرَّخِيصِ لِتَمْوِينِ الْكَافَّةِ[١] ، وَتَغْذِيَةِ الْجَمْهَرَةِ[٢] ، فَإِنَّ أَقَلَّ ثَوْبٍ مِمَّا تَصْنَعُ بُيُوتُ الْأَزْيَاءِ ، وَأَبْسَطَ غِلَالَةٍ مِمَّا تَبْتَكِرُ أَفَانِينُ الْحَاكَةِ[٣] ، وَإِنَّ زُجَاجَةَ الشَّرَابِ ، أَوْ آنِيَةَ الْعِطْرِ ، أَوْ طُرْفَةَ النَّضَدِ[٤] ، أَوْ حِلْيَةَ الْمُتَّكَا ، أَوْ مِنْدِيلَ الزِّينَةِ ، أَوْ جَوْرَبَ الدَّلِّ[٥] وَالْخَفَرِ ، لَتَسْمُو فِي السِّعْرِ فَوْقَ الْكِتَابِ ، كَائِنًا مَا كَانَ ، وَتَعْلُو فِي الْقِيمَةِ الْمَادِّيَّةِ عَلَى السِّفْرِ ، وَقَدْ يَكُونُ

(١) عامة الناس (٢) الجمهرة : معظم الناس (٣) جمع حائك : النساج (٤) النضد : محركة : ما نضد من المتاع ، أو خياره (٥) الدل : التيه والدلال ، والخفر : شدة الحياء

مِنْ نَوَادِرِ أَسْفَارِ الزَّمَانِ . وَمَا نَشَرَ الْأَدَبُ الرَّخِيصُ فِي الْغَرْبِ كُتُبًا ، وَلَكِنَّهُ رَوَّجَ أَشْبَاهَ الْكُتُبِ وَإِنْ حَطَّ مِنْ أَسْعَارِهَا ، حَتَّى لَمْ تَعُدْ كُتُبًا ، وَلَكِنْ وَرَقًا مَطْبُوعًا ، وَحَلَالًا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَرُوحَ مَمْنُوعًا ، وَبَقِيَتْ أُمَّهَاتُ الْكُتُبِ مِنْ قِلَّةِ التَّعَهُّدِ جِيَاعًا ، يَنْمَا أَوْلَادُهَا الصِّغَارُ ، فِي رَتْعٍ[1] وَاسْتِبَاقٍ ، وَنَفَاقٍ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَرَوَاجٍ وَتَلَاقٍ .

وَلَعَمْرُ اللهِ مَا أَفَادَ الْكُتَّابُ وَإِنْ نَبَغُوا ، وَلَا رَبِحَ الْمُؤَلِّفُونَ وَإِنْ طَالَتْ شُهْرَتُهُمْ فِي عَالَمِ التَّوَالِيفِ ، وَإِنَّ الرَّابِحِينَ فِي الْحَقِّ مِنْهُمْ ، لَأَقَلُّ فِي ذَلِكَ مِنْ سِوَاهُمْ ، وَدُونَ غَيْرِهِمْ فِي غَيْرِ الْكُتُبِ

(١) مرح ومسابقة : وذلك كناية عن الرواج والذيوع

وَسُوقِهَا ، وَإِنَّ التَّاجِرَ فِي سِلْعَةٍ مِنَ السِّلَعِ ، إِذَا نَفَقَتْ[1] سِلْعَتُهُ لَأَكْسَبُ مِنْ أَمْجَدِ كَاتِبٍ ، وَأَجْزَلُ رِبْحًا مِنْ أَنْبَغِ مُؤَلِّفٍ ، لِأَنَّ الْكُتُبَ لَا تَزَالُ كَمَالًا بِجَانِبِ الْحَاجَةِ ، وَفَضْلًا إِلَى جَانِبِ الْعَيْشِ وَمَطَالِبِهِ ، وَمَهْمَا قِيلَ ، إِنَّ النَّاسَ قَدْ عَرَفُوا لِلْكُتُبِ قَدْرَهَا ، وَأَقْبَلُوا مَعَ انْتِشَارِ الْعِرْفَانِ وَالنُّورِ عَلَى اقْتِنَائِهَا وَإِيثَارِهَا ، فَهِيَ لَمَّا تَبْلُغْ فِي التَّقْدِيرِ الصَّحِيحِ مَحَلَّهَا ، وَلَمْ يَنْتَصِفْ فِي بَابِ الْمُسَاوَمَةِ مَهْرُهَا ، وَلَمَّا يُرَاعَ فِي سِعْرِهَا سِعْرُ الْجُهْدِ وَالْأَلَمِ فِي إِخْرَاجِهَا وَإِظْهَارِهَا ، وَمَا نَحْسَبُ النَّاسَ يَحْسَبُونَ ذَوْبَ النَّفْسِ الْمُحْتَرِقَةِ فِي أَسْطَارِهَا ،

(١) راجت .

وَعُصَارَةَ الْحَيَاةِ الْمُنْبَثَّةِ[١] فِي تَضَاعِيفِهَا وَأَشْطَارِهَا ، وَإِنَّمَا هُمْ يَنْسَوْنَ ذَلِكَ كُلَّهُ ، غَيْرَ ذَاكِرِينَ إِلاَّ أَنَّ فِي أَيْدِيهِمْ كُتُبًا هُمُ الْحُكَّامُ فِي إِقْدَارِهَا ، بِسِعْرِ الْأَسْوَاقِ ، لاَ بِسِعْرِ النُّفُوسِ ، وَبِثَمَنِ الْأَوْرَاقِ ، لاَ بِثَمَنِ الْمُهَجِ وَاحْتِرَاقِ الرُّؤُوسِ ، وَلاَ مُقَدِّرِينَ ضِرَامَ تِلْكَ الْأَذْهَانِ ، الَّتِي اسْتَنْفَدَتْ قُوَاهَا فِي رُوحَانِيَّةِ[٢] الْكِتَابِ ، وَأَلْقَتْ خُلاَصَتَهَا وَمِزَاجَهَا فِي ثَنَايَا الْفُصُولِ مِنْهَا وَالْأَبْوَابِ .

وَقَدِ انْتَشَرَ كُلُّ شَيْءٍ فِي مَدَنِيَّتِنَا الْحَدِيثَةِ ، أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنْتَشِرَ ، إِلاَّ الْكُتُبَ ، فَإِنَّهَا لاَ تَزَالُ دُونَ حَقِّهَا شُهْرَةً ، وَإِنْ ظُنَّ أَنَّهَا قَدْ

(١) المنبثة : المنتشرة المتفرقة . (٢) أى أسراره وعناصره

أَصَابَتْ كِفَاءَهَا[١] ، وَلَقِيَتْ جَزَاءَهَا ، وَأَقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَيْهَا أَيَّمَا إِقْبَالٍ ، وَكَادَتْ فِي ذَلِكَ تَبْلُغُ حُدُودَ الْكَمَالِ .

* * *

اوغسطين والكتب

وَلَقَدْ شَكَا رَجُلٌ مِنْ خِيرَةِ الْكُتَّابِ الْمُحْدَثِينَ فِي انْجِلْتِرَا ، وَهُوَ « سِيرْ أُوغِسْطِينْ بِيرِيلْ » - وَكَانَ مِنْ أَكْبَرِ الْعَارِفِينَ بِأَقْدَارِ الْكُتُبِ - مِنْ كَسَادِ[٢] أَسْوَاقِهَا فِي بِلَادِهِ ، وَتَدَهْوُرِ حُظُوظِهَا ، عَلَى مَا عَرَفْتَ مِنْ ذُيُوعِهَا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ ، وَفَرْطِ انْتِشَارِهَا ، وَإِنَّهُ لَيَرْثِي لِهَذَا وَيَحْزَنُ لَهُ ، وَيَقُولُ فِيهِ : إِنَّ النَّاسَ لَا يَشْعُرُونَ بِوُجُودِهِمْ ، لِقِلَّةِ كُتُبِهِمْ ،

(١) الكفاء : حالة يكون بها شيء مساويا لشيء آخر (٢) بوارها

وَأَنَّ مَنْ يَمْلِكُ كُتُبَهُ ، هُوَ فِي الْوَاقِعِ مِلْكٌ لِكُتُبِهِ ، لِأَنَّ الْكُتُبَ تَمْلِكُ كَمَا تُمْلَكُ ، وَتَسْتَحْوِذُ[1] عَلَى مُقْتَنِيهَا اسْتِحْوَاذَهُ هُوَ عَلَيْهَا ، وَمَا ضَعُفَ سُلْطَانُهَا ، إِلَّا لِأَنَّ النَّاسَ آثَرُوا أَنْ يَكُونُوا أَحْرَارًا ، وَإِنْ ظَلُّوا مِنْ خِيفَةِ تَمَلُّكِ الْكُتُبِ لَهُمْ جُهَلَاءَ .

* * *

فوضى القراءة

وَقَدْ رَدَّ كَثِيرٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ ، قِلَّةَ انْتِشَارِ الْكُتُبِ الصَّالِحَةِ ، وَكَسَادَ الْأَسْفَارِ الْقَيِّمَةِ ، إِلَى فَوْضَى الْقِرَاءَةِ ، وَهِيَ حَقِيقَةٌ[2] أَنْ تَكُونَ فَنًّا ، وَأَنْ تَكُونَ التَّغْذِيَةُ النَّفْسِيَّةُ بِهَا عَلَى نِظَامٍ حَسَنٍ ، خَوْفَ الْبِطْنَةِ[3] ، أَوْ خَشْيَةَ الْهُزَالِ الرُّوحِيِّ ، وَالْمَسْغَبَةِ[4] النَّفْسِيَّةِ ،

(١) تستحوذ : تستولي وتغلب (٢) خليقة وجديرة (٣) مرض البطن من كثرة الأكل والمراد كلال الذهن وإتعابه (٤) الجوع

وَلِكَيْلَا يَسْتَحِيلَ الْمَرْءُ نَهِماً أَكُولًا، مُلْتَهِماً طَعُوماً، وَيُضْحِي «أُومُنِيفُورَ» — كَمَا يَقُولُونَ — يَأْكُلُ كُلَّ شَيْءٍ، وَيَلْتَهِمُ كَلَّ طُعْمَةٍ، وَيَتَغَذَّى بِكُلِّ صِنْفٍ وَلَوْنٍ، فَيَفْسُدُ مَذَاقُهُ، وَتَتَعَطَّلُ مَلَكَةُ اخْتِيَارِهِ. وَقَدِيماً قَالَ أَحَدُ الْفَلَاسِفَةِ: إِذَا قَرَأْتَ فَلَا تَقْرَأْ لِتُعَارِضَ وَتَسْخَرَ، وَتَسْتَزْرِيَ[1] مَا أَنْتَ قَارِئٌ. وَلَا تَقْرَأْ لِتَنْتَقِدَ فِي غَيْرِ بَحْثٍ، وَتُسَلِّمَ بِغَيْرِ دَرْسٍ، وَتُفَرِّطَ فِي ذِهْنِكَ فِي غَيْرِ حِرْصٍ. وَلَا تَقْرَأْ لِتَلْهُوَ وَتُحَدِّثَ، أَوْ تَسْتَدْفِئَ وَتَتَشَمَّسَ. وَلَكِنِ اجْعَلْ قِرَاءَتَكَ لِتَزِنَ وَتُفَكِّرَ، وَتَتَرَوَّأَ[2]

(١) تستهزىء به (٢) روأ فى الأمر تروئة وترويئاً: نظر فيه وتأمل وتفكر وتعقبه، ولم يعجل بجواب ومنه الروية فى الأمر.

وَتَتَدَبَّرَ ، وَتَتَقَصَّى وَتَنْظُرَ ، وَتَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي حَيْثُمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوضَعَ ، وَتَحُلَّهُ حَيْثُ يَجِبُ أَنْ يَحُلَّ .

* * *

يكون والكتب

وَقَدْ قَالَ « بِيكُونُ » : مِنَ الْكُتُبِ مَا يَسْتَحِقُّ فَقَطْ أَنْ يُذَاقَ ، وَبَيْنَهَا مَا هُوَ أَوْلَى بِأَنْ يُزْدَرَدَ وَيُلْتَهَمَ ، وَلَكِنَّ أَجَاوِيدَهَا وَكِرَامَهَا ، وَأَحَاسِنَهَا وَأَخْيَارَهَا ، مَا يُجْتَرُّ وَيُطْحَنُ وَيُضْرَسُ[1] بِالْأَنْيَابِ ، لِيُهْضَمَ وَيُنْتَفَعَ بِهِ ، بَلْ مِنَ الْكُتُبِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْرَأَ تَجْزِئَةً ، أَوْ يُؤْخَذَ مِنْهُ قَدْرُ الْجُرْعِ ، وَيُتَنَاوَلَ مِنْهُ بَعْضُ النَّهَلِ[2] ، وَمِنْهَا مَا يُتَصَفَّحُ

(١) يضرس : يطحن ويفرى (٢) النهل : الرى

تَصَفُّحًا ، وَيُنْظَرُ فِيهِ مُجَرَّدَ نَظَرٍ ، وَيُمَرُّ بِهِ كَرِيمَ مَرٍّ ، وَبَيْنَهَا مَا يُسْتَوْعَبُ اسْتِيعَابًا ، وَيَسْتَوْجِبُ الْعِنَايَةَ اسْتِيجَابًا ، وَيَقْتَضِي إِنْعَامَ النَّظَرِ فِيهِ جَيْئَةً وَذَهَابًا ، وَمِنَ الْكُتُبِ أَيْضًا ، مَا يُقْرَأُ بِالْوَسَاطَةِ ، وَيُطَالَعُ بِالْمُسَاعَدَةِ ، وَيُنْظَرُ فِيهِ بِالدَّلِيلِ الْهَادِي ، وَيُدْرَسُ بِالشُّذُورِ مِنْهُ وَالْقُطُوفِ ، وَالشُّرُوحِ لَهُ وَالتَّفَاسِيرِ ، وَالتَّعْلِيلِ لَهُ وَالتَّدْلِيلِ ، وَبَيْنَهَا الْكُتُبُ « الْمُقَطَّرَةُ » وَهِيَ أَشْبَهُ بِالْمَاءِ الْمُرَشَّحِ الْمَقْطُورِ ، مُنْعَدِمَةُ الطَّعْمِ خَلِيَّةٌ مِنَ الْمَذَاقِ ، لاَ تَنْقَعُ غُلَّةً ، وَلاَ تُرْوِي ظَمَأً ، وَلاَ تَشْفِي مِنْ أُوَامٍ[1] .

وَلْتَعْلَمَنَّ أَنَّ الْقِرَاءَةَ تَخْلُقُ الْمَرْءَ الْكَامِلَ ، عَلَى

(١) الأوام : بالضم حرارة العطش

حِينِ يَخْلُقُ الْحَدِيثُ الْمَرْءَ الْمُسْتَعِدَّ الْمُجَهَّزَ الْمُهَيَّأَ ، كَمَا تَخْلُقُ الْكِتَابَةُ الْمَرْءَ الْمُسْتَوْفِيَ التَّامَّ الدَّقِيقَ ، وَمِنْ ثَمَّ ؛ فَمَنْ يَكْتُبْ قَلِيلاً ، يَحْتَجْ إِلَى سَعَةِ الْحَافِظَةِ ، وَقُوَّةِ الذَّاكِرَةِ ، وَمَنْ يُقْلِلْ فِي الْحَدِيثِ ، يَحْتَجْ إِلَى حُضُورِ الْبَدِيهَةِ ، وَعَفْوِ[1] الْخَاطِرِ ، وَمَنْ يَقْرَأْ هَوْنًا مَا[2] ، فَمَا لَهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمُكْرِ غِنًى ، لِكَيْ يُجِيدَ التَّظَاهُرَ بِالْعِلْمِ ، وَيُحْسِنَ التَّرَائِيَ بِكَثْرَةِ الْمَعْرِفَةِ .

* * *

وَقَدْ وَصَفَ « بِيكُونُ » الْكُتُبَ وَخَوَاصَّهَا ، وَمَزَايَا أَنْوَاعِهَا ، فَقَالَ : إِنَّ كُتُبَ التَّارِيخِ تُوَسِّعُ

(١) ما يرد على الخاطر عفواً كأنه الوحى أو الالهام (٢) قليلا

الْمَدَارِكَ ، وَتُعَلِّمُ النَّاسَ الْحِكْمَةَ ، وَالْمَوْعِظَةَ الْحَسَنَةَ ، وَدَوَاوِينَ الشِّعْرِ تَصْقُلُ الذَّكَاءَ ، وَتُحِدُّ[1] الْقَرَائِحَ ، وَتُرْهِفُ الْخَاطِرَ . وَكُتُبَ الْفَلْسَفَةِ ، تَجْعَلُ قُرَّاءَهَا بَعِيدِي[2] الْغَوْرِ ، مَنَاطِقَةً إِخْوَانَ وَقَارٍ وَرَزَانَةٍ ، وَقُوَّةِ عَارِضَةٍ وَذَكَاوَةٍ ، وَشِدَّةِ مِرَاسٍ فِي فُنُونِ الْجَدَلِ وَالْحِجَاجِ[3] . وَمَا مِنْ عِلَّةٍ فِي الْعَقْلِ إِلَّا وَجَدَتْ فِي الْكُتُبِ أَشَافِيَهَا[4] وَأَدْوِيَتَهَا ، كَمَا تَكُونُ الْوَصَفَاتُ لِأَمْرَاضِ الْجُسُومِ وَعِلَلِ الْأَبْدَانِ .

* * *

فوائد القراءة

وَالْقِرَاءَةُ — عَمَّرَكُمُ اللهُ — رِيَاضَةٌ نَفْسِيَّةٌ وَعِلَاجٌ عَقْلِيٌّ وَمُتْعَةٌ رُوحِيَّةٌ ، تَسْتَجِمُّ[5] بِهَا الْأَذْهَانُ ، وَتَغْتَذِي

(١) تشحذها ، من الحدة (٢) عميق التفكير فى القضايا مقدمات ونتائج (٣) المحاجة والمناظرة (٤) علاجها (٥) تستجمع قوتها وترتاح من جمت البئر إذا اجتمع ماؤها

مِنْهَا الْمَشَاعِرُ وَالْوُجْدَانُ ، وَتُنْفَى بِهَا الْوَحْشَةُ ، وَتُعَالَجُ بِهَا السَّآمَةُ ، وَتُشْتَرَى بِهَا سَكِينَةُ الرُّوحِ ، وَتُسْتَمَدُّ مِنْهَا ضِمَادَةُ[١] الْجِرَاحِ ، بَلْ إِنَّ الْقِرَاءَةَ لَذَاتُ مَزَايَا ثَلَاثٍ قَوَائِمَ بِذَاتِهَا ، فَهِيَ لِلْمَسَرَّةِ وَالتَّسْلِيَةِ وَالتَّرْوِيحِ[٢] ، وَهِيَ لِلتَّفَقُّهِ وَالْفَائِدَةِ وَالتَّهْذِيبِ ، وَهِيَ لِلْجَمَالِ وَالتَّجَمُّلِ وَالْحِلْيَةِ وَالتَّحَلِّي ، وَالْمَظْهَرِ وَالزِّينَةِ وَالرُّوَاءِ ، وَسُرُورِهَا فِي سَاعِ الْخَلْوَةِ ، وَلَهْوِهَا فِي نَوْبَاتِ الْكَآبَةِ وَالْبَرَمِ[٣] بِالْحَيَاةِ ، وَجَمَالُهَا أَكْثَرُ مَا يَبْدُو فِي السَّمَرِ وَالْحَدِيثِ ، وَالْمُطَارَحَةِ[٤] وَالتَّنَادُرِ ، وَنَفْعُهَا وَصَلَاحِيَتُهَا فِي تَفْتِيقِ الْعُقُولِ ، وَإِبْرَازِ مَقْدِرَةِ

(١) ما تضمد به من أربطة ودواء (٢) إذهاب عناء النفس
(٣) السآمة والضجر . (٤) المطارحة : المناظرة والمجاوبة وتبادل الأسئلة ، والتنادر : ذكر النوادر والفكاهات

الْأَذْهَانِ ، وَصَهْرِ مَعَادِنِ النُّفُوسِ ، وَشَحْذِ الْعُقُولِ ، وَمَضَاءِ الْأَحْلَامِ ، وَبُلُوغِ مَرَاتِبِ الْمَعْرِفَةِ ، وَاجْتِيَازِ مُخْتَلِفِ آفَاقِ الثَّقَافَةِ ،

* * *

وَعَسَيْتَ تَسْأَلَنَّ مَا حَدُّ الثَّقَافَةِ وَمَا وَجْهُهَا ؟ ، وَإِنِّي لَقَائِلٌ لَكَ : إِنَّ الثَّقَافَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لَيْسَتْ فِي كَثْرَةِ الْقِرَاءَةِ وَحْدَهَا ، وَلَكِنْ فِي وَقْرَةِ الرُّوحِ مَعَهَا ، فَإِنَّ الْمَعْرِفَةَ بِمُفْرَدِهَا ، مِعْوَانٌ عَلَى الثَّقَافَةِ ، وَلَكِنْ لَيْسَتْ هِيَ خَالِقَتَهَا وَلَا مُنْشِئَتَهَا ، وَمَا هِيَ كُلُّ أَمْرِهَا وَقِصَّتِهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ كُلِّهِ ، الْاسْتِعْدَادُ الطَّيِّبُ ، وَالتُّرْبَةُ الْخَصِيبَةُ ، وَالنَّفْسِيَّةُ السَّلِيمَةُ ، كُلَّمَا تَعَهَّدَتْهَا الْقِرَاءَةُ بِسَقْيِهَا

نكمل الثقافة ؟

وَرِيِّهَا ، صَلُحَتْ مَنْبَتًا ، وَطَابَتْ مَغْرِسًا ، وَأَخْرَجَتْ أَحْسَنَ الثَّمَرِ .

* * *

أثر القراءة المتخيرة

وَمَا أَصْلَحَ الْقِرَاءَةَ الْحَسَنَةَ الْمُتَخَيَّرَةَ ، وَالْيَانِعَةَ[1] الثَّمَرِ ، إِذَا هِيَ تَوَافَرَتْ أَطْيَبَ مُتَوَفَّرٍ ، لِلْخَاطِرِ الْمُتَّسِعِ الْمَدَى ، وَالْأُفُقِ الذِّهْنِيِّ الرَّحِيبِ الْمَطَارِحِ ، الْمُتَرَامِي الْمَنَادِحِ ، الْبَعِيدِ الْهَدَفِ ، الْمُضْطَرِمِ الشَّغَفِ ، وَلِكَيْ يَكُونَ الْمَرْءُ أَخَا ثَقَافَةٍ ، يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَوَّلاً أَخَا نَفْسٍ طُلَعَةٍ[2] ، وَصِنْوَ هِمَّةٍ مُسْتَحْصَدَةٍ[3] ، وَنِضْوَ عَزْمَةٍ مُرْهَفَةٍ ، وَقَرِينَ صَبْرٍ عَلَى الْقِرَاءَةِ ، وَزَمِيلَ إِدْمَانٍ لِلْمُطَالَعَةِ ، وَظَلِيلَ إِلْحَاحٍ عَلَى ارْتِيَادِ الْعُقُولِ ، فِي غَيْرِ اصْطِحَابِ سَفَرٍ ،

(١) الثمرة اليانعة : هي التي نضجت ودنت للقطوف (٢) طلعة : بضم ففتح أي تكثر التطلع إلى الشيء (٣) قوية . من حصد الحبل : إذا أحكم فتله

أَوِ اعْتِمادٍ عَلَى رُفَقَاءِ تَجْوَابٍ[١] ، وَصَحْبِ طَرِيقٍ ، وَلَكِنَّهُ يَذْهَبُ كَاشِفاً الْمَجْهُولَ ، مُلْتَمِساً الْمُتْعَةَ وَحْدَهُ ، بَاحِثاً عَنِ الْجَدِيدِ لِنَفْسِهِ خَاصَّةً ، وَكُلَّمَا قَرَأَ ، أَوْفَى[٢] عَلَى الثَّقَافَةِ ، وَلَمْ يُلِمَّ بِهَا ، لِأَنَّ الْمُثَقَّفَ الْكَامِلَ ، كَالْعَاقِلِ الْكَامِلِ ، لَيْسَ لَهُ إِلَى الْيَوْمِ وُجُودٌ فِي هَـــذِهِ الْحَيَاةِ ، وَمَنْ يُفَرِّطْ فِي اسْتِغْلَالِهِ الذِّهْنِيِّ ، أَوْ يَفْقِدْ فُضُولَهُ الْمُقَدَّسَ — وَإِنَّ لِلْفُضُولِ أَوِ الشَّوْقِ الْعَقْلِيِّ لَقَدَاسَةً ، أَيَّةَ قَدَاسَةٍ — فَهُوَ وَلَا رَيْبَ الْمُنْصَرِفُ عَنِ الثَّقَافَةِ ، الْجَاهِلُ بِقِمَّةِ الْمَعْرِفَةِ ، وَيَوْمَئِذٍ يُصْبِحُ مُجَرَّدَ كَتَالُوجَ ، أَوْ فِهْرِسَ كُتُبٍ لَيْسَ أَكْثَرَ ، وَمَنْ تَكُنْ هَذِهِ ، هِيَ دَرَجَتَـــهُ وَمَحَلَّهُ مِنَ الثَّقَافَةِ ، فَهُوَ الْمَسْئُومُ

(١) جاب البلاد تجواباً — قطعها (٢) أشرف عليها

مِنْهُ ، الْمَنْبُوُّ[١] عَنْهُ ، الدَّعِيُّ[٢] فِي الْعِلْمِ ، الْبَعِيدُ مِنْ حَظِيرَةِ الْأَدَبِ وَأَهْلِهِ .

* * *

أرنولد والثقافة

وَلَقَدْ قَالَ « مَاتيو أَرْنُولْد » فِي تَحْدِيدِ الثقَافَةِ : إِنَّهَا « الِاتِّصَالُ بِأَفْضَلِ مَا قِيلَ ، وَأَحْسَنِ مَا كُتِبَ ، وَأَبْدَعِ مَا أَخْرَجَ الْفِكْرُ » وَنَحْنُ قَائِلُونَ فِي بَيَانِ هَذَا التَّحْدِيدِ ، وَصِحَّةِ مَدَاهُ ، إِنَّ هَذَا الِاتِّصَالَ ، يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَفَانِيًا وَامْتِزَاجًا كُلِّيًّا ، بَلِ اتِّصَالًا رُوحِيًّا ، تَنْبَعِثُ مِنْهُ مُتْعَةٌ لِلذِّهْنِ ، وَصَفَاءٌ لِلْقَرِيحَةِ ، وَيَشْعُرُ الْمَرْءُ ، أَنَّهُ قَدِ ارْتَفَعَ فَوْقَ نَفْسِهِ ، وَسَمَا عَلَى طَبِيعَتِهِ ، وَغَاوَرَ أُفُقَهُ[٣] ، مُحَلِّقًا فِي جَوٍّ بَعِيدٍ .

(١) المتباعد عنه (٢) الدعى : الذى ينتسب إلى القوم ليس منهم .
(٣) غاور أفقه : أغار عليه ، وظهر عليه

وَمِنَ النَّاسِ كَثِيرُونَ ، أَطَالُوا الْقِرَاءَةَ وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَقْرَءُوا ، وَأَسْرَفُوا فِي الْمُطَالَعَةِ ، وَمَا تَحْسَبُهُمْ إِذْ تَخْتَبِرُهُمْ قَدْ طَالَعُوا شَيْئًا ، لِأَنَّ الْعِبْرَةَ لَيْسَتْ بِالْقِرَاءَةِ فَحَسْبُ . وَلَكِنْ فِي الرُّوحِ الَّتِي تَتَشَرَّبُ مَا تَقْرَأُ ، وَالنَّفْسِ الَّتِي تَسْمُو بِمَا تُطَالِعُ ، وَالذِّهْنِ الَّذِي يَزْدَادُ الْتِمَاعًا وَضِيَاءً ، كُلَّمَا مَسَحَتِ الْكُتُبُ الْقَيِّمَةُ ، وَالتَّوَالِيفُ الصَّالِحَةُ ، عَلَى غِشَاءِ خَاطِرِهِ ، وَمَعْدِنِ إِدْرَاكِهِ ، وَصَفْحَةِ مَشَاعِرِهِ .

* * *

الكتاب والقارئ

الْكِتَابُ الصَّالِحُ إِذَنْ هُوَ الْقِنْيَةُ[1] الصَّالِحَةُ ، وَمَنْ قَرَأَ كِتَابًا صَالِحًا فَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ ، فَلْيَعْلَمَنَّ أَنَّ مَعْدِنَهُ أَصَمُّ لَا يَسْتَجِيبُ ، وَمَنْ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ

(١) القنية : بالكسر والضم : ما اكتسب وما اقتنى وادخر

يَقْرَأَ ، فَهُوَ غَيْرُ مُحْسِنٍ أَنْ يَخْتَارَ لِحَيَاتِهِ ، وَيَقْتَنِيَ لِعَيْشِهِ ، وَلاَ يَأْتِي الذَّوْقُ فِي مَعْرِفَةِ الْكُتُبِ ، إِلاَّ بِامْتِحَانِ صُنُوفِهَا ، فَإِذَا لَمْ يَكْتَسِبْ مِنْ صُنُوفِهَا ذَوْقاً رَفِيعاً ، فَلْيَكُفَّ عَنِ الْكُتُبِ ، فَإِنَّهَا لَمْ تُخْلَقْ لِمِثْلِهِ .

* * *

منزلة الكتاب الممتع

الْكِتَابُ الْمُمْتِعُ فِي نَظَرِي ، بِمَثَابَةِ الْعَرُوسِ الْمَجْلُوَّةِ[1] ، وَالدُّرَّةِ الثَّمِينَةِ الْمُفَدَّاةِ ، وَذَخِيرَةِ الْأُدَبَاءِ وَالْكُمَاةِ[2] ، بَلْ هُوَ اللَّطَافَةُ مُسَيَّرَةً ، وَالْبَلاَغَةُ مُسَطَّرَةً ، وَالطَّلاَوَةُ مُحَبَّرَةً ، بَلْ هُوَ شُرُوقُ إِفْصَاحٍ ، وَعُذُوبَةُ رَاحٍ[3] ، وَبَهْجَةُ انْشِرَاحٍ ، بَلْ هُوَ دِقَّةُ

(١) المجلوة : المهيأة للزفاف إلى بعلها (٢) الكماة : جمع كمى وهو الشجاع ، أو متقلد السلاح ، والمراد فرسان البلاغة وعباقرة الأدباء
(٣) الراح : اسم من أسماء الخمر

فِقَرٍ ، وَبَهْرَةُ نَظَرٍ ، وَفِتْنَةُ سَحَرٍ .

مِنْ كُلِّ مَعْنًى يَكَادُ الْمَيْتُ يَفْهَمُهُ

حَسَنًا وَيَعْبُدُهُ الْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

بَلْ هُوَ عُشُّ الْأَدَبِ وَوَكْرُهُ ، وَمُتَفَجَّرُ الشِّعْرِ وَذِكْرُهُ ، وَمَجْمَعُ النَّثْرِ وَنَهْرُهُ ، وَمَوْئِلُ الدُّرِّ وَبَحْرُهُ ، بَلْ هُوَ لِمُتْرِبَةِ الْمُسْتَزِيدِ أَنْدَاءُ[1] ، وَلِأَرْضِ الْأَدِيبِ سَمَاءُ ، وَلِلْمُضْنَى الْعَلِيلِ شِفَاءُ ، وَلِلَوْعَةِ الْغَلِيلِ دَوَاءُ . وَلِسُؤَالِ الْمُتَعَلِّمِ نِعْمَ الْمُجِيبُ بَعْدَ النِّدَاءِ .

* * *

الجاحظ بصف الكتاب

وَبَعْدُ — فَلَقَدْ صَدَقَ أَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ الْجَاحِظُ فِي قَوْلِهِ : —

(١) انداء : جمع ندا وهو العطاء : أى هو لحاجة المستزيد نيل ورفد

الْكِتَابُ — نِعْمَ الْمُدَّخَرُ وَالْعُدَّةُ ، وَنِعْمَ الْجَلِيسُ وَالْعُمْدَةُ ، وَنِعْمَ النَّشْوَةُ وَالنُّزْهَةُ ، وَنِعْمَ الْمُشْتَغَلُ وَالْحِرْفَةُ ، وَنِعْمَ الْأَنِيسُ سَاعَةَ الْوَحْدَةِ ، وَنِعْمَ الْمَعْرِفَةُ بِبِلَادِ الْغُرْبَةِ ، وَنِعْمَ الْقَرِينُ وَالدَّخِيلُ ، وَنِعْمَ الْوَزِيرُ وَالنَّزِيلُ ، وَالْكِتَابُ — وِعَاءٌ مُلِئَ عِلْماً ، وَظَرْفٌ حُشِيَ ظَرْفاً ، وَإِنَاءٌ شُحِنَ مُزَاحاً وَجِدًّا ، إِنْ شِئْتَ كَانَ أَبْيَنَ مِنْ سَحْبَانَ وَائِلٍ ، وَإِنْ شِئْتَ كَانَ أَعْيَا مِنْ بَاقِلٍ[1] ، وَإِنْ شِئْتَ ضَحِكْتَ مِنْ بَوَادِرِهِ ، وَإِنْ شِئْتَ عَجِبْتَ مِنْ غَرَائِبِ فَوَائِدِهِ ، وَإِنْ شِئْتَ أَلْهَتْكَ نَوَادِرُهُ ، وَإِنْ شِئْتَ شَجَتْكَ مَوَاعِظُهُ ، وَمَنْ لَكَ بَوَاعِظٍ

(١) رجل يضرب به المثل فى الفهاهة والعى

مُلْهٍ ، وَبِزَاجِرٍ[1] مُغْرٍ ، وَبِنَاسِكٍ فَاتِكٍ ، وَبِنَاطِقٍ أَخْرَسَ ، وَبِبَارِدٍ حَارٍّ ، وَفِي الْبَارِدِ الْحَارِّ يَقُولُ الْحَسَنُ بْنُ هَانِئٍ : —

قُلْ لِزُهَيْرٍ إِذَا انْتَحَى وَشَدَا
أَقْلِلْ أَوَاكْثِرْ فَأَنْتَ مِهْذَارُ
سَخُنْتَ مِنْ شِدَّةِ الْبُرُودَةِ حَتَّـ
ـى صِرْتَ عِنْدِي كَأَنَّكَ النَّارُ
لَا يَعْجَبُ السَّامِعُونَ مِنْ صِفَتِي
كَذَلِكَ الثَّلْجُ بَارِدٌ حَارُ

وَمَنْ لَكَ بِنَبْطِيٍّ[2] أَعْرَابِيٍّ ، وَبِرُومِيٍّ هِنْدِيٍّ ، وَبِفَارِسِيٍّ يُونَانِيٍّ ، وَبِقَدِيمٍ مُوَلَّدٍ ، وَبِمَيِّتٍ مُمْتِعٍ ،

(١) يريد أن هذه المتناقضات ترد فى الكتاب كل فى موضعه ومناسباته
(٢) النبط : قوم سكنوا سواد العراق

وَمَنْ لَكَ بِشَيْءٍ يَجْمَعُ لَكَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ ، وَالنَّاقِصَ وَالْوَافِرَ ، وَالْبَاطِنَ وَالظَّاهِرَ ، وَالشَّاهِدَ وَالْغَائِبَ ، وَالرَّفِيعَ وَالْوَضِيعَ ، وَالْغَثَّ وَالسَّمِينَ ، وَالشَّكْلَ وَخِلَافَهُ ، وَالْجِنْسَ وَضِدَّهُ .

وَبَعْدُ — فَمَتَى رَأَيْتَ بُسْتَانًا يُحْمَلُ فِي رُدْنٍ[1] ، أَوْ رَوْضَةً تَتَقَلَّبُ فِي حِجْرٍ ، وَنَاطِقًا يَنْطِقُ عَنِ الْمَوْتَى ، وَيُتَرْجِمُ كَلَامَ الْأَحْيَاءِ ؟ وَمَنْ لَكَ بِمُؤْنِسٍ لَا يَنَامُ إِلَّا بِنَوْمِكَ ، وَلَا يَنْطِقُ إِلَّا بِمَا تَهْوَى ؟ آمَنُ مِنَ الْأَرْضِ وَأَكْتَمُ لِلسِّرِّ مِنْ صَاحِبِ السِّرِّ ، وَأَضْبَطُ لِلْوَدِيعَةِ مِنْ صَاحِبِ الْوَدِيعَةِ ، وَأَحْفَظُ لِمَا اسْتُحْفِظَ مِنَ الْأُمِّيِّينَ ، مِنَ الْأَعْرَابِ الْمُعَرَّبِينَ .

---

(١) فى ك

بَلْ مِنَ الصِّبْيَانِ قَبْلَ اعْتِرَاضِ الْأَشْغَالِ ، وَمِنَ الْعُمْيَانِ قَبْلَ التَّمَتُّعِ بِتَمْيِيزِ الْأَشْخَاصِ ، حِينَ الْعِنَايَةُ تَامَّةٌ لَمْ تَنْقُصْ ، وَالْأَذْهَانُ فَارِغَةٌ لَمْ تُقْتَسَمْ ، وَالإِرَادَةُ وَافِرَةٌ لَمْ تَتَشَعَّبْ ، وَالطِّينَةُ لَيِّنَةٌ ، فَهِيَ أَقْبَلُ مَا تَكُونُ لِلطَّابِعِ ، وَالْقَضِيبُ رَطْبٌ فَهُوَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعُلُوقِ[1] ، حِينَ هَذِهِ الْخِصَالُ لَمْ يَبْلَ جَدِيدُهَا ، وَلَمْ يُفَلَّ[2] غَرْبُهَا ، وَلَمْ تَتَفَرَّقْ قُوَاهَا ؟

* * *

الأدب العربي قديما وحديثا

وَالْآنَ نَنْتَقِلُ بِكَ نُزُولاً عَلَى أَمَانَةِ الْبَحْثِ ، إِلَى التَّحَدُّثِ عَنْ نَوَاحٍ جِدٍّ هَامَةٍ تَتَّصِلُ بِأَقْرَبِ وَشِيجَةٍ[3] ، وَأَمَسِّ وَسِيلَةٍ فِيمَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ ، وَهِيَ

(١) الاستمساك والثبات (٢) لم يثلم حدها (٣) الوشيجة : الصلة والقرابة

التَّحَدُّثُ عَنْ أَدَبِنَا الْعَرَبِيِّ ، رَغْبَةً فِي إِنْهَاضِهِ مِنْ عِثَارِهِ ، وَإِقَالَتِهِ مِنْ كَبْوَتِهِ ، وَحُسْنِ تَرْجِيَتِهِ وَتَوْجِيهِهِ ، إِلَى الِانْبِعَاثِ وَالْحَيَاةِ وَإِلَى الِانْتِعَاشِ وَالازْدِهَارِ ، تَمَشِّيًا مَعَ الْعَصْرِ ، وَتَحْقِيقًا لِلْبَانَاتِ[1] ، وَإِمْدَادًا لِلرَّغَبَاتِ . . . هَذِهِ النَّوَاحِي هِيَ الْأَدَبُ الْحَدِيثُ ، وَحَالُهُ مِنْ حُدُودٍ وَآفَاقٍ وَمَنَاحٍ ، وَإِنْ كُنَّا نَلْقَى شَتَاتًا مِمَّا نُرِيدُهُ ، وَشُذُورًا مِمَّا نَبْتَغِيهِ ، مُبَعْثَرَاتٍ فِي غَيْرِ اجْتِمَاعٍ : مُنْتَثِرَةً فِي غَيْرِ الْتِئَامٍ ، كَأَنَّهَا الرَّذَاذُ مِنَ الْوَبْلِ ، وَالرَّشْفَةُ مِنَ النَّهَلِ ، وَالذِّكْرَى مِنَ الْوَصْلِ ، وَالْأَلِفُ مِنَ الْفَصْلِ مُتَفَرِّقَةً . أَوْ هِيَ الْبَسْمَلَةُ مِنَ الْكِتَابِ ، وَالْإِظْفَرُ مِنَ الرِّقَابِ ، وَالثَّرَى مِنَ الشِّهَابِ وَالْمِهْمَزُ مِنَ الرِّكَابِ

(١) الرغبات

هُنَا وَهُنَاكَ . أَمَّا النَّاحِيَةُ الثَّانِيَةُ ، فَإِنَّهَا عَنِ الْأُولَى تَوَلَّدَتْ ، وَعَنْهَا تَمَخَّضَتْ ، وفِي ظِلِّهَا تَرَعْرَعَتْ ، نُرِيدُ بِهَا ، الْقِصَّةَ ، وَمَا لَهَا مِنْ مَسِيسِ صِلَةٍ بِالْأَدَبِ الْحَدِيثِ عَامَّةً ، وَمِنْ شَدِيدِ حَاجَةِ الْأَدَبِ الْمِصْرِيِّ إِلَيْهَا خَاصَّةً .

وَلَسْنَا نَزْعُمُ لَكَ هُنَا ، أَنَّا أَصَبْنَا الْمَحَزَّ[1] ، وَوَافَيْنَا الْغَايَةَ ، بَلْ هُوَ جَهْدٌ تَمْهِيدِيٌّ ، وَنَظْرَةٌ عَجْلَى ، وَمُحَاوَلَةٌ مُتَوَاضِعَةٌ ، مِنْ رَجُلٍ مُتَوَاضِعٍ ، وَبِعِبَارَةٍ أَدَقَّ ، لَمْ يَعْدُ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ ، وَأَثْبَتْنَاهُ لَكَ ، عَنْ نَفَثَاتِ مَخْزُونٍ ، يَصْدِمُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ ، الشَّائِهُ مِنَ الْعِبَارَاتِ ، وَالْمُمْتَلِخُ[2] مِنَ الْأَسَالِيبِ ،

(١) بلغنا الغاية وأصبنا الهدف (٢) الممتلخ : الفاسد الضعيف

وَالنَّابِي[١] مِنَ الْأَلْفَاظِ ، وَالْمُتَعَثِّرُ مِنَ الْمَعَانِي ، وَالْقَلِقُ مِنَ الْمَبَانِي ، وَالْمُتَخَيَّرُ مِنَ الْأَخْيِلَةِ ، وَالْفَقِيرُ مِنَ التَّصَوُّرَاتِ : فَلَمْ يَرَ أَمَانَةً لِلْبَحْثِ الْهَادِئِ الْمُطْمَئِنِّ ، الْمُتَيَقِّنِ مِنْ عَدَالَةِ مَا يَطْلُبُ ، وَرَجَاحَةِ مَا يَلْتَمِسُ ، وَأَصَالَةِ مَا يَبْغِي . أَنْ أُصَوِّرَ تِلْكَ النَّاحِيَتَيْنِ فِي إِيجَازٍ وَاخْتِصَارٍ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِنِيَّةِ الْهُدَى وَالتَّوْجِيهِ ، وَالْبِنَاءِ وَالتَّشْيِيدِ ، فَعَلَى الْأَقَلِّ لِلتَّأْرِيخِ الْأَبْجَدِي حَسْبُ ، تَارِكاً لِمَشْيَخَةِ الْعُلَمَاءِ ، وَحَصَافَةِ النَّقَدَةِ الْأُمَنَاءِ ، وَبَرَاعَةِ الْجَهَابِذَةِ الْأَكْفَاءِ ، سَدَادَ الْإِرْشَادِ ، لِتَقْوِيمِ الْأَوَدِ ، لِحَالٍ تُفَتِّتُ الْقُلُوبَ الْجَلَامِدَ ، وَتُدْمِي هَوَاتِنَ[٢] الْعُيُونِ الْجَوَامِدِ ، فَقَدْ وَاللهِ بَلَغَ السَّيْلُ

(١) المستكره على السمع والطبع والبعيد من الذوق (٢) هتن المطر هطل بشدة

الزُّبَى ، وَالْحِزَامُ الطِّبْيَيْنِ[١] ، وَقَدْ وَاللهِ شُدِهَ[٢] الْعَقْلُ وَالنُّهَى ، وَقَدْ وَاللهِ زَاغَ الرُّشْدُ وَالْحِجَى ، وَقَدْ وَاللهِ بَلَغَتِ الرُّوحُ التَّرَاقِيَ ، وَكُتِبَ عَلَيْنَا الْجُمُودُ بَعْدَ انْطِلَاقٍ ، وَالنُّكُوصُ[٣] إِثْرَ اسْتِبَاقٍ .

* * *

الأدب قديما وحديثا

وَالْآنَ لِنُحَاوِلْ سَوِيًّا مَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ مِنَ التَّقْدِمَةِ بِإِلْمَامَةٍ تَارِيخِيَّةٍ مُوجَزَةٍ فَنَقُولَ : —

كَانَ حَدُّ الْأَدَبِ فِي الْعُصُورِ الْمَاضِيَةِ ، هُوَ الْكَلَامُ الْجَمِيلُ بِالنِّسْبَةِ لِعَصْرِهِ وَجِيلِهِ ، وَوَسَطِهِ وَبِيئَتِهِ ، وَكِيَانِهِ وَمُشْتَمَلِهِ ، وَإِنْ عَدَدْنَاهُ نَحْنُ فِي

(١) المفرد طبي بالكسر ويضم : حلمة الضرع من ذات خف وحافر وظلف : أى جاوز الأمر حده (٢) شده : أى دهش وتحير .
(٣) النكوص : التقهقر والرجوع .

مَدَنِيَّتِنَا وَعَهْدِنَا ، وَصَقْلِنَا وَذَوْقِنَا ، مُسْتَكْرَهاً فَجّاً[١] ، وَغَلِيظاً فَظّاً .

وَكَانَ أَوَّلُ مَا ظَهَرَ مِنْ جَمَالِ الْكَلَامِ فِي الْعَالَمِ ، مَا جَرَى مَعَ الطَّبِيعَةِ فِي التَّنْغِيمِ والتَّرْنِيمِ ، أَيْ كَلَاماً كُلُّ جَمَالِهِ فِي عُذُوبَةِ أَنْغَامِهِ ، وَحُلْوِ رَنِينِهِ ، وَسَاحِرِ جَرْسِهِ[٢] : وَفَاتِنِ وَقْعِهِ ، إِذْ نَشَأَ الْإِنْسَانُ مُوسِيقِيّاً بِالْأُذُنِ ، كَمَا نَشَأَ فِي تَعْبِيرِ الْاِجْتِمَاعِيِّينَ — مَدَنِيّاً بِالطَّبْعِ ، فَقَدْ تَأَثَّرَ مِنَ الْبَدَاءَةِ بِالْأَصْوَاتِ الرَّتِيبَةِ مِنْ حَوْلِهِ ، فِي خَرِيرِ[٣] الْمَاءِ ، وَعَزِيفِ[٤] الرِّيَاحِ ، وَتَرْجِيعِ الطَّيْرِ ، وَهَزِيمِ[٥] الرَّعْدِ ، وَمُخْتَلِفِ

(١) الفج : غير الناضج الذوق ينبو عنه (٢) وساحر جرسه : أى صوته ووقعه (٣) خرير الماء : صوته الذى يسمع من قوة دفعه (٤) عزيف الرياح : صوتها ودويها (٥) هزيم الرعد : قصيفه .

الْأَصْوَاتِ فِي ظَوَاهِرِ الطَّبِيعَةِ الطَّلِيقَةِ الْمَدَى مِنْ حَوْلِهِ . فَكَانَ أَوَّلُ مَا تَحَرَّكَ شُعُورُهُ لِوَصْفِ حَالَاتِ نَفْسِهِ ، وَصِلَتِهِ بِالطَّبِيعَةِ فِي قَسْوَتِهَا أَوْ حَنَانِهَا عَلَيْهِ . انْبِعَاثَهُ إِلَى الْكَلَامِ الْجَمِيلِ فِي شَيْءٍ مِنَ انْتِظَامِ النَّغَمِ ، وَائْتِلَافِ الْوَقْعِ ، وَانْسِجَامِ التَّعْبِيرِ . فَكَانَ هَذَا — هُوَ أَوَّلَ ظُهُورِ الشَّاعِرِ ، حَتَّى لَقَدْ ذَكَرَ التَّارِيخُ أَوَّلَ شَاعِرٍ فِي بِدَايَةِ الْحَضَارَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، بِأَنَّهُ كَانَ مَعَ الشِّعْرِ أَوَّلَ مُغَنٍّ ، وَأَبَا الْعَازِفِينَ ، وَهُوَ « هُومِيرُوسُ » شَاعِرُ الْيُونَانِ ، يَعْزِفُ بِشِعْرِهِ عَلَى قِيثَارِهِ[1] ، وَيَتَنَقَّلُ فِي الْحَيِّ يُطْرِبُ السَّامِعِينَ .

* * *

أسبقية الشعر للنثر

كَذَلِكَ كَانَتْ بِدَايَةُ الشِّعْرِ قَبْلَ بِدَايَةِ النَّثْرِ ،

(١) القيثارة : آلة للموسيقى وهى الكمنجة

وَعَلَى هَذَا الْفَارِقِ مِنَ الْبِدَايَةِ ، ظَلَّا إِلَى النِّهَايَةِ ، فَكُلُّ مَا حَلَّتْ الْمُوسِيقِيَّةُ فِي الشِّعْرِ ، ازْدَادَ النَّاسُ حُبًّا لَهُ ، وَكُلَّمَا عَذُبَ ائْتِلَافُ الرَّوِيِّ فِيهِ ، اشْتَدَّ الْإِقْبَالُ عَلَيْهِ ، حَتَّى مَا يَطْلُبُ النَّاسُ مِنْهُ الْيَوْمَ ، غَيْرَ هَذَا وَنَحْوِهِ ، وَمَا يَقْتَضِيهِ مِنَ الْبَسَاطَةِ فِيهِ ، وَخِفَّةِ الْمَوْضُوعِ الَّذِي يَطْرُقُهُ ، وَوُضُوحِ الْمَعَانِي الَّتِي تَحْتَوِيهِ . فَالشِّعْرُ إِلَى الْيَوْمِ لَيْسَ مَطْلُوبًا إِلَّا عَلَى أَنَّهُ فَاكِهَةُ الْكَلَامِ ، وَزَهْرُ الْمَعَانِي ، وَعَذُوبَةُ الْبَيَانِ ، وَجَمَالُ التَّعْبِيرِ . فَإِنْ عَمُقَ(١) أَوْ غَمُضَ(٢) أَوْ دَقَّ(٣) لَمْ يَشْتَهِرْ شُهْرَةَ السَّهْلِ الْوَاضِحِ ، الْبَلِيغِ الْبَدِيعِ .

(١) عمق : بعد (٢) غمض : خفى مأخذه (٣) دق : خفى معناه

* * *

الشعراء والنشأة الانسانية

وَقَدْ عَرَفَتْ نَشْأَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ الشُّعَرَاءَ ، قَبْلَ أَنْ تَعْرِفَ الْكُتَّابَ ، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ احْتَاجُوا إِلَى تَطَوُّرٍ كَبِيرٍ فِي الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ حَتَّى يَظْهَرُوا ، إِذْ لَمْ يَبْتَدِئُوا مَعَ الطَّبِيعَةِ ، وَلَكِنْ تَخَلَّفُوا حَتَّى يَأْتُوا مَعَ الْحَضَارَةِ ، وَقَدْ بَقِيَ الْأَدَبُ فِي حُدُودِهِ الْأُولَى كَلَامًا جَمِيلًا ، فِي وَصْفِ الْحَيَاةِ الْأُولَى عَلَى بَسَاطَتِهَا وَسَذَاجَتِهَا[1] . وَظَلَّ كَذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ فِي الصِّفَةِ الشُّكْلِيَّةِ ، أَوِ الثِّيَابِ الَّتِي يَبْدُو فِيهَا ، وَالْغَلَالَاتِ[2] الَّتِي يُرْهَى بِهَا ، فَإِذَا لَمْ يَسْتَوْفِ شِعْرٌ أَوْ نَثْرٌ حَتَّى فِي عَصْرِنَا هَذَا جَمَالَ الثَّوْبِ ، وَحُسْنَ الشَّكْلِ ،

(١) الساذج : الفطرى الذى لا تعمل فيه (٢) الغلالة : الثوب الرقيق

وَرِقَّةَ الْغَلَالَةِ ، نَقَصَ فِي الْمَوَازِينِ ، وَقَلَّ فِي الْقِيمَةِ وَالِاعْتِبَارِ ، وَمَرَاتِبِ الْإِقْبَالِ وَالِاشْتِهَارِ .

وَكَانَ الْأَدَبُ عِنْدَ الْعَرَبِ هَكَذَا ، فِي حُدُودِ الْكَلَامِ الْجَمِيلِ ، حَتَّى لَقَدْ قَالَ الْجَاحِظُ : إِنَّ أَحْسَنَ الْكَلَامِ مَا كَانَ قَلِيلُهُ ، يُغْنِيكَ عَنْ كَثِيرِهِ ، وَمَعْنَاهُ فِي ظَاهِرِ لَفْظِهِ . فَإِذَا كَانَ الْمَعْنَى شَرِيفاً ، وَاللَّفْظُ بَلِيغاً ، وَكَانَ صَحِيحَ الطَّبْعِ ، بَعِيداً عَنِ الِاسْتِكْرَاهِ ، وَمُنَزَّهًا عَنْ الِاخْتِلَالِ ، وَمَصُوناً عن التَّكَلُّفِ ، صَنَعَ فِي الْقَلْبِ صَنِيعَ الْغَيْثِ[1] فِي التُّرْبَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَمَتَى فَصَلَتِ[2] الْكَلِمَةُ عَلَى هَذِهِ الشَّرِيطَةِ ، وَنَفَذَتْ مِنْ قَائِلِهَا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ ، أَصْحَبَهَا اللهُ مِنَ

(١) الغيث : المطر . والتربة الكريمة : الأرض الحرة الصالحة للزرع
(٢) نطق بها مستوفاة للشرائط التى قدمها

التَّوْفِيقِ ، وَمَنَحَهَا مِنَ التَّأْيِيدِ ، مَالاَ يَمْتَنِعُ عَنْ تَفَطُّرِ[١] صُدُورِ الْجَبَابِرَةِ ، وَلَا يَذْهُلُ[٢] عَنْ فَهْمِهِ عُقُولُ الْجَهَلَاءِ .

وَكَانَ كُلُّ مُنْحَصَرِ الْأَدَبِ فِى تَصْوِيرِ الْوُجْدَانِ ، وَكُلُّ هَمِّهِ رَسْمَ الْأَخْيِلَةِ وَخَلَجَاتِ[٣] الْعَاطِفَةِ ، وَلَـكِنَّهُ مَعَ ضِيقِ مُضْطَرَبِهِ[٤] ، وَانْحِصَارِ حُدُودِهِ ، كَانَ يُصَوِّرُ الْحَيَاةَ كَمَا كَانَتْ يَوْمَئِذٍ الْحَيَاةُ ، فَلاَ عَيْبَ عَلَيْهِ فِيمَا تَحَدَّدَ لَهُ ، وَلاَ يُلاَمُ فِيمَا وَقَفَ عِنْدَهُ ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّ الْأَدَبَ الْعَرَبِىَّ إِنَّمَا كَانَ يَنْقُصُهُ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْأَدَبِ ، أَوْ هَذَا الطِّرَازُ

(١) تفطر : أى تشقق (٢) يذهل : يغيب (٣) ما يختلج فى الصدر من خواطر النفس والوجدان (٤) حركاته

مِنْ صُوَرِ التَّفْكِيرِ ، إِذْ لَمْ تَكُنِ الْحَيَاةُ يَوْمَئِذٍ قَدِ اسْتَوْفَتْ هَذَا الَّذِى اسْتَوْفَتْهُ فِى دَوْرِهَا الْحَدِيثِ ، وَلَمْ تَسْتَكْمِلْ يَوْمَئِذٍ مَا اسْتَكْمَلَتْهُ مِنْ مَرَاحِلِ التَّطَوُّرِ ، حَتَّى بَلَغَتْ مَا قَدْ بَلَغَتْهُ الْآنَ .

* * *

التطور الأدبي الحديث

لَقَدْ تَغَيَّرَتِ الْحَيَاةُ فِى الْعَصْرِ الْحَدِيثِ ، فَاسْتَدَارَ الْأَدَبُ مَعَهَا ، يَتَغَيَّرُ هُوَ كَذَلِكَ بِتَغَيُّرِهَا ، لِأَنَّهُ لَيْسَ سِوَى مِرْآتِهَا ، وَالزُّجَاجَةِ الشَّفَّافَةِ الْأَدِيمِ الَّتِى تَعْكِسُ صُوَرَهَا ، وَمِنْ مُجَرَّدِ الْكَلَامِ الْجَمِيلِ الَّذِى كَانَ الْأَدَبُ يُحَدَّدُ بِهِ ، انْتَقَلَ إِلَى تَحْدِيدٍ آخَرَ ، لَا يَكَادُ يُعْتَبَرُ شَامِلاً ، مَهْمَا فَكَّرَ الْإِنْسَانُ فِى أَنْ يَصِفَهُ أَوْ يُوَفِّيَهُ ، لِأَنَّ الْأَدَبَ لَمْ يَعُدِ

التَّعْبِيرَ عَنِ الْوُجْدَانِ فَحَسْبُ، وَلَمْ يَبْقَ مَوْضُوعِيًّا وَكَفَى، وَلَكِنَّهُ تَرَامَى إِلَى أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ، فَشَمِلَ حُدُودَ الزَّمَنِ الثَّلَاثَةَ، فَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْمَاضِي، كَمَا يُعْنَى بِالْحَاضِرِ، وَيَتَطَلَّعُ إِلَى الْغَدِ، وَهُوَ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ، يَغْمُرُ الْحَيَاةَ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا، وَيَغُورُ فِي أَعْمَاقِهَا، وَمُسْتَدَقِّ[1] نَوَاحِيهَا وَزَوَايَاهَا، وَيَبْحَثُ فِي أَسْرَارِهَا وَنَفْسِيَّتِهَا، حَتَّى لَقَدْ أَصَابَ مَكْسِيمُ غُوْرْدْ، الْكَاتِبُ الرُّوسِيُّ الْعَظِيمُ فِي وَصْفِ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ بِمَا مَعْنَاهُ: إِنَّهُ عَيْنُ الدُّنْيَا الَّتِي بِهَا تُبْصِرُ، وَبَصَرُهَا الَّذِي بِهِ تَنْفُذُ إِلَى أَخْفَى زَوَايَا النَّفْسِ، وَيَنْدَسُّ فِي أَعْمَقِ خَوَالِجِ الْأَرْوَاحِ، بَلْ هُوَ قَلْبُ الْعَالَمِ،

(١) أى الخفى من شئونها

وَالطَّائِرُ الَّذِى يَحْمِلُ فِى جَنَاحَيْهِ فَرَحَ الْحَيَاةِ وَحُزْنَهَا ، وَأَحْلَامَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَآمَالَهَا ، وَأَحْقَادَهَا وَعَدَاوَاتِهَا ، وَبَأْسَهَا وَغَضَبَهَا ، وَتَقْدِيسَهَا لِلْجَمَالِ فِى الطَّبِيعَةِ ، وَمَخَافَتَهَا مِنْ أَسْرَارِهَا ، وَمَا وَرَاءَ حُجُبِهَا السُّمْكِ[1] ، وَأَسْتَارِهَا الْكِثَافِ[2] ، وَغَيْبِهَا الْمَجْهُولِ ، وَإِنَّ هَذَا الْقَلْبَ لَيَخْفِقُ أَيِّدًا ، وَيَنْبُضُ قَوِيًّا سَرِيعًا مِنَ الظَّمَإِ إِلَى الْمَعْرِفَةِ ، وَكَشْفِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَتَجْرِيدِهَا مِنْ كُلِّ أَغْشِيَتِهَا وَأَرْدِيَتِهَا وَأَكْسِيَتِهَا[3] ، كَأَنَّمَا يَجْتَمِعُ فِى هَذَا الْقَلْبِ سَائِرُ قُوَى الطَّبِيعَةِ نَفْسِهَا ، الَّتِى أَوْجَدَتِ الشَّخْصِيَّةَ الْإِنْسَانِيَّةَ ، لِكَىْ تَكُونَ أَسْمَى

(١) جمع سميك وهو ثخين الطبقات (٢) جمع كثيف وهو الصفيق
(٣) جمع كساء : وهو الثوب

تَعْبِيرٍ عَنْ عُقْدَةِ[١] سِرِّهَا ، وَنَوَاحِي حِكْمَتِهَا ، وَمَرْمَى آفَاقِهَا الْقَصِيَّةِ[٢] الْفِسَاحِ .

* * *

الأدب الفردى والمجموعى

لَقَدْ كَانَ الْأَدَبُ فِيمَا مَضَى « فَرْدِيًّا » يَجْرِى عَلَى التَّعْبِيرِ الشَّخْصِيِّ عَنْ وُجْدَانِ الْفَرْدِ وَمَشَاعِرِهِ ، وَلَكِنَّهُ فِى الْحَيَاةِ الْحَدِيثَةِ ، قَدِ اسْتَحَالَ مَجْمُوعِيًّا بِسَبَبِ تَنْظِيمِ الاجْتِمَاعِ ، وَاتِّسَاعِ مَدَى الْحَيَاةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، فَلَمْ يَعُدِ الْأَدَبُ ضَيِّقَ الْحُدُودِ كَمَا كَانَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَكِنَّ حُدُودَهُ أَصْبَحَتْ تُلِمُّ بِالْحَضَارَةِ الْعَصْرِيَّةِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهَا ، وَتُسَايِرُهَا فِى كَافَةِ نَوَاحِيهَا ، حَتَّى لَقَدْ تَجَوَّزَ فَرِيقٌ مِنَ النَّاسِ فِى

(١) المراد أنها تتناول الكشف عن خفى عللها بتفسير يقرب تلك العلل للافهام (٢) البعيدة . والفساح . الواسعة جمع فسيح

تَعْرِيفِ الْأَدَبِ ، فَلَمْ يَقِفْ بِهِ عِنْدَ مَا كَانَ التَّحْدِيدُ وَاقِفاً بِهِ قَبْلَ الْيَوْمِ ، مُجَرَّدَ صُوَرٍ وَأَخْيِلَةٍ وَوُجْدَانِيَّاتٍ ، وَلَكِنَّهُ ذَهَبَ فِي تَعْرِيفِهِ إِلَى حَدِّ أَنَّهُ أَصْبَحَ عِلْمَ الْحَيَاةِ كُلِّهَا مِنَ النَّاحِيَةِ النَّفْسِيَّةِ ، وَمِيزَانَهَا الدَّقِيقَ ، وَمِعْيَارَهَا الصَّحِيحَ ، وَمَبْلَغَ قُرْبِهَا مِنَ السُّمُوِّ ، وَمَدْنَاهَا[1] مِنَ الْكَمَالِ ، وَأَنَّ غَرَضَ الْأَدَبِ ، هُوَ الْارْتِفَاعُ بِالْإِنْسَانِ فَوْقَ مُسْتَوَى عَيْشِهِ ، وَدَرَجَةِ وُجُودِهِ ، وَمَرْتَبَةِ أَحْوَالِهِ ، وَهُوَ إِطْلَاقُهُ مِنْ أَغْلَالِ حَاضِرِهِ ، حَتَّى لَا يَرَى نَفْسَهُ عَبْدًا مُسَخَّرًا لِلْحَيَاةِ ، بَلْ يَشْهَدُ نَفْسَهُ مُسَخِّرًا مُخْضِعًا الْحَيَاةَ لِإِرَادَتِهِ ، وَمِنْ ثَمَّ لَيْسَ لِلْأَدَبِ مِنْ غَايَةٍ سِوَى

(١) ومدناها : قربها

إِحَالَةِ الْإِنْسَانِ خَالِقًا لِلْحَيَاةِ ، حُرَّ الْإِرَادَةِ ، طَلِيقَ الْمَشِيئَةِ ، مُخْتَارًا فِي دُنْيَاهُ ، غَيْرَ مُسَيَّرٍ وَلَا كَارِهٍ .

وَقَدْ كَانَ الْأَدَبُ فِيمَا مَضَى سَلْوَةً وَمَلْهَاةً[١] ، فَأَضْحَى مَعَ تَنَوُّعِ الْحَضَارَةِ وَاتِّسَاعِ مَدَاهَا ، جَامِعًا بَيْنَ الْمَلْهَاةِ وَالْإِفَادَةِ ، وَالتَّسْلِيَةِ وَالثَّقَافَةِ ، وَتَحْلِيلِ الْإِنْسَانِ فَرْدًا وَمَجْمُوعًا ، فَرِحًا وَجَزُوعًا ، قَانِعًا وَطَمُوعًا ، شَامِلًا الْحَاذِقَ الْبَاهِرَ ، وَالصَّانِعَ الْمَاهِرَ ، مَعَ الصَّيْرَفِيِّ[٢] الْخَبِيرِ ، وَاللَّوْذَعِيِّ[٣] الْقَدِيرِ ، فَكَأَنَّهُ هُوَ الْمَعْلَمَةُ[٤] الْمُتَكَلِّمَةُ ، وَالْمَوْسُوعَةُ[٥] الْمُتَجَمِّعَةُ ، بَلْ هُوَ السُّؤْلُ وَالطَّلَبُ ، وَالْمَفْزَعُ[٦] وَالْأَرَبُ[٧] ،

(١) ولهواً وهو مصدر ميمى (٢) الصيرفى الذى يزن النقود ويميزها
(٣) اللوذعى الذى يظن بك الظ ن كأن قد رأى وقد سمعا
(٤) المعلمة : المعرفة (٥) أى أنه دائرة معارف كبرى (٦) الموئل الذى يفزع اليه (٧) الحاجة والمطلب

بَلْ هُوَ الْمُعَلِّمُ الْمُوَاسِي ، وَالطَّبِيبُ الْآسِي[١] ، وَالْمَائِحُ[٢] الْكَاسِي ، بَلْ هُوَ الْمَاضِي وَالْحَاضِرُ ، وَالْأَمَلُ النَّاضِرُ ، وَالْمُسْتَقْبَلُ الزَّاهِرُ ، بَلْ هُوَ الْأُمْنِيَةُ وَاللُّبَانَةُ ، وَالرَّغْبَةُ وَالْإِبَانَةُ ، بَلْ هُوَ مَجْمَعُ الْعَوَاطِفِ ، وَمَنْجَمُ[٣] الثَّوْرَاتِ وَالْعَوَاصِفِ ، بَلْ هُوَ مَنْطِقُ الْأَفْئِدَةِ وَالْقُلُوبِ ، وَمُفَسِّرُ الْأَحْلَامِ وَالْغُيُوبِ ، بَلْ هُوَ مُسْتَقَرُّ النَّاسِ ، وَمُتَفَجَّرُ الْإِحْسَاسِ ، وَمَثَارُ الْحَمَاسِ ، وَمَجْمَعُ الْأَنْفَاسِ ، بَلْ هُوَ الْجَمَالُ وَالْمُتْعَةُ ، وَالْقُنْيَةُ وَالتُّحْفَةُ ، وَالشَّرْعَةُ[٤] وَالنُّجْعَةُ ، بَلْ هُوَ الْحَيَاةُ وَالْوُجُودُ ، وَالنَّعِيمُ الْمَنْشُودُ ، وَالْفِرْدَوْسُ الْمَفْقُودُ ، ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَشْمَلُ

(١) الآسي المداوي من أسا يأسو (٢) المائح : المعطي
(٣) منجم : مصدر (٤) الشرعة والمشرعة : مورد الماء والنجعة ارتياد المرعى .

كُلَّ شَيْءٍ ، وَيَتَدَسَّسُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَيَغْمُرُ كُلَّ أُفُقٍ ، وَيَسْبَحُ فِي كُلِّ مُحَلَّقٍ[1] ، وَيَخْتَرِقُ كُلَّ حُجُبٍ ، وَيَنْفُذُ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ ، وَيَمْسَحُ بِيَدِهِ الْحَنُونِ عَلَى حُزْنِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَآلَامِهَا ، كَمَا يَدْفَعُ بِهَا إِلَى إِخْضَاعِ الْحَيَاةِ لِرَغْبَتِهَا وَعَمَلِهَا الْعَظِيمِ .

هَذَا هُوَ التَّطَوُّرُ الَّذِي عَزَّ الْأَدَبَ فِي الْعَالَمِ ، وَفَجَّرَ مِنْهُ عُيُونًا وَيَنَابِيعَ لِتَغْيِيرِ وَجْهِ الْحَيَاةِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ ، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تُسَمِّيَهُ ثَوْرَةً فَلْتُسَمِّهْ ، لِأَنَّهُ فِي الْوَاقِعِ جَاءَ عَنِيفًا سَرِيعًا ، وَأَتَى شَامِلًا كَامِلًا ، غَامِرًا الْحَيَاةَ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ .

* * *

اتساع أفق الأدب

وَمَا لَبِثَ أَنْ دَخَلَ عَلَى الْأَدَبِ شَيْءٌ كَثِيرٌ لَمْ

(١) فضاء يحلق فيه الطائر

يَكُنْ فِيهِ ، وَوُسِمَ بِغَيْرِ مَا كَانَ مِنْ قَبْلُ مِيسَمُهُ ، وَتَنَوَّعَتْ وُجُوهُ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَنَوَاحِي دِرَاسَتِهِ ، حَتَّى كَادَ يَدْخُلُ فِي الدَّائِرَةِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَتَحُورُ[1] إِلَيْهِ مُخْتَلَفُ النَّظَرِيَّاتِ الْاِجْتِمَاعِيَّةِ ، وَحَتَّى قَالَ كِبَارُ النُّقَّادِ فِيهِ : إِنَّهُ أَثَرٌ مِنْ أَفَاعِيلِ الْجِنْسِ وَالْبِيئَةِ وَالزَّمَنِ ، وَإِنَّهُ مَجْمُوعَةُ أَقْطَارِ الْإِنْسَانِ ، وَنَتَائِجُ عَقْلِيَّةِ الْأُمَمِ ، وَذَوْبُ قَرَائِحِهَا ، وَمِرْآةُ حَيَاتِهَا ، وَتَجْلِيَةُ صُوَرِهَا ، وَجَوْهَرُ عَرَضِهَا ، وَعَيْنُ إِنْسَانِهَا ، وَجُمْمَانُ هَيْكَلِهَا .

وَحَتَّى افْتَنُّوا فِي إِيجَادِ فُسَحَاتٍ لَهُ وَمَيَادِينَ ، وَأَجْوَاءٍ جَدِيدَةٍ لَهُ ، مِنْهَا مَا كَانَ سَاذَجًا فِيمَا مَضَى ، سَذَاجَةَ الْحَيَاةِ فِي الْعَصْرِ الْغَابِرِ نَفْسِهَا ، وَمِنْهَا مَا كَانَ

(١) تحور اليه : ترجع اليه

مِنْ صُنْعِ الْحَضَارَةِ الْعَصْرِيَّةِ نَفْسِهَا ، فَكَانَ الْأَدَبُ الْمَسْرَحِيُّ ، وَهُوَ الْيَوْمَ فِي الْأَوْجِ[1] ، كَنَوْعٍ مِنَ الثَّقَافَاتِ الْحَدِيثَةِ ، الَّتِي نَضَجَتْ وَاسْتَوَتْ ، وَبَلَغَتْ مَرَاتِبَ التَّجْدِيدِ وَالِافْتِنَانِ ، وَكَانَ الْقَصَصُ الِاجْتِمَاعِيُّ ، وَقَدْ أَصْبَحَ الْيَوْمَ مَصَبَّ أَسْمَى الْأَدَبِ ، وَأَبْلَغِهِ وَأَرْفَعِهِ شَأْنًا ، إِذْ أَدْرَكَ الْمُفَكِّرُونَ وَالْفَلَاسِفَةُ وَعُلَمَاءُ الْحَيَاةِ ، وَالَّذِينَ تَقَصَّوُا النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّجْرِبَةِ ، وَالْبَحْثِ عَنِ الدَّقَائِقِ وَالْأَجْزَاءِ ، أَنَّ حَيَاةَ الْفَرْدِ قَدْ شَغَلَتْهَا مَتَاعِبُ عَمَلِهِ ، وَمَشَاقُّ مُرْتَزَقِهِ ، وَكَدُّهُ الْمُتَوَاصِلُ لِلْعَيْشِ ، فَلَا يَنْبَغِي حَمْلُهُ عَلَى فَهْمِ الْأَدَبِ الْجَافِّ ، وَقِرَاءَةِ السَّنِيِّ السَّرِيِّ

(١) فى الذروة

الْمَلِيءِ بِالتَّحْلِيلِ وَالاسْتِقْصَاءِ ، وَلَكِنْ يَصِحُّ تَقْدِيمُ الْأَفْكَارِ وَالنَّظَرِيَّاتِ وَالْفَلْسَفَاتِ الْمُحْدَثَةَ إِلَيْهِ فِي صِيَغٍ مِنْ سَهْلِ الْكَلَامِ ، وَثِيَابٍ مِنَ الْقَصَصِ الرَّفِيعِ ، حَتَّى لَا يَشْعُرَ بِمَذَاقِهَا حِرِّيفاً ، وَلَا يَضْجَرَ مِنْ قِرَاءَتِهَا جَافَّةً ، وَإِنَّمَا تَسْرِي إِلَى نَفْسِهِ مَسْرَى خَفِيًّا رَفِيقاً ، لَا تَصْدِمُهُ صَدْمَةً قَدْ يَجْفَلُ[1] مِنْهَا ، أَوْ تُوَاجِهُهُ بِحَقَائِقَ مُبَاغِتَةٍ لَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِهِ أَنْ تَظْهَرَ لَهُ دَاهِمَةً فَاجِئَةً .

* * *

القصة وَقَدْ كَادَ يُصْبِحُ جُمْهُورُ الْأُدَبَاءِ الْكِبَارِ فِي الْعَالَمِ قَصَّاصِينَ ، وَأَصْبَحَتِ الْقِصَّةُ الْعَصْرِيَّةُ فِي

(١) جفل الرجل : ارتعد لأمر فاجأه

مُسْتَوَاهَا الرَّفِيعِ آخِرَ طَوْرٍ فِى الْأَدَبِ ، وَأَحْدَثَ صُورَةٍ لَهُ ، وَأَدَقَّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِهِ .

* * *

التراجم وَقَامَ بِجَانِبِ هَذَا الْفَنِّ نَوْعٌ يُنْظَرُ إِلَيْهِ ، وَمَنْحًى يُطِلُّ عَلَيْهِ ، وَأَدَبٌ يُشَابِهُهُ ، لِأَنَّهُ يَجْرِى فِى الْوَاقِعِ مَجْرَى السَّرْدِ وَالسِّيَاقِ ، وَالرِّوَايَةِ وَالتَّحْلِيلِ النَّفْسِىِّ ، وَهُوَ أَدَبُ التَّرَاجِمِ ، وَسِيَرُ الْمَشْهُورِينَ ، وَالْبَحْثُ فِى حَيَاةِ الْأَعْلَامِ وَالْأَبْطَالِ وَالْعُظَمَاءِ ، فَإِنَّ هَذَا الْوَجْهَ مِنَ الْأَدَبِ ، قَدْ شَاعَ فِى عَصْرِنَا الْحَدِيثِ ، وَاتَّجَهَتْ الْعِنَايَةُ إِلَيْهِ ، لِأَنَّ الْبَحْثَ عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَدَقُّ مَا يَكُونُ ، إِذَا هُوَ اتَّجَهَ نَحْوَ الْبَحْثِ عَنِ الْإِنْسَانِ ،

فِى حَيَاةِ أَسْمَى شُخُوصِهِ[1] ، وَأَرْفَعِ أَفْرَادِهِ ، وَالَّذِينَ بَرَزُوا فِى الْعَالَمِ ، وَقَادُوا الْإِنْسَانِيَّةَ إِلَى النُّورِ .

* * *

مجاراة الأدب العربى للغربى

وَقَدْ تَأَثَّرَ الْأَدَبُ لَدَيْنَا بِهَذَا الْإِحْدَاثِ فِيهِ عِنْدَ غَيْرِنَا . وَظَهَرَ بَيْنَنَا خَلْقٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ ، وَعَدِيدٌ مِنَ الْكُتَّابِ ، وَنَاظُورَةٌ مِنَ الْمُتَأَدِّبِينَ ، يُعْنَوْنَ بِسَدِّ النَّقْصِ فِى الْأَدَبِ الْعَرَبِىِّ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ الْجَدِيدَةِ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ لَا يَزَالُ الْمَجْهُودُ الَّذِى نَبْذُلُهُ فِى سَبِيلِ اسْتِكْمَالِ أَدَبِنَا عَلَى قِلَّتِهِ ، لَمْ يَتَّسِعْ بَعْدُ مَدَاهُ ، وَلَمْ يَنْفَسِحْ أُفُقُهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ يَسِيرُ بَطِيئًا وَلَكِنْ أَكِيدًا ، وَيَمْشِى عَلَى رِفْقٍ ، مُتَّزِنَ

(١) أعلى أفراده

الْخَطْوِ ، وَنَحْسَبُ فِي هَذَا الْبَطْءِ خَيْرًا لَهُ ، فَإِنَّ الْعَجَلَةَ مَفْسَدَةٌ ، وَالْانْدِفَاعَ مُؤَدٍّ إِلَى تَرْكِ كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ لاَ خَيْرَ فِي تَرْكِهِ وَتَفْوِيتِهِ ، عَلَى أَنَّ التَّجْدِيدَ الْمُنْتَظِمَ الْمُوَاتِيَ لَيْسَ يُلْقَى عَلَى عِذَارَى[1] الطَّرِيقِ ، وَطَرَفِ الثُّمَامِ[2] ، بَلْ هُوَ بِمَسِيسِ حَاجَةٍ إِلَى تَعَهُّدٍ وَسَقْيٍ ، وَتَسْمِيدٍ وَبَذْرٍ ، وَجَهْدٍ كُثْرٍ ، وَقُوَّةٍ مُجْتَمِعَةٍ ، وَعَزِيمَةٍ مُسْتَحْصَدَةٍ[3] ، وَإِمْسَاكٍ بِالْأَسَالِيبِ ، وَاحْتِفَاظٍ بِالتُّرَاثِ[4] ، وَاعْتِزَازٍ بِالنُّصُوصِ ، وَصِيَانَةٍ لِلرُّوحِ ، وَتَوْفِيَةٍ بِالصِّيَغِ الرَّوَائِعِ ، وَانْتِظَامٍ لِلنِّصَاحِ الْبَدَائِعِ ، وَتَزَمُّلٍ

(١) عذارى الطريق : جانباه أى ليس الحصول عليه سهلا هيناً
(٢) الثمام نبت صغير ضعيف وهى كالتى قبلها كناية عن السهولة
(٣) مستحصدة : قوية مجتمعة (٤) التراث : المال الموروث والمراد هنا ما ترك الأقدمون من الأدب

بِشَمَلَاتِ الْكَلِمِ الْجَوَامِعِ ، فِي غَيْرِ إِخْضَاعٍ لِلتَّصَوُّرِ وَالْفِكْرِ ، لِهَيْمَنَةِ[١] اللُّغَةِ وَالْفِقَرِ ، وَلَا إِذْلَالٍ لِلْبَلَاغَةِ وَالدُّرَرِ ، لِسُلْطَانِ الْعُلُومِ وَالْعِبَرِ . وَلَا تَعَنُّتٍ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ لِهَمَالِيجَ[٢] رُؤْبَةَ وَالْعَجَّاجِ ، وَاسْتِظْهَارٍ لِمِئَاتِ الْأَسْمَاءِ لِلْقَعُودِ وَالْأَتَانِ ، وَالصِّلِّ[٣] وَالْأُفْعُوَانِ ، وَالْإِبِلِ وَالْأَشْطَانِ[٤] ، وَالْعَلَلِ وَالنَّهَلِ ، وَالْخِمْسِ[٥] وَالسُّدْسِ[٦] ، وَالسُّعَارِ بِاللَّفْظِ الْمُسْتَكْرَهِ الْمَلِيخِ ، وَالْقَوْلِ الفَسْلِ الْمَسِيخِ ، وَطُولِ مُضَايَقَةٍ لِهِنْدٍ وَدَعْدٍ ، وَتَفْضِيلٍ لِرَضْوَى وَسَلْعٍ ، دُونَ الْأَهْرَامِ وَغَيْرِهَا

---

(١) لسيطرة (٢) رؤبة والعجاج كانا رجازان من رجاز العرب
(٣) الثعبان (٤) الحبال وأكثر ما تكون لأشطان البئر
(٥) الخمس للابل هو أن تعطش أربعة أيام وترد الخامس
(٦) السدس : أن تقطع الابل عن الماء خمسة أيام ثم ترد فى اليوم السادس

مِنَ الْبُقَعِ . وَإِفْزَاعِ لِامْرِئِ الْقَيْسِ وَشَيْطَانِهِ ، دُونَ إِيقَاظٍ لِشِكِسْبِيرَ وَجِبْرِيلِهِ ، لَيْسَ التَّجْدِيدُ جِنَّةً[1] بِاسْتِحَارِ الشِّجَارِ ، عَلَى اللَّفْظِ وَالْفِقَارِ ، وَتَكَاثُرٍ عَلَى الْبَدِيعِ وَالْجِنَاسِ ، دُونَ انْتِشَارٍ لِلْمَعْنَى وَالْقِيَاسِ ، وَاعْتِزَازٍ بِنَقْدِ أَبِي عُبَيْدَةَ وَسِيبَوَيْهِ ، وَالْأَصْمَعِيِّ وَنَفْطَوَيْهِ ، دُونَ « تَمَشٍّ مَعَ تين » أَوِ اسْتِفَادَةٍ مِنْ « سَالْسِبرِى » أَوْ دَرْسٍ « لِسَنْتُ بُوف » أَوْ تَعَرُّفٍ « لِدَلَامْبِير » وَالْأَخْذِ بِنَظَرِيَّاتِ ابْنِ حَزْمٍ وَالْفَارَابِى ، وَابْنِ سِينَا وَمَسْكَوَيْهِ ، دُونَ تَقَرٍّ « لِفَرُولْ » وَ « رِسْلْ » وَ « دِيكَارْتْ » وَ « الْفَرِيدِ دِيمُوسِّيهْ » وَلَا بِتَرْجِيعِ النَّقْدِ اللَّاذِعِ ، وَاللَّفْظِ الْقَاذِعِ ، وَالتَّسْفِيهِ

(١) جنة : أى جنون . واستحر : اشتد .

الْهَادِمِ ، وَالْإِمْسَاكِ بِاللَّهَازِمِ ، وَالْخِنَاقِ الْمُخْنِقِ ، وَالْقَوْلِ الْمُحْرِقِ ، عَلَى النَّقْدِ الْبَانِى ، وَالْأُسْلُوبِ الْهَادِى ، وَالْهَدْيِ الْحَادِى ، كَلاَّ — وَأَلْفَ مَرَّةٍ كَلاَّ ، بَلْ هُوَ أَنْ تَسْلُكَ النَّافِعَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ وَتُنَظِّمَهُ ، وَتُزَدْرِدَهُ وَتَهْضِمَهُ ، وَتَسْتَسِيغَهُ وَتَتَفَهَّمَهُ .

* * *

مستقبل الأدب

أَلاَ إِنَّ التَّجْدِيدَ الْحَكِيمَ الَّذِى يَجِبُ أَنْ نُنَادِىَ بِهِ وَنَسْتَعْجِلَهُ ، وَنُطِبَّ[1] بِهِ الدَّاءَ وَنَسْتَوْحِيَهُ ، وَنَتَرَصَّدَهُ بِالْعُيُونِ وَنَسْتَنْزِلَهُ ، وَالْجَدِيرُ بِحَالِنَا ، وَالْقَمِينُ لِعَهْدِنَا ، وَالْخَلِيقُ بِعَصْرِنَا ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلرُّوحِ وَالْجَوْهَرِ ، وَاللُّبَابِ الصَّمِيمِ ، وَأَجْنِحَةِ الْمَطَارِ ،

(١) نعالج به

وَمُسْتَطْرَفِ الِابْتِكَارِ ، وَمُسْتَحْدَثِ الْكَهْرُبَاءِ وَالْبُخَارِ . وَأَنْ تَكُونَ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ ، وَمَا لَنَا مِنْ ذَخِيرَةٍ أَدَبِيَّةٍ ، وَمُخَلَّفَاتٍ شِعْرِيَّةٍ وَنَثْرِيَّةٍ ، وَمُعَلَّقَاتٍ قَيْسِيَّةٍ ، وَبَدَائِعَ بُحْتُرِيَّةٍ ، بِمَثَابَةِ الْخَادِمَةِ الْأَمِينَةِ ، لِشَتَّى الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَالطُّرَفِ الْأُنُفِ الْعَالَمِيَّةِ ، الَّتِي لَيْسَتْ بِحُكْرَةٍ لِخَلْقٍ دُونَ خَلْقٍ ، وَلَا خَالِصَةً لِشَعْبٍ دُونَ شَعْبٍ . التَّجْدِيدُ الْحَكِيمُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا فِي مُتَخَيَّرِ لَفْظِهِ ، وَمُنْتَقَى لُغَتِهِ ، وَوَسِيعِ فَنِّهِ ، وَوَفِيرِ عِلْمِهِ ، وَمُسْتَدَقِّ خَيَالِهِ ، وَسَاحِرِ جَمَالِهِ ، وَأَخَّاذِ مَقَالِهِ ، عَلَى أَنْ يَصِفَ أَدَقَّ وَصْفٍ وَأَوْفَاهُ ، الْإِحَاسِيسَ الْفَرْدِيَّةَ ، وَشَتَّى الصُّوَرِ الذَّاتِيَّةِ ، وَمُسْتَدَقَّ الْعَوَاطِفِ الشَّخْصِيَّةِ ، فِي غَيْرِ هَلْهَلَةٍ[1] وَلَا اسْتِكْرَاهٍ ،

(١) أي ضعف وتبذل

وَلَا تَبَذُّلٍ وَلَا ارْتِخَاصٍ، وَفِي غَيْرِ تَبَرُّمٍ[١] وَلَا تَضْيِيقٍ.

التَّجْدِيدُ الْحَكِيمُ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْأَدَبُ فِيهِ عَالَمِيًّا وَشُعُوبِيًّا، وَإِنْسَانِيًّا وَإِجْتِمَاعِيًّا، مَعَ تِلْكَ الْمِيزَةِ الْعَرَبِيَّةِ السَّاحِرَةِ، وَتِلْكَ الْخَاصِّيَّةِ الْعَبَّاسِيَّةِ[٢] الرَّائِعَةِ، الَّتِي رَاقَ لَفْظُهَا، وَتَغَنَّى هَزَارُهَا[٣]، وَصَفَا أَدِيمُهَا، وَطَابَ وَقْعُهَا، وَفَتَنَ سِحْرُهَا، وَانْتَضَدَ[٤] دُرُّهَا. بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَمَا لَهُ مِنْ أَمْثَالٍ وَقَرَائِنَ، وَأَشْبَاهٍ وَنَظَائِرَ، يَكُونُ تَجْدِيدُ الْكَرَامَةِ وَالْعَقْلِ وَالْمَنْطِقِ.

* * *

مدرسة الأدب الحديثة

تَبْرُزُ الْمَدْرَسَةُ الْجَدِيدَةُ بِكُلِّ رَوْعَتِهَا وَجَلَالِهَا، وَتَنْبَثِقُ[٥] بِجِمَاعِ قِيَمِهَا وَتَعَالِيمِهَا، فَيَدْخُلُ فِيهَا النَّشْءُ

(١) التبرم: التضجر (٢) العباسية: نسبة إلى العصر العباسي، وهو العصر الذهبي للغة العربية (٣) الهزار: ذو صوت رخيم وهو العندليب (٤) انتضد: انتظم (٥) تنبثق: تضيء

أَفْوَاجاً ، وَيَتَغَيَّرُ بِكَثْرَةِ الْإِقْبَالِ عَلَيْهَا وَجْهُ الثَّقَافَةِ ، وَتَسِيرُ النَّهْضَةُ حَثِيثاً[١] بَعْدَ امْتِلَاكِ قُوَاهَا ، وَتَعَبُّدِ[٢] طَرِيقِهَا إِلَى الْفَلَجِ[٣] وَالنَّجَاحِ ، وَبِذَلِكَ كُلِّهِ ، وَمَا لَهُ مِنْ أَمْثَالٍ وَقَرَائِنَ ، وَأَشْبَاهٍ وَنَظَائِرَ ، يُمْكِنُنَا أَنْ نَطْمَعَ فِي أَدَبٍ عَرَبِيٍّ جَدِيدٍ ، جَامِعٍ مَانِعٍ ، وَإِنْ شِئْتَ أَوْ إِنْ شِئْتَ دِقَّةً وَتَحْدِيداً ، نَسْتَطِيعُ بِتَآزُرِنَا وَتَآلُفِنَا ، وَتَعَاوُنِنَا وَتَحَالُفِنَا ، أَنْ نَضَعَ لَبِنَاتٍ[٤] لَا بَأْسَ بِهَا ، فِي بِنَاءِ أَدَبِنَا الْقَوْمِيِّ الْجَدِيدِ .

* * *

ارتباط التاريخ بالأدب

أَمَا وَقَدْ انْتَهَيْنَا سَوِيًّا مِنْ إِثْبَاتِ وِجْهَةِ نَظَرِ

(١) حثيثاً : مسرعاً (٢) أى التمهيد (٣) الفلج : الظفر
(٤) اللبنات : الطوب النيء

التَّارِيخِ ، فِيمَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ مِنَ الْأَدَبِ عَلَى قَدْرِ الطَّاقَةِ ، وَتَنَاسُبِ الْمَقَامِ ، فَجَدِيرٌ بِنَا وَقَمِينٌ ، أَنْ نَتَقَدَّمَ دِرَاكًا ، وَنَمْضِيَ سِرَاعًا ، فَنَذْكُرَ كَلِمَةً أَبْجَدِيَّةً أُخْرَى ، بِلَا انْتِفَاخِ أَوْدَاجٍ[1] وَازْوِزَارٍ ، وَلَا تَسَامِي عَالِمٍ وَلَا اسْتِكْبَارٍ ، عَنِ الْأَدَبِ الْمِصْرِيِّ وَحَاجَتِهِ إِلَى الْقِصَّةِ فَنَقُولَ : —

* * *

نظرة الى الوراء

مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً ، أَوْ حَوَالَيْ ذَلِكَ ، بَدَأَ نَفَرٌ مِنَ الْكُتَّابِ ، قَرَءُوا شَيْئًا كَثِيراً مِنْ أَدَبِ الْغَرْبِ ، يَنْقُلُونَ عَنْهُ ، وَيَأْخُذُونَ مِنْهُ ، وَيُمَازِجُونَ بَيْنَ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي تَوَفَّرُوا عَلَى دِرَاسَتِهِ ، وَبَيْنَ أَدَبِ

(١) الأوداج : العروق . أى بلا زهو

الْغَرْبِ الَّذِى أُولِعُوا بِهِ ، فَكَانُوا الرُّوَّادَ[1] الْأَوَّلِينَ وَالْكَشَّافِينَ الْبَاحِثِينَ ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْفَتْرَةُ مِنَ الْحَرَكَةِ الْأَدَبِيَّةِ فِى مِصْرَ ، هِىَ فَتْرَةَ انْتِقَالٍ ، وَكَانَ الدَّوْرُ يَوْمَئِذٍ ، دَوْرَ النَّقْلِ وَالتَّعْرِيبِ .

وَلَا شَكَّ فِى أَنَّ فَضْلًا كَثِيرًا مِمَّا نَرَى الْيَوْمَ ، مِنْ مَعَالِمِ النَّهْضَةِ الْفِكْرِيَّةِ فِى الْبِلَادِ وَآثَارِهَا ، يَرْجِعُ إِلَى أُولَئِكَ الرُّوَّادِ ، وَيَعُودُ إِلَى مَا نَقَلُوهُ ، مُحْتَفِظِينَ فِيهِ عَلَى قَدْرِ الطَّاقَةِ ، وَطَبِيعَةِ الْعَصْرِ ، بِرُوحِ الْأَدَبِ الْعَرَبِىِّ ، وَأُمَنَاءَ بِهِ عَلَى مَعَانِى الْمُؤَلِّفِينَ ، وَلَكِنْ لَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَيْضًا فِى أَنَّ التَّرْجَمَةَ ، كَانَتْ يَوْمَئِذٍ فَوْضَى ، مُرْسَلَةً فِى غَيْرِ اتِّجَاهٍ مُعَيَّنٍ ، وَلَا جَارِيَةً

(١) الرواد جمع رائد : الذى يتقدم القوم يتعرف لهم الطريق

عَلَى نِظَامٍ مَحْدُودٍ ، وَإِنَّمَا مَيْلُ كُلِّ كَاتِبٍ يَقْرَأُ كِتَابًا فِى لُغَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ ، فَيَرُوقُهُ أَنْ يُوَافِقَ مِزَاجَهُ ، أَوْ يُصَادِفَ هَوًى فِى نَفْسِهِ ، أَوْ فِى نَفْسِ ذِى سُلْطَانٍ وَجَاهٍ ، لاَ يَلْبَثُ أَنْ يَنْقُلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ، غَيْرَ حَافِلٍ بِمَبْلَغِ جَدْوَاهُ[1] عَلَى حَرَكَةِ الْأَدَبِ ، وَلاَ مُتَرَيِّثٍ لِلتَّفْكِيرِ فِى مَوْضِعِهِ مِنْهَا ، أَوْ حَاجَةِ الْعَصْرِ ، وَمُقْتَضَيَاتِ الْجِيلِ .

* * *

أشباه الكتاب

وَجَرَى مَعَ هَؤُلاَءِ فِى هَذَا الدَّوْرِ آخَرُونَ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ الْأَدَبِ الْعَرَبِىِّ ، فَضَعُفَتْ أَسَالِيبُهُمْ ، وَرَثَّ نَسْجُهُمْ ، وَنَضَبَ مَاؤُهُمْ ، وَتَرَقَّعَتْ ثِيَابُ

(١) جدواه : فائدته

عَرَبِيَّتِهِمْ، وَانْتَحَوْا نَاحِيَةَ النَّقْلِ عَنِ الْقَصَصِ الْأُورُوبِّيِّ، فَأَشَاعُوا فِي مِصْرَ نَوْعًا مِنَ الرِّوَايَاتِ مُبْتَذَلًا[1]، وَمَلَأُوا السُّوقَ قِصَصًا سُوقِيَّةً مِنْ كُلِّ طِرَازٍ وَلَوْنٍ، مُنْفَرِدِينَ بِإِمْدَادِ الْقَارِئِينَ الْمِصْرِيِّينَ بِالْقِرَاءَةِ الرَّخِيصَةِ، بِمَا يَسْتَطِيعُونَهُ مِنَ الْقَصَصِ الْفَرَنْسِي، أَوْ رِوَايَاتِ الْغَرَامِ، أَوْ حِكَايَاتِ السُّرَّاقِ وَالشُّطَّارِ، وَمُخْتَلِفِ أَنْوَاعِ حَيَاةِ الْأَشْرَارِ.

وَكَذَلِكَ اخْتَلَطَ النَّقْلُ الصَّالِحُ، بِالنَّقْلِ غَيْرِ الصَّالِحِ، وَغَلَبَ هَذَا عَلَى ذَلِكَ، لِأَنَّهُ وَجَدَ رَوْحًا[2] إِلَيْهِ عِنْدَ الصِّغَارِ وَعَامَّةِ الْقُرَّاءِ، لِمَا يَهِيجُ بِهِ مِنَ الْحَوَاسِّ، وَتَنْبَعِثُ لَهُ كَوَامِنُ الْغَرَائِزِ، وَتَسْتَطِيبُهُ

(١) مبتذلا : محتقراً مرذولا (٢) روحاً : أى ارتياحاً

الْأَخِيلَةُ الصَّغِيرَةُ ، وَتَسْتَجِيبُ لَهُ عَاطِفَةُ أَنْصَافِ الْمُتَعَلِّمِينَ ، وَلِمَا تَضَمَّنَهُ مِنْ مَجْهُولٍ يَتَطَلَّبُ مَعْلُومًا ، وَمُبْهَمٍ يَسْتَلْزِمُ إِفَاضَةً وَكَلَامًا ، وَحُجُبًا تَشُوقُ[1] إِلَى اجْتِلَاءٍ .

وَمَضَى الْأَمْرُ عَلَى مَا بَدَأَ بِهِ جَمْعٌ مِنَ الرُّوَّادِ الْبَرَعَةِ فِي النَّقْلِ ، يَنْكَمِشُونَ[2] فِي تَعْرِيبٍ عَرَبِيٍّ حَسَنٍ ، وَآخَرُونَ مِنْ مُتَعَهِّدِةِ الْقَصَصِ الرَّخِيصِ ، يَزْحَمُونَ بِهِ السُّوقَ ، وَيَكَادُونَ يَنْفُونَ مِنْهَا النَّوْعَ الْحَسَنَ ، وَالصِّنْفَ الْمَقْبُولَ ، حَتَّى لَقَدْ مَضَتْ فَتْرَةٌ كَانَ فِيهَا الْقَصَصُ الشَّعْبِيُّ الْمَنْقُولُ مِنْ « مِيشِيلَ دِيفَاكُو » وَأَشْبَاهِهِ ، وَرِوَايَاتِ اللِّصِّ الشَّرِيفِ ،

(١) تشوق : أى تشوق (٢) ينكمشون : يسرعون مجدين .

« أرسين لوبين » وَمَا يَنْحُو نَحْوَهَا ، هُوَ أَرْوَجَ الْأَنْوَاعِ ، وَأَكْثَرَهَا شُيُوعاً فِي أَيْدِي الْقَارِئِينَ ، وَأَمْطَرَهَا وَابِلاً ، وَأَحْفَلَهَا إِدْرَاراً[1] لِلْمُعَرِّبِينَ ، وَكَانَتْ لِشِقْوَةِ اللُّغَةِ ، وَنَكْبَةِ الْأَدَبِ ، وَفَجِيعَةِ الْأُسْلُوبِ ، وَمُصِيبَةِ الثَّقَافَةِ ، وَفَسَادِ الذَّوْقِ ، مِعْوَلَ هَدْمٍ رَكِينٍ ، وَكَيْدَ عَدُوٍّ مُبِينٍ ، وَلَكِنْ لَمْ تَلْبَثِ النَّهْضَةُ الْعَامَّةُ فِي الْبِلَادِ ، أَنْ زَحَمَتْ هَذِهِ الْعَنَاصِرَ الدُّونِيَّةَ[2] فِي مَضَاجِعِهَا ، وَغَلَبَتْهَا عَلَى أَمْرِهَا ، بَعْدَ شُهْرَةٍ فِيهَا وَرَوَاجٍ ، وَظَهَارَةٍ[3] لَهَا وَسِيَاجٍ ، وَطَرِيقَةٍ وَمِنْهَاجٍ ، فَابْتَدَأَ طَوْرٌ آخَرُ ، مِنْ أَطْوَارِ الْحَرَكَةِ الْفِكْرِيَّةِ ، وَهُوَ طَوْرُ التَّأْلِيفِ ، وَأَضْحَى النَّقْلُ

(١) أى كسباً (٢) الدونية نسبة إلى الدون : وهو الوضيع
(٣) وظهارة : أى ووقاية وحماية . والسياج : السور

وَفْقَ الْحَاجَةِ ، وَالتَّعْرِيبُ قَدْرَ الصَّالِحِ الْمَنْشُودِ[١] ، وَإِنْ ظَلَّ الطَّابَعُ الْغَالِبُ لِلنَّقْلِ مِنْ أَدَبِ الْغَرْبِيِّينَ ، وَبَقِيَ الاِتِّجَاهُ مَاضِياً صَوْبَ سَدَادِ النَّقْصِ ، فِي نَوَاحِي الْأَدَبِ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ .

وَنُرِيدُ أَنْ نَقُولَ إِنَّ الْحَاجَةَ مَا زَالَتْ قَائِمَةً ، إِلَى الرَّقَابَةِ عَلَى كَثْرَةِ مَا يُخْرِجُهُ النَّقَلَةُ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ ، لِأَنَّ السَّوَادَ الْأَعْظَمَ مِمَّا يُنْقَلُ إِلَيْنَا ، أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى النَّقْدِ الْبَادِي ، وَلِأَنَّهُ أَبْعَدُ شَيْءٍ مِنْ حُسْنِ الاِخْتِيَارِ ، وَأَنْأَى مَا يَكُونُ عَنْ تَلَمُّسِ الْأَبْوَابِ ، الَّتِي مَا عَتَّمَتْ[٢] تَقْتَضِي الْعِنَايَةَ وَالتَّقْلِيبَ ، وَالتَّرْجَمَةَ وَالتَّعْرِيبَ .

(١) المنشود : المطلوب (٢) ما عتّمت : أى ما لبثت

* * *

الأدب العصرى الآن

بَيْدَ[١] أَنَّ فَرِيقاً مِنْ خِيرَةِ شُبَّانِنَا الَّذِينَ أَطَالُوا النَّظَرَ فِي آدَابِ الْفِرِنْجَةِ ، وَتَابَعُوا أَدْوَارَ الْحَرَكَاتِ الْأَدَبِيَّةَ عِنْدَ غَيْرِنَا ، مَا لَبِثُوا أَنْ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْعِنَايَةَ فِي هَذَا الدَّوْرِ مِنْ أَدْوَارِ التَّطَوُّرِ الْفِكْرِيِّ يَنْبَغِي أَنْ تَنْتَقِلَ إِلَى الْبَحْثِ فِي تَصْوِيرِ حَيَاتِنَا ، وَوَصْفِ مَشَاعِرِنَا ، وَأَحَاسِيسِنَا[٢] ، وَرَسْمِ نَهْضَتِنَا مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهَا ، فَظَهَرَ أَخِيراً مَا سَمَّوْهُ بِالْأَدَبِ الْعَصْرِيِّ ، أَوْ الْقَوْمِيِّ ، وَبَرَزَ لَهُ نَفَرٌ مِنَ الشَّبَابِ يَتَحَمَّسُونَ لَهُ ، وَيَنْضَحُونَ[٣] عَنْهُ وَيَتَحَدَّثُونَ عَنْ حَرَكَةِ التَّجْدِيدِ ، وَيَنْعَتُونَ أَنْفُسَهُمْ بِمَعَاشِرِ الْمُجَدِّدِينَ .

(١) غير (٢) جمع إحساس وهو الشعور الوجدانى (٣) ينضحون : يذودون ويدفعون

وَهِيَ حَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ ، طَالَمَا لَمْ يُقَصِّرْ أَصْحَابُهَا فِي إِصَابَةِ سَهْمٍ وَافِرٍ مِنْ نِصَاحٍ[1] أَسَالِيبِهَا الْعَرَبِيَّةِ ، وَلَمْ يُسْرِفُوا فِي دَعْوَى الِاعْتِزَازِ بِمَا هُوَ عَرَبِيٌّ لِأَنَّهُ عَرَبِيٌّ ، وَلَمْ يُبْعِدُوا فِي الْقَصْدِ بِإِمْسَاكِهِمْ بِتَلَابِيبِ[2] الْفِرِنْجِيَّةِ لِأَنَّهَا فِرِنْجِيَّةٌ فَحَسْبُ .

وَهُنَاكَ فَرِيقٌ ثَانٍ مِنَ الْمُتَرَيِّثِينَ[3] الَّذِينَ اشْتَطُّوا[4] فِي الدَّعْوَةِ لِمَذْهَبِهِمْ ، فَنَعَوْا[5] عَلَى عَصْرِ التَّرْجَمَةِ وَوَقَفُوا حَرَكَةَ النَّقْلِ مِنَ الْآدَابِ الْأُخْرَى . وَهُمُ الْآخَرُونَ لَمْ يُصِيبُوا الْهَدَفَ وَالْقَصْدَ ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُجْدِي عَلَى تَقَدُّمِ الْأَدَبِ الْقَوْمِيِّ الْمَنْشُودِ ،

(١) من نصاح الخ : أى من خالص (٢) تعلقهم بها (٣) المترثين : الذين يأبون الطفرة (٤) بالغوا (٥) عابوه

إِذِ الآدَابُ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ مُتَجَاوِرَةٌ أَوْ خَلِيطَةٌ ، تَعِيشُ وَتَنْمُو عَلَى التَّزَاوُجِ بَيْنَهَا وَالاخْتِلَاطِ ، وَالتَّلْقِيحِ[1] وَمَزْجِ الْعَنَاصِرِ الْمُخْتَلِفَةِ . وَنَحْنُ لَا نَزَالُ أَحْوَجَ مَا نَكُونُ إِلَى هَذَا الْمَزْجِ لِتَقْوِيَةِ دَمِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، وَتَجْدِيدِ شَبَابِهِ ، فَقَدْ سَبَقَنَا الْعَرَبُ فِي فُرُوعِهِ الْكَثِيرَةِ ، وَنَوَاحِيهِ الْمُتَعَدِّدَةِ . وَلَا يَزَالُ يَنْقُصُنَا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ ، إِذَا لَمْ يَتَوَاتَ[2] لَنَا دَفْعَةً وَاحِدَةً ، فَهُوَ بِلَا رَيْبٍ مُتَوَاتٍ رُوَيْدًا ، وَمَعَ التَّطَوُّرِ الْفِكْرِيِّ ، وَالْأَفَاعِيلِ النَّفْسِيَّةِ . وَكُلَّمَا تَقَدَّمَ بِبُطْءٍ ، تَوَطَّدَ وَجَاءَ قَوِيًّا ، غَائِرَ الْقَوَاعِدِ ، حَسَنَ الثَّمَرِ ، يَانِعَ الزَّهْرِ ، فَارِعَ[3] الْأَعْوَادِ ، رَفِيعَ الْعِمَادِ .

(١) التلقيح : التوليد (٢) لم يتوات : لم يتهيأ (٣) فارع الأعواد : طويلها

وَقَدْ رَأَيْنَا جَمْعاً مِنَ الشَّبَابِ الْمُجَدِّدِينَ ، قَدْ بَدَءُوا بِدَايَةً صَالِحَةً ، فِي أَكْثَرَ مِنْ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي الْأَدَبِ ، الَّتِي تَنْقُصُ أَدَبَنَا الْحَدِيثَ . وَلَا يَزَالُونَ مُتَوَفِّرِينَ عَلَى التَّجْدِيدِ فِيهَا وَالزِّيَادَةِ عَلَيْهَا ، وَاسْتِكْمَالِ الْأَفَانِينِ الصَّالِحَةِ لَهَا .

* * *

المدرسة الحديثة

وَإِنَّهُ لَيَجُوزُ لَنَا أَنْ نَقُولَ : إِنَّهُ قَدْ نَشَأَتْ مَدْرَسَةٌ جَدِيدَةٌ لِلشِّعْرِ ، وَأُخْرَى لِلنَّثْرِ ، وَهُمْ دَائِبُونَ[1] عَلَى تَعَهُّدِ الْأَدَبِ الْقَوْمِيِّ بِالتَّحْسِينِ وَالتَّجْدِيدِ وَالِاسْتِحْدَاثِ وَالتَّهْذِيبِ .

عَلَى أَنَّ نَاحِيَةَ الْقِصَّةِ لَا تَزَالُ تَقْتَضِي شَيْئاً كَثِيراً

(١) مواصلون جهودهم

مِنَ الْعِنَايَةِ ، وَلَمْ يَتَقَدَّمْ إِلَيْهَا غَيْرُ عَدَدٍ قَلِيلٍ مِنَ الْكُتَّابِ ، وَهُؤُلَاءِ مَعَ إِجْلَالِنَا لِمَشْكُورِ مَجْهُودِهِمْ ، وَتَقْدِيرِنَا لِنَاضِجِ ثَقَافَتِهِمْ ، وَاعْتِرَافِنَا بِوَافِرِ فَضْلِهِمْ ، وَإِشَادَتِنَا بِمُتَّقِدِ حَمَاسِهِمْ ، فَإِنَّنَا نَعْتَقِدُ أَنَّ رُوحَهُمُ الْأَدَبِيَّةَ الْمُتَوَاضِعَةَ ، تَجْعَلُهُمْ يَفْتَرِضُونَ مَعَنَا أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ بَعْدُ فِي دَوْرِ الدُّرْبَةِ وَحُدُودِ الْمِرَانَةِ ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَوُوا عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى الْإِجَادَةِ الْمَنْشُودَةِ ، وَبَرَاعَةِ الْإِفْتِنَانِ ، وَمُسَابَقَةِ الْعَرَبِ فِي بَابِ الْإِبْدَاعِ وَالْإِتْقَانِ

وَلَعَلَّ بَابَ الْقِصَّةِ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ لَمْ يَفْتَحِ « السِّيكُولُوجِي » الَّذِي نَفْهَمُهُ ، وَالْمَعْنَى الَّذِي نَتَذَوَّقُهُ ، وَالتَّحْلِيلَ الَّذِي نَسْتَسِيغُهُ لِأَحَدٍ مِنْ كُتَّابِ الْعَرَبِ الْغَابِرِينَ ، وَلَيْسَ عَلَى الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ مِنْ ذَلِكَ

عَابٌ[1] وَلَا ذَامٌ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْآدَابِ الْقَدِيمَةِ قَدْ خَلَا مِنْ هَذَا الْعُنْصُرِ فِي شَكْلِهِ التَّفْصِيلِيِّ الْحَاضِرِ، لِأَنَّ الرِّوَايَةَ لَمْ تَدْخُلْ عَلَى الْأَدَبِ إِلَّا مَعَ الْحَضَارَةِ الْحَدِيثَةِ، وَتَشَعُّبِ نَوَاحِي الْحَيَاةِ، وَتَعَقُّدِ الْعَاطِفَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَكَثْرَةِ مَنَازِعِهَا وَمَصَارِفِهَا، وَأَسْرَارِهَا وَمَنَاقِصِهَا، وَكَانَ أَدَبُ الدُّنْيَا فِي بَسَاطَةِ الْعُصُورِ الْأُولَى شِعْرًا، مَحْدُودَ الْأُفُقِ، بِقَدْرِ مَا كَانَتِ الْبِيئَةُ مَحْصُورَةَ الْمُضْطَرَبِ، ضَيِّقَةَ الْحُدُودِ، وَلَمْ يَعْرِفِ الْأَدَبُ الْيُونَانِيُّ الْقَدِيمُ الْقِصَّةَ عَلَى نَحْوٍ مِنَ الْمَعْرِفَةِ الْكَفِيلَةِ بِالتَّجْوِيدِ، وَالْإِلْمَامِ الْحَافِزِ بِالْمَزِيدِ، وَإِنَّمَا كَانَتِ الرِّوَايَةُ الْمَسْرَحِيَّةُ أَسْبَقَ مِنَ الْقِصَّةِ ظُهُورًا،

(١) عاب: أي عيب. وذام: أي ذم

لِأَنَّ الْحَيَاةَ الْقَدِيمَةَ كَانَتْ تَقْتَضِي لَهْواً عَامًّا ، يُتَاحُ[١] لِلْجَمَاعَاتِ ، وَكَانَ الْمَسْرَحُ خَيْرَ وَسِيلَةٍ ، لِأَدَاءِ هَذِهِ الْغَايَةِ ، كَمَا تَوَافَرَتْ فِيهِ مَزِيَّةُ التَّجْسِيمِ ، لِتُكْسِبَهُ الْأَثَرَ الْفَعَّالَ ، وَالتَّسْلِيَةَ الْمُحَسَّةَ ، وَالرُّوحَ الشَّعْبِيَّ الدِّيمُوقْرَاطِيَّ[٢] ، مِنْ تَعْمِيمِ الْمُتَعِ ، وَتَوْفِيرِ اللَّهْوِ ، كَعَامَّةِ طَبَقَاتِ النَّاسِ .

* * *

فن القصة

وَلَمْ تُصْبِحْ كِتَابَةُ الْقِصَّةِ فَنًّا مِنْ فُنُونِ الْأَدَبِ فِي أُورُوبَّا ، إِلَّا فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ ، وَإِنْ ظَلَّ بَدَاءَةً عَلَى قِلَّةٍ قَبْلَ ذَلِكَ ، خِلَالَ الْقَرْنَيْنِ السَّابِعَ عَشَرَ ، وَالَّذِي تَلَاهُ : وَإِنَّمَا افْتُنَّ فِيهِ وَجُوِّدَ ، وَحُذِقَتْ[٣] أَسَالِيبُهُ ، عَلَى مَرِّ الدُّهُورِ ، وَاتِّسَاعِ أَسْبَابِ الْعُمْرَانِ ،

(١) يتاح : يهيأ (٢) أى المبنى على المساواة (٣) فهمت على وجهها

وَنُمُوِّ الْحَضَارَةِ ، كَمَا أَسْلَفْنَا لَكَ ، وَتَشَعُّبِ أَسْبَابِ الْحَيَاةِ ، وَتَعَقُّدِ الْعَاطِفَةِ .

وَقَدْ كَانَتْ حَيَاةُ الْعَرَبِ تَجْرِى عَلَى الْبَسَاطَةِ وَالسَّذَاجَةِ ، فَلَمْ يَعْرِفُوا فَنَّ الْقِصَّةِ ، وَلَمْ تَكُنْ بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ ، لِسُهُولَةِ الْبِيئَةِ ، وَانْحِصَارِ الْمُحِيطِ ، وَحِجَابِ الْمَرْأَةِ ، وَاحْتِجَازِ[1] حُرِّيَّةِ النَّقْدِ ، وَلَكِنْ مَا كَادَتِ الدَّوْلَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ ، تَتَوَلَّى الْحُكْمَ ، حَتَّى أَخَذَ النَّقْلُ مِنَ الْآدَابِ الْأُخْرَى ، يَسِيرُ عَلَى نَهْجٍ مُتَّسِعِ النِّطَاقِ ، فَجَاءَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ بِكِتَابِ « كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ » وَهُوَ عَلَى أَلْسِنَةِ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ ، وَقَدْ أَحْدَثَ أَثَرًا بَالِغًا فِى حِينِهِ ، إِذْ أَعْجَبَ الْعَرَبُ

(١) احتجاز الخ : منعها أو تقييدها

بِهَذَا النَّوْعِ الْفَرِيدِ ، وَفُتِنُوا بِهِ ، وَذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ وَالْكُتَّابِ يَتَرَسَّمُونَهُ وَيَحْتَذُونَهُ ، وَيَضَعُونَ شِعْراً فِيهِ ، وَيَحْكُونَ بَعْضَ نَوَاحِيهِ ، وَلَكِنْ وَقَفَ الْأَمْرُ عِنْدَ حَدِّ الِاحْتِذَاءِ[١] ، وَسَقَطَ دُونَ الِابْتِكَارِ ، فَلَمْ تَظْهَرْ غَيْرُ تَجْرِبَةٍ أُخْرَى ، وَهِيَ تَجْرِبَةٌ بَدَائِيَّةٌ فِي صُوَرٍ مِنَ النَّوَادِرِ ، أَوْ طِرَازٍ مِنَ الْمَقَامَاتِ ، أَوْ مَنْحًى مِنَ الْخَطَرَاتِ[٢] وَالْأَخْيِلَةِ[٣] الْقَصَصِيَّةِ ، فَظَهَرَتْ مَقَامَاتُ الْحَرِيرِيِّ ، وَالْمَقَامَاتُ الْهَمَذَانِيَّةُ ، وَأَشْبَاهُهَا ، وَإِنْ ظَلَّ الْعَصْرُ الرُّوَائِيُّ خِلَالَهَا ضَئِيلًا ، لَمْ يَرْتَفِعْ إِلَى مُسْتَوَى الْقَصَصِ الْمَعْرُوفِ .

(١) الاقتداء (٢) ج خطرة وهى ما يعرض على الذهن من صور التفكير
(٣) الأخيلة جمع خيال . وهو معرض الصور الفكرية

* * *

ألف ليلة وليلة

وَقَدْ ظَهَرَ فِى الْعَهْدِ الْعَبَّاسِىِّ ، كِتَابٌ عَجِيبٌ فِى هَذَا الْبَابِ ، وَإِنْ بَقِىَ سِرُّهُ مَجْهُولًا ، وَظُرُوفُ تَأْلِيفِهِ غَامِضَةً ، وَهُوَ كِتَابُ أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ . الَّذِى أَعْجَبَ بِهِ الْغَرْبِيُّونَ ، وَأَسْرَفُوا فِى الإِعْجَابِ بِهِ ، حَتَّى جَعَلُوهُ مَضْرِبَ الْأَمْثَالِ ، فِى غَرَابَةِ الشَّرْقِ ، وَعَجَائِبِ صُوَرِ الْحَيَاةِ فِيهِ ، وَنَقَلُوهُ إِلَى لُغَاتِهِمْ جَمِيعاً ، فِى ذَهْلَةِ[1] الْمُتَحَيِّرِ بِهِ ، الْعَاجِبِ لَهُ وَالْمَأْخُوذِ .

عَلَى أَنَّ السِّيَاقَ الْقَصَصِىَّ فِى تِلْكَ اللَّيَالِى ، لَا يَزَالُ سَاذَجاً[2] ، وَالتَّحْلِيلَ النَّفْسِىَّ فِى شَخْصِيَّاتِهَا مُنْعَدِماً ، وَمُتَابَعَةَ أَسْرَارِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَعُقَدِهَا وَأَزْمَانِهَا

(١) أى ذهوله ودهشته (٢) فطرياً

وَدَخَائِلِهَا ، لاَ تَكَادُ تَبِينُ[١] فِى أَيَّةِ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِيهَا . وَكُلُّ طَرَافَةِ الْكِتَابِ ، وَإِمْتَاعِهِ ، أَنَّهُ مُثِيرٌ لِلْحَوَاسِّ ، غَرِيبُ الْأَلْوَانِ ، حَسَنُ التَّنَقُّلِ ، يَفْتِنُ[٢] الْقَارِىءَ فُتُونًا .

وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ اتَّسَعَتْ لِفَنِّ الْقِصَّةِ عِنْدَ الْعَرَبِ ، أَوْ سَاعَدَتِ الْبِيئَةُ عَلَى وُجُودِهِ ، لَمَا قَصَّرَ الْعَرَبُ فِيهِ ، بَلْ لَنَهَضُوا بِهِ وَانْفَسَحَ مُضْطَرَبُ التَّجْوِيدِ[٣] لَهُمْ ، لِحِدَّةِ ذَكَائِهِمْ وَسُرْعَةِ بَدَاهَتِهِمْ ، وَقُوَّةِ تَعْبِيرِهِمْ عَنِ الْخَلَجَاتِ النَّفْسِيَّةِ ، وَسُمُوِّ تَصْوِيرِهِمْ لِلطَّبَائِعِ وَالْحَوَادِثِ وَالْأَشْيَاءِ .

---

(١) تبين : تظهر (٢) أى يأخذ بمجامع قلبه أخذ السحر
(٣) التجويد : التحسين والتجميل

* * *

كتبنا والأدب الغربي

وَقَدْ أَخَذْنَا نَحْنُ الْمُحْدَثِينَ ، عَنِ الْأَدَبِ الْغَرْبِيِّ أَكْثَرَ فُرُوعِهِ ، وَعَالَجْنَا أَغْلَبَ أَلْوَانِهِ ، وَلَكِنَّا إِلَى الْيَوْمِ لَمْ نَضَعِ الْقَوَاعِدَ الْمَكِينَةَ ، لِفَنِّ الْقِصَّةِ ، عَلَى حِينَ تَوَافَرَتْ[1] لَدَيْنَا الْمُسْتَلْزَمَاتُ وَأَصْبَحَتْ حَيَاتُنَا ذَاتُهَا ، بِمَا امْتَلَأَتْ مِنْ حَوَادِثَ وَمَتَاعِبَ وَأَحْزَانٍ ، وَانْفِعَالَاتٍ وَعَوَامِلَ مُتَعَدِّدَةٍ ، مُذَلِّلَةً مَادَّةَ الْقِصَّةِ ، مُهَيِّئَةً أَدَوَاتِهَا وَأَسْبَابَهَا الْمُخْتَلِفَةَ .

وَلَا يَزَالُ لَدَيْنَا مِنْ أَسَالِيبِ الْكُتَّابِ ، مَا يُشْبِهُ التَّقْسِيمَ الْفَنِّيَّ ، الَّذِي تَوَافَرَ لِآدَابِ الْغَرْبِ ، وَفْقَ نَزَعَاتِ الْكُتَّابِ وَاتِّجَاهَاتِهِمْ . فَلَوْ أَنَّكَ أَرَدْتَ أَنْ تُعَيِّنَ فَرِيقَ « الرُّومَانْتِيكِيِّينَ » فِي أَدَبِنَا الْحَدِيثِ ،

(١) توافرت : اجتمعت والمستلزمات للقصة ما تستلزمه وتستدعيه

لَمَا أَعْجَزَكَ الْمَجِئُ بِأَسْمَائِهِمْ ، كَمَا أَنَّ « الرَّبَالِيزِيِّينَ » أَوِ « الْوَاقِعِيِّينَ » مَعْرُوفُونَ فِي الْبِلَادِ بِأَعْيَانِهِمْ . وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ مِنْ أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ الْمُنَوَّعَةِ ، فِي أُسْلُوبِ الْكَاتِبِ وَمَنْزَعِهِ . لَا يَزَالُونَ يَكْتُبُونَ عَلَى سَجِيَّتِهِمْ ، وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا أَنَّهُمْ مِنْ هَذَا الْفَرِيقِ أَوْ ذَاكَ .

* * *

كتاب فن القصة

وَقَدْ نَبَغَ لَنَا فِي السِّنِينَ الْأَخِيرَةِ شَبَابٌ ، أُوتُوا اسْتِعْدَادًا لِلْقِصَّةِ ، وَأَعَانَهُمُ الِاطِّلَاعُ عَلَى الْقَصَصِ عِنْدَ الْفِرِنْجَةِ . فَابْتَدَءُوا يُعْنَوْنَ بِهَذَا الْفَنِّ فِي تَجْرِبَةٍ تُبَشِّرُ بِثَمَرٍ صَالِحٍ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ ، وَيُرْجَى أَنْ تَنْمُوَ إِذَا تَعَهَّدَتْهَا الْعِنَايَةُ[1] ، وَتَتَأَصَّلَ لَهَا الْمَلَكَاتُ ،

(١) تتأصل : ترسخ

إِذَا لَقِيَتْ التَّشْجِيعَ الْحَافِزَ[1]، وَالِاحْتِثَاثَ[2] الْحَكِيمَ.

عَلَى أَنَّ مَا نَقَصَ فِى بَابِ النَّقْلِ عَنِ الْقِصَّةِ الْأُورُوبِيَّةِ، فِى هَذِهِ الْأَيَّامِ، نَشَأَ مِنْ تَعَدُّدِ الْأَلْوَانِ أَمَامَهُمْ، وَكَثْرَةِ الْأَنْوَاعِ لَدَيْهِمْ، فَإِنَّ الْعَيْبَ الَّذِى أَرَاهُ فِيمَا ظَهَرَ مِنَ الْقَصَصِ الْجَدِيدِ لِأُولَئِكَ الشَّبَابِ الْحَسَنِى الْبِدَايَةِ، أَنَّهُمْ قَصَرُوا عِلَاجَهُمْ، عَلَى نَوْعٍ بِذَاتِهِ، مِنْ أَنْوَاعِ الرِّوَايَاتِ، وَتَأَثَّرُوا مِنْ قِرَاءَتِهِمْ بِنَاحِيَةٍ مَحْدُودَةٍ مِنْ نَوَاحِى الْقَصَصِ، فَرَسَمُوا فِيمَا أَخْرَجُوهُ مِنَ الْقِصَصِ الْقِصَارِ، أَوِ الطِّوَالِ، صُوَراً مِنَ الْحَيَاةِ لَا تَتَّفِقُ مَعَ حَقَائِقِ الْبِيئَةِ، أَوْ نَمَاذِجَ مِنَ الشَّخْصِيَّاتِ، قَدْ تَكُونُ انْقَرَضَتْ أَنْوَاعُهَا،

(١) الباعث (٢) الاحتثاث: الاستئصال فى باب القصة

مِنَ الْمُحِيطِ الَّذِى نَعِيشُ فِيهِ ، وَقَدْ رَأَيْنَا كُتَّاباً مِنْهُمْ ، يَلْتَمِسُونَ مِنَ الْأَدَبِ الرُّوسِىِّ احْتِذَاءً وَقَوَالِبَ ، يَقِيسُونَ قِصَصَهُمْ عَلَى غِرَارِهَا وَمِثَالِهَا ، وَهِىَ لَا تَأْتَلِفُ وَالْحَيَاةَ الْمِصْرِيَّةَ الْحَدِيثَةَ فِى قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ .

* * *

كيف يسمو القصص؟

فَإِذَا مَا تَوَجَّهَتِ الْعِنَايَةُ إِلَى نَقْلِ أَلْوَانٍ مُخْتَارَةٍ ، مِنْ رَوَائِعِ الْقَصَصِ الْأُورُوبِّىِّ فِى مُخْتَلِفِ لُغَاتِهِ ، كَانَ لِذَلِكَ أَثَرُهُ الْبَلِيغُ فِى حَفْزِ الْمَلَكَاتِ ، وَإِبْرَازِ الِاسْتِعْدَادَاتِ . الْخَصِيبَةِ ، وَالسَّلِيقَاتِ[1] الصَّالِحَةِ لِهَذَا الْفَنِّ الْجَدِيدِ ، الَّذِى كَادَ يَغْمُرُ سَائِرَ فُنُونِ الْأَدَبِ فِى أُورُوبَّا ، وَيَزْحَمُ بَقِيَّةَ فُرُوعِهَا ، إِذْ رَاحَ الْكُتَّابُ يَلْتَمِسُونَ بَثَّ مَبَادِئِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ

(١) السليقة : الملكة الغريزية

الْجَدِيدَةِ ، فِى قَوَالِبَ مِنَ الْقَصَصِ ، لِتَرُوحَ سَهْلَةَ التَّعَاطِى ، لَيِّنَةَ الْمُتَنَاوَلِ ، حَبِيبَةً إِلَى النُّفُوسِ ، مُسْتَحْوِذَةً عَلَى الْأَذْهَانِ .

هَذَا هُوَ الَّذِى يَجِبُ أَنْ تَتَوَجَّهُ الْجُهُودُ الطَّيِّبَةُ إِلَيْهِ ، فَإِنَّ الْوَاقِعَ أَنَّ السُّوقَ قَدْ نَفَقَتْ[١] بِكَثْرَةِ مَا يُنْقَلُ مِنَ الرِّوَايَاتِ الشَّعْبِيَّةِ ، الْمَلِيئَةِ بِحَوَادِثِ[٢] الشُّرْطَةِ ، وَتَعَقُّبِ الْجُنَاةِ ، وَمُتَبَذِّلِ الْغَرَامِيَّاتِ ، مِمَّا طَغَى عَلَى الْأَدَبِ اللَّاتِينِىِّ ، فَكَادَ يُفْسِدُهُ إِفْسَاداً .

وَلَنَا فِى الْقَصَصِ الْإِنْجِلِيزِىِّ ، وَالْأَلْمَانِىِّ ، وَالرُّوسِىِّ ، وَالنَّوْعِ الْقَوِىِّ الْفَاضِلِ مِنَ الْقَصَصِ الْفَرَنْسِىِّ ، فُسْحَةٌ[٣] رَحِيبَةٌ لِسَدِّ هَذَا النَّقْصِ فِى

(١) نفقت السوق راجت (٢) كالذى ينشر على الجمهور المصرى باسم جونسون أو كارتر أو شارلوك هولمز وغيرها (٣) مدى واسع النطاق

الْأَدَبِ الْقَوْمِيِّ الْمِصْرِيِّ ، فَلَا يَبْقَى غَيْرُ تَوَافُرِ النِّيَّةِ ، وَصِدْقِ الْعَزِيمَةِ ، وَدَقِيقِ الْعِنَايَةِ ، وَحُسْنِ الْاِخْتِيَارِ ، لِإِعْطَاءِ الْعَصْرِ أَحْسَنَ الْقَصَصِ إِنْ شَاءَ اللهُ .

* * *

فن النقد وخطره

وَكَمْ كَانَ يَحْلُو لِي أَنْ أَتَحَدَّثَ طَوِيلًا عَنِ النَّقْدِ وَحَقِيقَتِهِ ، عِلْمًا وَفَنًّا ، وَتَارِيخًا وَتَطَوُّرًا ، وَمَا لَهُ مِنْ أَثَرٍ عَمِيقٍ يُعْتَدُّ بِهِ فِي تَوْجِيهِ نَهْضَتِنَا التَّجْدِيدِيَّةِ إِلَى الْإِنْتَاجِ وَالْبَقَاءِ ، وَالتَّشْيِيدِ وَحُسْنِ الْأَدَاءِ ، وَالتَّقَدُّمِ وَالنَّمَاءِ ، وَكَمْ كَانَ يَحْلُو لِي ، أَنْ أَسْتَفِيضَ مَعَكَ فِي الْقَوْلِ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَأُمِيطَ[1] لَكَ اللِّثَامَ ، عَمَّا لِنَصَفَةِ النَّقَدَةِ مِنْ سَدَادِ تَزْجِيَةٍ[2] ، وَحَكِيمِ تَوْجِيهٍ ،

(١) أميط : أكشف (٢) زجّاه تزجية : ساقه وسار به

وَحُسْنِ إِبَانَةٍ ، وَفَضْلٍ عَلَى الصِّنَاعَةِ ، وَمِنَنٍ فِى عُنُقِ التَّأْلِيفِ ، وَرَوَاجٍ لِلْكُتُبِ وَالتَّصْنِيفِ ، وَإِصَابَةٍ لِلنَّصَاحَةِ ، وَإِعَانَةٍ عَلَى الْفَصَاحَةِ ، وَكَمْ كَانَ يَحْلُو لِى ، أَنْ أُزَامِلَكَ فِى جَوْلَةٍ فِى تَلْخِيصِ كِتَابِ « سَالَسْبُورِى » فِى عِلْمِ النَّقْدِ ، وَأَنْ أُرَافِقَكَ فِى سِيَاحَةٍ فِى أَسْفَارِ « مَاكُولِى » ، وَمَا كَانَ لَهُ مِنْ إِرْشَادٍ إِلَى الْحَقَائِقِ ، فِى شُكْرٍ لِلنَّاشِرِ ، وَثَنَاءٍ عَلَى الْمُؤَلِّفِ ، فِى غَيْرِ افْتِيَاتٍ وَلَا إِعْنَاتٍ ، وَفِى نَأْىٍ عَنِ الْحِقْدِ وَالشَّحْنَاءِ ، وَالْجَدَلِ وَالْمِرَاءِ[1] ، وَالْإِقْذَاعِ[2] وَالْهِجَاءِ ، كَمْ كَانَ يَحْلُو لِى — ذَلِكَ كُلُّهُ وَمَا فِى سِلْكِهِ وَنِظَامِهِ ، لَوْلَا أَنَّ النِّيَّةَ مُنْصَرِفَةٌ إِذَا مَدَّ اللهُ فِى

(١) المراء : الجدل والمناقشة (٢) قذعه وأقذعه : رماه بالفحش وشتمه . والهجاء الذم

سِنِي الْعُمْرِ ، وَأَطَالَ فِي حَبْلِ الْحَيَاةِ ، إِلَى أَنْ أُفْرِدَ لَكَ كِتَابًا فِي هَـذَا ، وَأَنْ أَشْرَحَ لَكَ فِيهِ ، مَا لَهُ صِلَاتٌ بِالْأَدَبِ وَالْعَالَمِ ، وَأُعَرِّجَ لَكَ فِيهِ ، عَلَى مَضَارِّ الْخُصُومَاتِ وَالْاتِّهَامِ بِالزَّنْدَقَةِ ، وَالتَّشْكِيكِ فِي الْعَقِيدَةِ ، لِأَنَّ الْعِلْمَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْحَقِّ خَالِصًا ، وَالْأَدَبُ يَجِبُ أَنْ يُخْلَقَ لِلْفَنِّ مَحْضًا[1] ، وَالْفَنُّ يَجِبُ أَنْ يَتَّجِهَ لِلْجَمَالِ صِرْفًا ، وَالْجَمَالُ يَجِبُ تَجْلِيَتُهُ لِرَفَاهَةِ الْحِسِّ ، وَمُتْعَةِ الْعَيْنِ ، وَصَقْلِ الذَّوْقِ ، مُسْتَسَاغًا حُلْوًا

* * *

وسائل النجح وعدة الظفر

وَهَذِهِ فُصُولٌ لَعَمْرُكَ تَتَطَلَّبُ الدَّرْسَ وَالتَّقَرِّيَ ، وَالْفَرْيَ[2] وَالتَّقَصِّيَ ، وَلَكِنَّ قُصَارَى مَا نُثْبِتُهُ لَكَ

(١) المحض : الخالص من كل شيء يقال لبن محض أى لا ماء فيه وشراب محض لم يمزج بماء (٢) فرى الشيء قطعه والمراد التفصيل الدقيق : والتقرى والتقصى : التتبع للجزيئات والاحاطة بها

هُنَا ، التَّوَجُّهُ إِلَيْكَ بِالنَّصِيحَةِ — أَنْ تَجْعَلَ الدِّينَ السَّمْحَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَبِّكَ ، وَأَنْ تَتَّخِذَ مِنْ هَدْيِهِ[١] تَهْذِيبَ نَفْسِكَ ، وَتَقْوِيمَ عِوَجِكَ ، وَتَغْذِيَةَ رُوحِكَ ، وَأَنْ تَتَنَكَّبَ[٢] مَا وَسِعَكَ لَهَا مَزَالِقَ الْفِتَنِ ، وَاغْتِرَارَاتِ التَّرَدِّي ، وَمَجَاهِلَ التَّدَسِّي فِي الْخُصُومَاتِ ، الَّتِي تَقُومُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ ، وَبَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ ، وَبَيْنَ الْحَقِّ وَالْأُصُولَةِ ، وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ وَالْأُحْبُولَةِ[٣] ، وَبَيْنَ الْوِجْدَانِ وَالسَّخِيمَةِ[٤] ، وَبَيْنَ السَّلِيمَةِ وَالسَّقِيمَةِ ، وَبَيْنَ الصِّدْقِ وَالْمَيْنِ[٥] وَبَيْنَ الْقَصْدِ وَالسَّرَفِ ، وَبَيْنَ الِافْتِيَاتِ وَالْإِرْشَادِ ، وَبَيْنَ الِاعْوِجَاجِ وَالسَّدَادِ ،

(١) أى من التخلق بصفاته تعالى يقال . هَدَى هَدْيَ فلان . سار سيرته (٢) تنكب الطريق حاد عنها والمزالق جمع مزلقة : الموضع الذى تزل فيه القدم من وحل وغيره والمراد الابتعاد عن الفتن والشكوك (٣) شرك الصائد (٤) السخيمة : الاحنة والبغضاء (٥) المين : الكذب

وَبَيْنَ الْحِكْمَةِ وَالنُّورِ ، وَبَيْنَ الْإِفَادَةِ وَالْغُرُورِ ، وَبَيْنَ الرِّقَّةِ وَاللُّطْفِ ، وَالشِّدَّةِ وَالْعُنْفِ ، وَبَيْنَ التَّعْلِيمِ وَالتَّجْرِيحِ ، وَبَيْنَ الْإِبْهَامِ وَالتَّوْضِيحِ ، وَبَيْنَ الْمُلْتَوِي وَالصَّحِيحِ ، وَبَيْنَ اللَّفْظِ وَالْمَبْنَى ، وَبَيْنَ الْعِبَارَةِ وَالْمَعْنَى ، وَبَيْنَ الْإِجْحَافِ وَالْإِنْصَافِ ، وَبَيْنَ الْإِصْلَاحِ وَالْإِتْلَافِ ، وَبَيْنَ الْمَعْدَلَةِ وَالتَّحَيُّفِ[1] ، وَبَيْنَ الْإِفَادَةِ وَالتَّعَسُّفِ ، وَبَيْنَ الْإِجَادَةِ وَالتَّحَرُّفِ ، وَبَيْنَ الْعَقْلِ وَالشَّهْوَةِ ، وَبَيْنَ الزُّبْدِ وَالرَّغْوَةِ ، وَبَيْنَ الْهُدَى وَالتَّدَنِّي ، وَبَيْنَ الْجَنَى وَالتَّجَنِّي ، وَبَيْنَ الشِّفَاءِ وَالتَّشَفِّي ، وَبَيْنَ الْوَرَعِ وَالْغَايَةِ[2] ، وَبَيْنَ الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ .

(١) الظلم والانتقاص (٢) العلة والغرض

✡
✡ ✡

النقد وأثره

وَلَكِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَنْ نَجْتَزِئَ لَكَ الْقَوْلَ، بِأَنَّ النَّقْدَ هُوَ الْمُرْشِدُ الْبَرِئُ، وَالْمُعَلِّمُ الْمُؤَدِّبُ، وَالظَّهِيرُ الْمُعِينُ، الَّذِي يُقَدِّرُ مَتَاعِبَكَ فِي التَّأْلِيفِ، وَيُشِيدُ[1] بِأَوْجُهِ إِحْسَانِكَ، وَيُجْلِي لَكَ مَوَاطِنَ الضَّعْفِ، فِي أَدَبٍ وَلِيَاقَةٍ، وَحِذْقٍ وَلَبَاقَةٍ، مَعَ تَحْلِيلِ الْمَوْضُوعِ، شَخْصاً كَانَ أَوْ عَصْراً، إِلَى مَالَهُ مِنْ عَنَاصِرَ وَمُقَوِّمَاتٍ، وَأَثَرِ بِيئَةٍ وَوَسَطٍ، وَوِرَاثَةٍ وَدَمٍ، وَمَنْبَتٍ وَمَنْجَمٍ، وَمِزَاجٍ نَحِيزَةٍ[2]، وَطَبِيعَةِ إِقْلِيمٍ، إِلَى مَا يُلَابِسُ عَصْرَكَ مِنْ عُلُومٍ وَفُنُونٍ، وَحَقَائِقَ وَبِدَايَةٍ،

(١) يشيد: ينوه بذكره ويرفعه (٢) النحيزة: الطبيعة والسجية

وَنَظَرِيَّاتٍ وَأُسُسٍ ، وَمَدَارِسِ تَفْكِيرٍ ، وَقَوَاعِدِ جَدَلٍ ، وَأُصُولِ نَقْدٍ ، وَمَعَايِيرِ مَنْطِقٍ ، وَمَقَايِيسِ مُقَارَنَةٍ ، وَأَوْجُهِ مُوَازَنَةٍ ، وَتَنَاسُبِ مُقَدِّمَاتٍ ، وَاسْتِخْلَاصِ نَتَائِجَ ، وَفَهْمٍ لِطَرِيقَةِ « دِيكَارْتَ » وَتَعَرُّفٍ لِمَنَاهِجِ « كُولْرِيدِجْ » ، وَاسْتِيعَابٍ لِتَارِيخِ « سَالَسْبُورِى » ، وَانْتِهَالٍ مِنْ مَقُولَاتِ « مَاكُولِى » وَوَقْفَةٍ عَلَى أَطْلَالِ مَذْهَبِ « بُوَالُو » فِى اسْتِشْرَافٍ إِلَى نَاحِيَةِ الْجَمَالِ وَالْخَيْرِ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ ، وَدَرْسٍ لِلطَّبِيعَةِ الْمُرَكَّبَةِ فِى كُلِّ شَىْءٍ ، لِذَاتِهَا لَا لِأَشْخَاصِهَا ، وَوَصْفٍ لِلصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَامَّةِ ، وَالْفَضَائِلِ الْبَشَرِيَّةِ الْعَامَّةِ ، وَالطَّبَائِعِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الْعَامَّةِ ، كَمَدْرَسَةِ الْقَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ الَّتِى كَانَ فِى

طَلِيعَةِ كُمَاتِهَا[١] « كُورْنِى » « وَمُولْيير » « وَأَسِين » وَأَتْرَابِهِمْ وَأَشْبَاهِهِمْ ، وَانْتِقَالٍ إِلَى أَصْحَابِ الْمَذْهَبِ الْإِيجَابِيِّ ، وَهُمْ « أُوجِسْتْ كُنْتْ » « وَأَرَنِسْتْ رِينَانْ » وَرَائِدُهُمْ « تِينْ » الَّذِينَ يَتَوَخَّوْنَ الْبَرْهَنَةَ الْعِلْمِيَّةَ فِى كُلِّ شَىْءٍ ، وَيُرْجِعُونَ مُقَوِّمَاتِ الرَّجُلِ إِلَى الْجِنْسِ وَالْبِيئَةِ وَالطَّبِيعَةِ وَالزَّمَنِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ ، مَعَ إِلْمَامِنَا بِمَذْهَبِ — « فِرْدِينَانْدِ بُرُونْتِيرْ » ، فِى التَّدَرُّجِ وَالْانْتِقَالِ ، الْمَبْنِىِّ عَلَى فَلْسَفَةِ « دَارْوُن[٢] » فِى النُّشُوءِ وَالْارْتِقَاءِ ، مِنْ تَقْسِيمِ الْآدَابِ الْعَامَّةِ ، مِنْ وِجْدَانِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ ، وَشِعْرِيَّةٍ وَنَثْرِيَّةٍ ، إِلَى وَحَدَاتٍ وَفَصَائِلَ ، مِمَّا لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ الْإِسْهَابِ

(١) الكماة جمع كمى وهو الفارس الجرىء (٢) داروُن : صاحب مذهب النشوء والارتقاء

فِيهِ ، وَالشَّرْحِ لَهُ ، مَعَ أَخْذِنَا بِأَسَالِيبِ الْعَرَبِ ، وَتَذَوُّقٍ لِمَعْنَى الْجَمَالِ ، فِي صَفَاءِ رُوحٍ ، وَمَضَاءِ[١] عَزِيمَةٍ ، ونَفْسٍ طُلَعَةٍ[٢] ، وَرَهَافَةِ إِحْسَاسٍ لِلْمُوَازَنَةِ وَالْإِفَادَةِ ، وَاضْطِلَاعٍ بِقُدْسِيَّةِ الْعِلْمِ ، وَأَمَانَةِ الْبَحْثِ ، وَحُرْمَةِ الْعُقُولِ ، وَاسْتِكْنَاهٍ[٣] لِهَدْيِ الْجَدَلِ الْمُتَرَفِّقِ الْوَئِيدِ ، وَتَحَرُّزٍ مِنْ رِبْقَةِ[٤] التَّعَنُّتِ الْعَتِيدِ ، وَنُزُولٍ عَلَى سِيَاسَةِ التَّسْهِيلِ وَالتَّعْبِيدِ ، وَالتَّأْسِيسِ وَالتَّشْيِيدِ ، وَأَنْ تَكُونَ الرُّوحُ الْحَاكِمَةُ عَلَى سُلْطَانِ النَّقْدِ ، الْحَافِزَةُ إِلَى الِارْتِصَادِ[٥] لَهُ ، وَالتَّبَسُّطِ فِيهِ ، الْأَخْذَ بِصَفْوِ الْمُؤَلِّفِ ، لَا إِهْدَارَ جُهْدِهِ ، وَالْمُضِيَّ فِي

(١) مضاء السيف حدته (٢) النزاعة إلى الوقوف على كل خفي كثيرة الرغبات (٣) استكنه الشيء أدرك كنهه وحقيقته (٤) ربقة : أسر (٥) الارتصاد : الترقب

الْإِعَانَةِ لَهُ لَا التَّقَحُّمَ[١] لِانْتِقَاصِ أَثَرِهِ ، وَالتَّقَدُّمَ إِلَى شَدِّ أَزْرِهِ[٢] ، لَا التَّهَانُفَ[٣] بِذِكْرِهِ ، وَإِجْلَالَ صَنِيعِهِ فِي ذَوْبِ نَفْسِهِ[٤] ، وَاعْتِصَارِ[٥] ذِهْنِهِ ، وَسَهَرِ لَيْلِهِ ، وَمَتَاعِبِ تَحْصِيلِهِ ، وَدُؤُبِ إِكْبَابِهِ ، وَمُضْنِي أَمْضَائِهِ ، وَعَنَاءِ كِتَابِهِ ، بَدِيلاً مِنْ سِيَاسَةِ السُّخْرِيَةِ وَالتَّكْذِيبِ ، وَالْهَدْمِ وَالتَّخْرِيبِ ، وَاللَّوْمِ وَالتَّثْرِيبِ ، فِي غَيْرِ هَذْيٍ وَلَا تَعْقِيبٍ .

* * *

مكتبة الثقافة

« أَمَّا بَعْدُ » فَقَدِ انْتَوَيْتُ بِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ ، الْمُضِيَّ فِي إِصْدَارِ « مَكْتَبَةِ الْقِرَاءَةِ وَالثَّقَافَةِ الْأَدَبِيَّةِ »

(١) التقحم : الدخول فيه بشدة ومشقة (٢) الأزر : القوة والساعد
(٣) التهانف : الضحك سخرية واستهزاء (٤) ذوب نفسه : إرهاقها
(٥) اعتصار الذهن كناية عن إجادة التفكير

وَجَعَلْتُ شِعَارَهَا « الْوَقْتُ مِنْ ذَهَبٍ » . وَجَعَلْنَا قِسْمًا مِنْهَا بِحَجْمِ الْجَيْبِ ، لِيَسْهُلَ حَمْلُهَا ، وَلِيُتَاحَ اسْتِعْمَالُهَا ، فِى كُلِّ ظَرْفٍ وَآنٍ ، وَفِى كُلِّ مَوْضِعٍ وَزَمَانٍ ، أُسْوَةً[1] بِمَا فَعَلَهُ الْفِرِنْجَةُ فِى هَذَا الشَّأْنِ ، مُقْتَدِيًا فِيهَا بِمَطْبُوعَاتِ « تُوتِشْتِرَ الْأَلْمَانِيَّةِ » وَمَكْتَبَةِ الْجَيْبِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ ، وَجَامِعَةِ الْجَيْبِ الْأَمْرِيكِيَّةِ وَمَا فَعَلَهُ ابْنُ الْمُعْتَزِّ وَابْنُ الْمُدَبِّرِ ، وَالْمَاوَرْدِىُّ وَغَيْرِهَا ، حَتَّى لَا تُحْرَمَ الْمُؤَلَّفَاتُ الْعَرَبِيَّةُ الْمُعْتَبَرَةُ ، مِنْ هَذَا الْوَضْعِ النَّافِعِ الْجَدِيدِ . وَهَاكَ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ مِنَ السِّلْسِلَةِ الَّتِى انْتَوَيْنَاهَا مِنَ التَّحَدُّثِ عَنْ أَدَبِنَا الْعَرَبِىِّ وَقِسْمًا آخَرَ عَلَى غِرَارِ[2] الْكُتُبِ الْعَامَّةِ ، لِأَسْلُكَ[3] فِى عِقْدِهَا أَمْثَالَ كُتُبِ « الْغَزَالِىِّ » وَ « مُعْجَمِ الْأُدَبَاءِ »

(١) أسوة : اقتداء (٢) غرار : نمط وطراز (٣) لأسلك : لأنظم

وَ « نَفْحِ الطِّيبِ » وَ « الْحَيَوَانِ وَالْبَيَانِ » وَ « الْعِقْدِ الْفَرِيدِ » و « الْكَامِلِ لِلْمُبَرِّدِ وَابْنِ خِلِّكَانَ وَابْنِ مَسْكَوَيْهَ وَكَشْفِ الظُّنُونِ » وَمَا إِلَيْهَا مِنْ طِرَازٍ جَدِيدٍ ، مِنَ الشَّرْحِ وَالْإِيضَاحِ ، وَالضَّبْطِ وَالْإِفْصَاحِ ، وَالْبَيَانِ وَالنِّصَاحِ .

وَإِنِّي أَسْأَلُ اللهَ التَّوْفِيقَ فِيهَا ، وَالتَّمَامَ بِحُسْنِ حَوْلِهِ ، فِي إِصْدَارِهِمَا ، وَأَنْ يَتْلُوَ ذَلِكَ الْمَكْتَبَاتُ التَّارِيخِيَّةُ وَالْأَدَبِيَّةُ ، وَالْقَصَصِيَّةُ وَالْعِلْمِيَّةُ وَالْفَلْسَفِيَّةُ ، وَالْجُغْرَافِيَّةُ ، بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ .

* * *

الكتب العربية والذوق العصرى

« وَبَعْدُ » فَإِنَّ كُتُبَنَا الْعَرَبِيَّةَ عَامَّةً ، تَتَطَلَّبُ عِنَايَةً وَتَجْدِيدًا ، بَلْ إِنَّ الْمَطْبُوعَ مِنْهَا بِحَاجَةٍ إِلَى

تَحْقِيقٍ وَتَدْقِيقٍ، وَمُقَارَنَةٍ وَمُعَاوَدَةٍ، « وَالْعِصْمَةُ لِلّٰهِ »، وَلِكُلِّ عَصْرٍ وِجْهَتُهُ، وَلِكُلِّ وَقْتٍ ذَوْقُهُ، وَلِكُلِّ جِيلٍ اتِّجَاهُ، وَالْقِرَاءَةُ عَامَّةً، سَوَاءٌ أَكَانَتْ عَنِ الشَّخْصِيَّاتِ الْبَارِزَةِ، أَمِ الْآدَابِ الْبَالِغَةِ، أَمِ الْحِكَمِ الرَّائِعَةِ، أَمِ التَّوَارِيخِ الْمُدَقَّقَةِ، أَمِ الثَّقَافَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ، هَذِهِ كُلُّهَا بِحَاجَةٍ إِلَى الْإِصْلَاحِ وَالتَّهْذِيبِ، وَالتَّجْدِيدِ وَالتَّشْذِيبِ[1]، وَتَأْيِيدِ الْقَارِئِينَ، وَتَشْجِيعِ النَّاشِرِينَ، وَعَوْنِ الْحَاكِمِينَ.

* * *

وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُقَيَّضَ[2] لَنَا مَنْ يُوَفَّقُ إِلَى الْمُضِيِّ قُدُمًا فِي خِدْمَةِ كُتُبِ « الْمَقَّرِيِّ[3] »

(١) التشذيب: التهذيب والتنقيح (٢) يقيض: يهيّ
(٣) صاحب كتاب نفح الطيب

« وَابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ » ، « وَالْمُبَرِّدِ » ، « وَالْجَاحِظِ » ، « وَأَبِي حَيَّانَ التَّوْحِيدِيِّ » ، « وَعَلِيِّ بْنِ حَمْزَةَ الْأَصْفِهَانِيِّ » ، « وَالصَّغَانِيِّ » ، وَأَسْأَلُهُ مُبْتَهِلاً إِلَيْهِ ، جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَمِنَّتُهُ ، أَنْ يَحْشُرَنِي مَعَ تِلْكَ الزُّمْرَةِ الْعَامِلَةِ ، وَالنَّاظُورَةِ الدَّائِبَةِ ، الْمُكَرَّسَةِ[1] حَيَاتَهَا عَلَى إِحْيَاءِ الْأَدَبِ وَاللُّغَةِ ، وَخِدْمَةِ الثَّقَافَةِ وَالْقِرَاءَةِ ، بَيْنَ ظَهْرَانَيْ[2] النَّاشِئَةِ النَّاهِضَةِ ، بِمُؤَازَرَتِهِ[3] وَتَوْفِيقِهِ .

* * *

واجب الولاة نحو الثقافة

وَآمُلُ أَنْ يَتَدَبَّرَ وُلَاةُ الْأُمُورِ قِيمَةَ الزَّمَنِ ، وَأَنْ يَحْسِرُوا[4] عَنْ سَاقِهِمْ فِي تَوْجِيهِ نَظَرِ رِجَالِ

(١) المكرسة : الواقفة (٢) بين ظهرانيهم : أى وسطهم وفى معظمهم
(٣) بمؤازرته : مساعدته (٤) يحسروا الخ يكشفوا عن ساعدهم

التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ ، إِلَى بَثِّ التَّعَالِيمِ الصَّالِحَةِ . الَّتِي تَرْمِي إِلَى اسْتِفَادَةِ الشَّبَابِ النَّاهِضِ مِنْ أَوْقَاتِ الْفَرَاغِ ، وَأَنْ يُوَجِّهُوا الْعِنَايَةَ بِالْقِرَاءَةِ الْمُفِيدَةِ ، وَإِنْعَامِ النَّظَرِ فِي الْمُفْرَدَاتِ ، وَأَنْ يَتَفَهَّمُوا حِكْمَةَ « رِسْكُنْ » الَّتِي يَقُولُ فِيهَا « قَدْ تَقْرَأُ كُلَّ مَا فِي دَارِ الْكُتُبِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ ، وَتُصْبِحُ بَعْدُ كَمَا كُنْتَ ، إِنْسَانًا غَيْرَ مُتَعَلِّمٍ ، وَلَكِنْ إِذَا أَنْتَ قَرَأْتَ عَشْرَ صَفَحَاتٍ بِإِمْعَانٍ فِي كِتَابٍ طَيِّبٍ ، كُنْتَ — إِلَى دَرَجَةٍ مَّا — إِنْسَانًا مُتَعَلِّمًا » . كَمَا أَرْجُو أَنْ يَضَعُوا سِيَاسَةً « بِسِيكُلُوجِيَّةً » لِلِاسْتِفَادَةِ مِنْ أَوْقَاتِ الْعُطْلَةِ الدِّرَاسِيَّةِ ، وَذَلِكَ بِإِسْدَاءِ النُّصْحِ لِلطَّلَبَةِ بِطَرِيقَةٍ مُنَسَّقَةٍ سَهْلَةٍ أَيْ بِقِرَاءَةِ كُتُبٍ

مُعَيَّنَةٍ تُفِيدُهُمْ إِدْرَاكًا وَمَادَّةً وَثَقَافَةً ، وَأَنْ يَبْذُلُوا قُصَارَى[1] الْجُهْدِ فِي مُحَارَبَةِ تِلْكَ الْعَادَةِ الْقَبِيحَةِ الْمُسْتَرْذَلَةِ ، عَادَةِ « قَتْلِ الزَّمَنِ » وَأَنْ يُلْهِمُوا الْجَمِيعَ إِلَى أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ غَرَضٍ سَامٍ ، يَكُونُ هَدَفَهُ وَغَايَتَهُ وَمَفْزَعَهُ وَقِبْلَتَهُ ، وَأَنْ يَتَدَبَّرُوا قَوْلَ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ « إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ أَرَى أَحَدَكُمْ سَبَهْلَلاً ، لاَ فِي عَمَلِ دُنْيَا وَلاَ فِي عَمَلِ آخِرَةٍ » وَأَنْ يَسْتَكْثِرُوا مِنَ الْمَكْتَبَاتِ الْمُتَنَقِّلَةِ هُنَا وَهُنَاكَ ، فَشَدَّ[2] مَا نَحْتَاجُ إِلَى الْعِلْمِ الصَّحِيحِ وَالتَّهْذِيبِ الصَّحِيحِ ، وَالْأَدَبِ الصَّحِيحِ وَالذَّوْقِ الْعَامِّ الصَّحِيحِ .

(١) قصارى الجهد : غايته (٢) فشد : أى كثيراً ما نحتاج

* * *

التضافر العام على نشر الثقافة

كَمَا آمُلُ ، وَقَدْ عُنِيَ وُلَاةُ الْأُمُورِ فِي وِزَارَةِ الْمَعَارِفِ بِإِصْلَاحِ الْمَنَاهِجِ عَامَّةً ، وَفَتْحِ الْبَابِ عَلَى مِصْرَاعَيْهِ لِكُلِّ مُصْلِحٍ مُجْتَهِدٍ فِي إِثْرَاءِ لُغَةِ الْعَرَبِ ، وَكُتُبِ الْأَدَبِ : أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ خُطَّتِهَا الْحَكِيمَةِ الْمُسَدَّدَةِ إِزَاءَ الْمَدَارِسِ الْحُرَّةِ ، وَتَشْجِيعِهَا لِلتَّعْلِيمِ الْحُرِّ ، خُطَّةً مُمَاثِلَةً ، فِي سَخَاءٍ وَمُثَابَرَةٍ[1] ، إِزَاءَ الْمُؤَلِّفِينَ وَالنَّاشِرِينَ ، وَأَنْ يَبُثَّ[2] الْقَائِمُونَ بِشُئُونِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ ، فِي كُلِّ دَوْلَةٍ وَعَصْرٍ ، رُوحَ الْقِرَاءَةِ الْمُفِيدَةِ فِي نُفُوسِ الشَّبَابِ ، فَهُمْ عُدَّةُ الْمُسْتَقْبَلِ ، وَعِمَادُ الْأُمَّةِ ، وَصُرُوحُ[3] الْبُنْيَانِ ، فِي حَرَكَةِ حُرِّيَّتِهَا وَاسْتِقْلَالِهَا ، وَكَرَامَتِهَا وَرَفَاهِيَتِهَا[4] .

(١) المثابرة : المداومة والمواظبة (٢) يبث : ينشر (٣) الصروح جمع صرح : وهو البناء العالى (٤) ورفاهيتها : أى حضارتها ومدنيتها

* * *

نصيب دار الكتب من الثقافة

كَمَا آمُل مِنَ الْمَجْلِسِ الْأَعْلَى لِدَارِ كُتُبِنَا الْمَلَكِيَّةِ، أَنْ يُعْنَى بِطَلَبِ فَهَارِسِ دُورِ الْكُتُبِ الْعَالَمِيَّةِ، الَّتِي بِهَا فَضْلٌ[1] مِنْ مَخْطُوطَاتِ تَوَالِيفِنَا الْعَرَبِيَّةِ، وَأَنْ تَسْتَخْرِجَ أَسْمَاءَ تِلْكَ الْكُتُبِ، وَتَتَعَرَّفَ بِمُؤَلِّفِيهَا وَعُصُورِ كِتَابَتِهَا، وَأَنْ تَسْتَخْرِجَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ مِنْ فَهَارِسِهَا الْمَطْبُوعَةِ، الْكُتُبَ الْمَخْطُوطَةَ وَعُصُورَ كِتَابَتِهَا، ثُمَّ تُفْرِدَ لِلْمُؤَلِّفِينَ أَضَابِيرَ[2] خَاصَّةً، وَلِلْكُتُبِ النَّاقِصَةِ قَرَاطِيسَ مُحْتَجَزَةً[3] وَكَوَاغِدَ[4] مُعَيَّنَةً، لِيُؤْخَذَ فِي تَقَصِّي أَوْجُهِ تَكْمِلَتِهَا،

(١) فضل : أى زيادة (٢) أضابير : جمع إضبارة : وهى الضوابط والفهارس تجمع أسماءهم وتراجمهم (٣) مفرزة معينة (٤) كواغد جمع كاغد : وهو الورق

وَفَحْصِ مُتَفَرِّقِ شَتَاتِهَا ، مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ ، ثُمَّ تَمْضِيَ فِي الْمُقَابَلَةِ وَالْمُقَارَنَةِ بَيْنَ مَخْطُوطَاتِهَا بِأَخْذِهَا صُوَراً فُوتُوغْرَافِيَّةً لِمَا فِي الْخَارِجِ ، وَلَسْتُ أَشُكُّ أَنَّهَا سَتَنْتَهِي بِمَطَافِهَا فِي هَذَا الْبَحْثِ ، بِأَجْدَرِ النَّتَائِجِ وَالثَّنَاءِ ، وَأَحَقِّ الْآثَارِ بِالْبَقَاءِ .

* * *

دار الكتب والمخطوطات

وَآمُلُ أَخِيراً وَقَدْ قَرَّرَتْ حُكُومَةُ الْبِلَادِ : إِقَامَةَ بِنَاءٍ فَخْمٍ لِدَارِ الْكُتُبِ ، يَتَّفِقُ وَزَعَامَةَ مِصْرَ لِلشَّرْقِ ، وَقِيَادَتَهَا لِلنَّاطِقِينَ بِالضَّادِ ، وَخَصَّصَتْ لِذَلِكَ حَوَالَيْ ثُلُثِ مِلْيُونِ جُنَيْهٍ : أَنْ تَجْرِيَ عَلَى نَفْسِ هَذَا السَّخَاءِ ، إِزَاءَ تَخْصِيصِ مَبَالِغَ يُعْتَدُّ بِهَا ، لِنَقْلِ الْمَخْطُوطَاتِ الْعَرَبِيَّةِ ، مِنْ لُنْدُنَ وَبَرْلِينَ

وَبَارِيسَ ، وَكُوبَرْلِي بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَلِيدِنْ مِنْ مُدُنِ الْغَرْبِ ، وَعَوَاصِمِ الشَّرْقِ وَلا سِيَّمَا مَكْتَبَةَ الشَّاهِ بِطَهْرَانَ الَّتِي يُرَجَّحُ كَثِيراً وُجُودُ مَخْطُوطَاتٍ قَيِّمَةٍ بِهَا مِنْ تَوَالِيفِ الْمَوَالِي الْفُرْسِ وَأَشْعَارِهِمْ ، وَمَكْتَبَتَيْ بَغْدَادَ وَدِمَشْقَ اللَّتَيْنِ تَحْوِيَانِ لَا مَحَالَةَ طُرَفاً مِنْ هَـذَا أَيْضًا ، وَإِنَّ نَظْرَةً عَجْلَى[1] إِلَى مَا يَنْقُصُنَا مِنَ الْمَظَانِّ[2] الْعَرَبِيَّةِ الْمَخْطُوطَةِ ، وَإِلَى مَا فِي الْمَوْجُودِ مِنْهَا بِدَارِ الْـكُتُبِ ، مِنْ تَحْرِيفٍ وَتَصْحِيفٍ ، كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي الذَّخِيرَةِ لِابْنِ « بَسَّامٍ » ، وَالْمَنْثُورِ وَالْمَنْظُومِ لِابْنِ « طَيْفُورَ » وَالْحَيَوَانِ « لِلْجَاحِظِ » وَغَيْرِهَا ، لَمِمَّا يَتَطَلَّبُ عِنَايَةً لِإِكْمَالِ

(١) عجلى : سريعة (٢) المظان : المراجع

نَقْصِهِ ، وَإِصْلَاحَ خَطَئِهِ ، خِدْمَةً لِلْآدَابِ ، وَحِرْصًا عَلَى تُرَاثِ[١] الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، حَتَّى يَكُونَ حَفِيلُنَا بِجَوْهَرِ الْعِلْمِ ، كَحَفِيلِنَا - بِفَخَامَةِ الْمَبْنَى ، وَرُوَاءِ[٢] الْمَنْظَرِ .

* * *

تمهيد للهامش

وَالْآنَ وَقَدِ انْتَهَيْنَا بِمَعُونَةِ اللهِ مِنْ كِتَابِنَا التَّعْلِيقِ عَلَى الْمُقَدِّمَةِ فَهَلُمَّ مَعِي أُطَالِعْكَ بِكِتَابِنَا الْخَامِسِ وَهُوَ «الْهَامِشُ» عَلَى التَّعْلِيقِ . لِنُلِمَّ مَعًا بِشَيْءٍ غَيْرِ قَلِيلٍ مِنْ نَتَاجِ تِلْكَ الْعُقُولِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَبَّارَةِ فِي الْأَدَبِ الْمُقَارَنِ ، وَنُشْرِفَ عَلَى تِلْكَ النُّفُوسِ الْخِصْبَةِ التَّحْلِيلِيَّةِ فِي تَكْوِينِ نَوَابِغِ الْعَالَمِ وَعُظَمَائِهِ ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ

(١) التراث : ما يرثه الخلف عن السلف من مجد ومآثر وغير ذلك
(٢) رواء المنظر : حسنه وجماله وتنسيقه

تَدِينُ الْبَشَرِيَّةُ لَهُمْ بِمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ مِنْ صَلَاحٍ وَإِصْلَاحٍ، وَتَقَدُّمٍ وَارْتِقَاءٍ، وَهَنَاءَةٍ وَسَعَادَةٍ، وَلِنَرَى مَا هِيَ الْعَوَامِلُ الَّتِي بَلَغَتْ بِهَؤُلَاءِ إِلَى أَنْ مَلَكَتْهُمُ الطَّبِيعَةُ قِيَادَهَا، وَوَهَبَتْهُمْ قُوَّتَهَا وَسُلْطَانَهَا، وَأَفَاءَتْ عَلَيْهِمْ عِلْمَهَا وَعِرْفَانَهَا، فَإِنَّ فِي تِلْكَ الْبُحُوثِ ضِيَاءً يَسْتَضِيءُ بِهَا الْعَاثِرُ، وَيُصْقَلُ بِهَا الْخَاطِرُ. بَلْ هِيَ مِشْكَاةٌ يَهْتَدِي بِهَا السَّائِرُ فِي الْحَيَاةِ، وَلَهُ مِنْهَا طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ إِلَى الْمَثَلِ الْأَعْلَى الَّذِي يَتَوَخَّاهُ، وَإِلَيْكَ يُسَاقُ الْحَدِيثُ إِنْ شَاءَ اللهُ.

فهرست

كتاب التعليق على المقدمة

الصحيفة		الموضوع
من	الى	
٥	٧	كلمة المؤلف
٨	١١	المقدمة
١١	١٢	السلسلة الأولى والثانية
١٢	١٢	السلسلة الثالثة
١٢	١٣	المظان الرسمية وغيرها
١٣	١٧	السلسلة الرابعة
١٧	٢٠	رواية محمد بن يوسف
٢٠	٢١	رجاء المؤلف
٢١	٢٥	التماس المؤلف
٢٥	٢٩	عبد القادر الجرجاني وغيره

الصحيفة		الموضوع
من	الى	
٢٩	٣٢	الشيخ عبد العزيز جاويش
٣٢	٣٤	اعتراف بفضل
٣٤	٣٥	معلم المدرسة
٣٥	٣٦	اعتراف وفخار
٣٦	٣٧	نقد كتاب ابن الرومى
٣٧	٣٨	بدء الصلة بثروت باشا
٣٨	٤٠	عصر المأمون
٤٠	٤٢	حديث حماد الراوية
٤٢	٥٠	شيء من المراجع
٥٠	٥١	مع ثروت باشا
٥١	٥٢	كلمة الجاحظ فى التأليف
٥٢	٥٤	الجاحظ أيضاً
٥٤	٥٤	حكمة ابن الهيثم
٥٤	٥٥	ندوات أدبية
٥٥	٥٧	طرف عن ثروت باشا

الصحيفة		الموضوع
من	الى	
٥٧	٥٨	المكتبة التاريخية
٥٨	٥٨	طه حسين
٥٨	٦٢	شعار المؤلف
٦٢	٦٤	فن التراجم وتدوين سير الأبطال
٦٤	٦٦	عبادة البطولة
٦٦	٦٧	الأديان المنظمة
٦٧	٦٨	تطور الأديان
٦٨	٧٠	تدوين أعمال البطولة
٧٠	٧١	بلوتارك
٧١	٧٣	حياة العظماء
٧٣	٧٤	تقديس البطولة
٧٤	٧٦	توماس كارلايل
٧٦	٧٨	ارنست رينان وترجمة المسيح
٧٨	٧٩	جان جاك روسو
٧٩	٨٢	شهرة فن التراجم

الموضـــوع	الصحيفة من	الى
اميل لدوفيج	٨٢	٨٢
دراسة الحياة والانسان	٨٢	٨٣
العظماء والنوابغ	٨٣	٨٤
ايمرسن وفرود	٨٤	٨٥
دراسة التاريخ	٨٥	٨٦
مقال ايمرسن	٨٦	٨٨
النفس	٨٨	٨٨
الانسان	٨٨	٩٠
العقل البشرى	٩٠	٩٢
الحقيقة	٩٢	٩٣
قوى العقل	٩٣	٩٥
الطبيعة	٩٥	٩٥
القوانين	٩٥	٩٦
استطراد	٩٦	٩٩
اتجاه الأدب فى هذا العالم	٩٩	١٠١

الموضوع	الصحيفة من	الى
واجب الطالب	١٠١	١٠٣
ثقافة العالم للفرد	١٠٣	١٠٥
نابليون والتاريخ	١٠٥	١٠٨
كيف ننظر إلى التاريخ	١٠٨	١٠٩
كشف ماخبأه التاريخ	١٠٩	١١١
التفاوت فى النظر	١١١	١١٥
تطور الطبيعة	١١٥	١١٦
العبقرية الاغريقية	١١٦	١١٨
مظاهر العبقرية	١١٨	١١٩
أصلية تاريخ الفرد	١١٩	١٢٢
الحضارة اليونانية القديمة	١٢٢	١٢٤
الاعتماد على النفس	١٢٤	١٢٦
الجيش وحرية الرأى	١٢٦	١٢٧
نظرة فى القديم	١٢٧	١٢٩
كيف ندرس التاريخ	١٢٩	١٣٢

الصحيفة		الموضـــوع
من	الى	
١٣٢	١٣٣	متى نكتب التاريخ
١٣٣	١٣٩	حفظ الكتب
١٣٩	١٤٠	أوغسطين والكتب
١٤٠	١٤٢	فوضى القراءة
١٤٢	١٤٥	بيكون والكتب
١٤٥	١٤٧	فوائد القراءة
١٤٧	١٤٨	بم تكمل الثقافة ؟
١٤٨	١٥٠	أثر القراءة المتخيرة
١٥٠	١٥١	أرنولد والثقافة
١٥١	١٥٢	الكتاب والقارىء
١٥٢	١٥٣	منزلة الكتاب الممتع
١٥٣	١٥٧	الجاحظ يصف الكتاب
١٥٧	١٦١	الأدب العربى قديما وحديثا
١٦١	١٦٣	الأدب قديما وحديثا
١٦٣	١٦٥	أسبقية الشعر للنثر

الصحيفة		الموضـــوع
من	الى	
١٦٥	١٦٨	الشعراء والنشأة الانسانية
١٦٨	١٧١	التطور الأدبى الحديث
١٧١	١٧٥	الأدب الفردى والمجموعى
١٧٥	١٧٨	اتساع أفق الأدب
١٧٨	١٧٩	القصـــة
١٧٩	١٨٠	التراجم
١٨٠	١٨٤	مجاراة الأدب العربى للغربى
١٨٤	١٨٦	مستقبل الأدب
١٨٦	١٨٧	مدرسة الأدب الحديثة
١٨٧	١٨٨	ارتباط التاريخ بالأدب
١٨٨	١٩٠	نظرة إلى الوراء
١٩٠	١٩٥	أشباه الكتاب
١٩٥	١٩٨	الأدب العصرى الآن
١٩٨	٢٠١	المدرسة الحديثة
٢٠١	٢٠٤	فن القصة

الصحيفة		الموضـــوع
من	الى	
٢٠٤	٢٠٦	ألف ليلة وليلة
٢٠٦	٢٠٧	كتبنا والأدب الغربى
٢٠٧	٢٠٩	كتاب فن القصة
٢٠٩	٢١١	كيف يسمو القصص
٢١١	٢١٣	فن النقد وخطره
٢١٣	٢١٦	وسائل النجح وعدة الظفر
٢١٦	٢٢٠	النقد وأثره
٢٢٠	٢٢٢	مكتبة الثقافة
٢٢٢	٢٢٤	الكتب العربية والذوق العصرى
٢٢٤	٢٢٧	واجب الولاة نحو الثقافة
٢٢٧	٢٢٨	التضافر العام على نشر الثقافة
٢٢٨	٢٢٩	نصيب دار الكتب من الثقافة
٢٢٩	٢٣١	دار الكتب والمخطوطات
٢٣١	٢٣٢	تمهيد للهامش

١٩٣٦/٥/٥١٠٠/١

892.708:R56mA:v.4:c.1
رفاعي، احمد فريد
مكتبة القراءة والثقافة الادبية للجيب
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01032585

American University of Beirut

892.708
R56mA
v.4
General Library

892.708
R56-mA
v.4
SHIRLAND